دولة بنى أمية فى أسبانيا

١- عبد الرحمن الداخل:

أراد الله أن يكون لبنى أمية دولة بالمغرب بعد انقراض دولتهم بالمشرق فإن بنى العباس لما فتكوا بهم وانتزعوا منهم الخلافة واستباحوا دماءهم كى يستأصلوا شأفتهم ويصفو لهم الجوّ فرّ من وجوههم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وهو ابن عشرين سنة[١] إذ أمر السفاح أول الخلفاء العباسيين أن يقتل هو وابن عمه فى دمشق حيث كانا يسكنانها لكن من حسن حظ عبد الرحمن أن كان غائبا فى ذات الزيتون فلما بلغه الخبر فرّ إلى فلسطين وأقام هو وخادمه بدر يتجسس الأخبار.

تربى عبد الرحمن فى بيت الخلافة الاموية يتيما فقد مات أبوه معاوية سنة ١١٨ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جدّهم هشام عاشر الخلفاء الأمويين وكان يقطعه اخماس الاندلس فلهذا كانت انظار عبد الرحمن ترمى إلى اسپانيا.

جدّ بنو العباس فى طلبه ففرّ منهم إلى أفريقية وكان حاكم برقة وقتئذ ابن حبيب الفهرى وهذا وإن كان صنيعة الأمويين ولكنه دار مع الدهر ونسى إحسانهم القديم فأرسل جنود الشرطة فى الأنحاء والطرق ليرقبوا عبد الرحمن ويأتوا به فى الاصفاد قائلا لهم: «إن أعظم خدمة نؤديها إلى الخليفة هى القبض على هذا الآبق» جاب عبد الرحمن بلاد برقة على غير هدى بل راكبا التعاسف ولكنه كان يلقى فى كل بلد حلّ فيه كرّاما يكرمون مثواه وكان يدعو القلوب إلى محبته شبابه وجمال روائه وسيما الملك فى محيّاه ودماثة أخلاقه.

ذات ليلة فاجأت الشرطة قوما نزل بهم وسألتهم: «هل نظرتم شابا سوريا

(١) ولد فى ارياض دمشق سنة ١١٣ للهجرة. فى نفح الطيب أنه ولد بدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعلياء من تدمر.

صفاته كيت وكيت» فأجابوها: «إنه بكر لصيد الأُسْد ومعه عصابة من الفتيان يبيتون الليلة فى وادى كـذا» لمـا سـمع السـائلون هذا الجـواب أرخـوا أعنَّة خـيلهم إلى الوادى ثم دخل المُضـيفون إلى عبـد الرحمن وبلّغوه الخبـر وأمدّوه بعشـرة شبان أشـدّاء هرب معـهم تحت جنح الظلام يقطعـون السـهول والحـزون حتى أبعـدوا المفرّ فى الصـحارى وآووا إلى مأوى بعيد عن حـبائل ابن حبيب ما راعـهم فيه أن سمـعوا زئير السبـاع ثم تابعوا السير نـحو الغرب عدة أيام حـتى وصلوا إلى مدينة تاهرت[١] حيث تـقيم قبـيلة زناتة[٢] فاستـقبلوا فيها اسـتقبالا عظيمـا فإن الزناتيين كانوا خؤولة عبد الرحمن لأن أمه (راح) كانت تنسب إلى هذه القبيلة.

فى هذه الاثناء كانت الحروب الأهلية قائمة فى اسبانيا بين يوسف الفهرى أمير قُـرطُبة وطلَيْطُلة وعـامـر بن عمـرو العَبْـدَرى أميـر سـرقسطة ومن أجل ذلك سـاد الاختلال فى انحاء البلاد.

علم عـبد الرحمن طـريد العباسـيين بأحـوال اسبـانيا فسنحت له أن يثب على كرسى حكومتها ويرفع قـدر أمية فأرسل بدرا خادمه الصادق عتيق أبيه إلى اسبانيا ليمهد لـه ذلك الطريق باستمالته العقـول إليه فكان من المصادفات الغريـبة وسعد طالع عبـد الرحمن أن رأى بدر عند وصـوله إلى قرطبـة ثمانين شـيخـا من رؤساء القبائل مجتمعين فيها والأمير يوسف غائب يتشاورون فى نزع الامارة منه محتجين بأنه لا يستعملهـا إلا فى منافع الفهريين قبيلته والقـيسيين قبيلة الصمـيل رفيقه وبأنه آخذ فى سلخ الجزيرة عن خلافـة آسيا وقد اتفقوا جميـعًا على نزعه ولكن كان من الصعب عليهم أن يجدوا أميرا يجمع الصفات التى تقتضيها الحالة الحاضرة.

كاشف بدر بعضهم بمـقصده فعرض ذلك البعض على مجتـمعهم اسم عبد

(١) يقال لها أيضا تيهرت وكانت عاصمة البربر وبينها وبين تلمسان والبحر أيام قلائل.

(٢) كانت قبيلة زناتة من القبائل المشهورة بين البربر وهى قبـيلة طارق بن زياد وكانت منتشرة فى جزء عظيم من سـاحل أفريقيـة وكان هذا الجزء يسمى بـالمغرب الأقصى ويشـغل أرضه الآن ولاية الجزائر وجزء من أقليم قسطنطينة

الرحمن قائلا لهم: إنه فتى سوريّ من بيت خلافة بنى أميّة فرّ من فتك بنى العباس ونجاته تحسب من المعجزات الباهرة وقد التجأ الآن إلى قبيلة زناتة» فلما سمعوا اسم اميّة هَشُّوا جميعا إليه لا سيما السوريون وقرّروا بإجماع الأصوات انتخابه أميرا لاسبانيا.

كانت رياسة المجتمعين تنتهى إلى أبى عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد صهره فوجّها إلى الأمير المنتخب مركبا فيه تَمّام بن علقمة أبو غالب ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبى الاسمط فعبروا المجاز ومعهم بدر ووصلوا إلى تاهرت فتقدم تمام إلى عبد الرحمن وعرض عليه امارة الاندلس باسم المجتمع قائلا: «اجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة فيسعك أن تبنى فيها ملكا مشيد الاركان موطّد الدعائم على أساس أقوى من الجبال معتمد على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتيان اشدّاء من ابناء من فتحوا الغرب وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها ونحن جميعا نهبّ إلى الوغى ونبذل الأرواح فى سبيل ارتقائك إلى عرش الامارة التى نلقى مقاليدها إليك ونحفظ بنيانها من أن يثلم».

سكت عبد الرحمن هنيهة يتوقع أن يتمّم تمام خطابه لكنه أحس أن الوفد ينتظر اجابته فقال: «أيها السراة الامجاد إجابة لرغائبكم وسعيا وراء أمانيكم فى إصلاح شئون مسلمى اسبانيا اذهب معكم باذلا النفس فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيتم منى اخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء، يعلم الله إنى لا أخشى الشدائد ولا أهوال الحروب ولا أرهب الموت الأحمر فقد عركنى الدهر وعركته وكثيرا ما ركبت متون الاخطار على حداثة سنى وإذ ما كان ما يدعوننى إليه هو رغبة مسلمى الاندلس الاشراف فأنا ألبى نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم وحامى ذمارهم، إن شاء الله».

لما قبل عبد الرحمن من الوافدين إليه امارة الاندلس هنأه شيوخ زناتة بهذا

المنصب الخطير وأمدّوه بسبعمائة وخمسين فارسا من تاهرت ومكناسة وقيل بألف فعبر بهم البحر حتى نزل حصن المنكب على ساحل كورة البيرة[١] فى ربيع الآخر سنة ١٣٨[٢] فى خلافة أبى جعفر المنصور العباسى.

فى ذلك الحين انسلخ اقليم سبتمانيا من حكومة المسلمين وسببه هبوب عواصف الثورات وتأجّج نيران الفتن فى اسبانيا.

فى غضون ما كانت سفينة عبد الرحمن تسوقها ريح رخاء إلى الاندلس وشيعته المنبثون فى الجهات يرتقبون وصوله ليستقبلوه ويشهروا امارته على الجزيرة انتصر يوسف الفهرى على عامر وابنه وأخذ منهما سرقسطة فى آخر سنة ١٣٧ للهجرة (٧٥٥) ورجع بهما وبحاجبهما الحباب الزهرى مصفدين فى الاغلال وبينما هو جذلان من انتصاره إذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الاندلس فانقلب فرحه ترحا وكان وقتئذ فى وادى نهر الرمل على بعد خمسين ميلا من طليطلة عندئذ قتل الثلاثة المصفّدين طعنا بالرماح وكان فى قتلهم أفول نجم سعده وبزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن قال يوسف للصميل: ما الرأى فأشار عليه أن يلطف له ويمنّيه زواج ابنته ويهديه ولا يعاديه وبذا يتحكم فيه وفيمن سعوا له فبعث يوسف كاتبه خالدا بكتاب وكسوتين ومطيّتين وخمسمائة دينار وقال له: اعرف امره وأمر من حوله فخرج فى الليل ومعه صَحْبٌ وأصبحوا على ابن معاوية بالكتاب والهدية، فقبل الهدية وأبى التزوج فأغلظ خالد القول فأمر ابن معاوية بوثاقه وردّ غيره إلى يوسف ولم يردّ عليه جوابا ومن كتاب يوسف إلى ابن معاوية «أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبُّشُ من تأبَّشَ إليك ونزع نحوك من السُرّاق وأهل الختْر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها

(١) مملكة غرناطه.

(٢) فى ابن الأثير ونفح الطيب وكندى أن عبد الرحمن نزل حصن المنكب فى شهر ربيع الآخر من سنة ١٣٨ وخطأ رومى شهر التاريخ وقال أن عبد الرحمن نزل هذا الحصن فى ثالث ذى القعدة من هذه السنة.

وكذبونا وبه ـ جل وعلا ـ نستعين عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فإنا أولى بك ممن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ثم لك عهد الله وذمته بى ألاَّ اغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية ولا غيره[1]» هذا بعض فصول الكتاب.

لما لم يردّ ابن معاوية على يوسف جَدّ هذا وصاحبه الصميل فى المسير وأرسلا أوامر بحشد الجنود فى أقرب وقت وامر يوسف ابنه عبد الرحمن بأن يدافع عن كورة قرطبة حتى يصل إليه.

لما نزل عبد الرحمن من السفينة إلى حصن المنكب ومعه نحو ألف فارس من زناته بادر رؤساء الاندلس إلى استقباله وحلفوا له يمين الطاعة وكان فى مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد رئيسا قبائل البيرة فركبوا إلى قرية طَرْش TARRX منزل أبى عثمان.

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة فى جميع انحاء اسبانيا الجنوبية فكان يجيئه وجوه القبائل ويبايعونه ويلقبونه بالداخل وفى أيام قلائل جمعوا له عشرين ألف جندى من كور البيرة والمريّة ومالقه وشريش وأركش وشدونة، كان ينتقل من كورة إلى أخرى قاصدا قرطبة ورؤساء اليمانية ينضمون إليه أثناء المسير فانضم إليه فى ريّة عيسى بن مساور[2] وفى شدونة غياث[3] بن علقمة وفى مورورٌ أبو الصباح.

يرى أن مسير عبد الرحمن إلى قرطبة ما كان فى طريقها المسلوك فإنه سار من

---

(١) ابن عذارى.

(٢) فى ابن الأثير عيسى بن مساور وفى ابن خلدون عيسى بن مسور.

(٣) فى ابن الأثير غياث بالغين المعجمة والشاء المثلثة وفى ابن خلدون عتاب بالعين المهملة والباء الموحدة.

الشرق إلى الغرب فى الأرض التى يسكنها المصريون والسوريون المخلصون فى ولائه فكانت المدن تفتح له أبوابها ولما قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قريش إلى استقباله ثم صعد منها مسرعا إلى النهر الكبير قاصدا قرطبة حيث كان ابن يوسف مستعدا للقتال فخرج للقائه يقود جيشا قويًا على الشاطئ الايسر من النهر فتقابلا ودارت رحى الحرب بين الفريقين بدون ابطاء: حمل جيش الفهرى على اعدائه ببسالة ولكن ما أمكنه أن يثبت أمام شجاعة فرسان زناته بل انقلب على عقبيه فارًا إلى قرطبة واقتفى أثره عبد الرحمن حتى وصل إلى أسوار المدينة وحاصرها.

لما بلغ يوسف خبر هزيمة ابنه وقع الرعب فى قلبه وجدّ هو والصميل فى المسير ليرفعا الحصار عن قرطبة وعزما أن يفاجئا معسكر عدوّهما المخيم فى السهل المنحصر بين النهر الكبير وجزء نهر يانه المحاذى مدينة بطليوس ويفتكا به.

أدرك عبد الرحمن خطة سيرهما فبادر إلى لقائهما وأخذ معه عشرة آلاف من جيشه وترك مثلها تحاصر المدينة تحت قيادة تمّام بن علقمة وأقدم بشهامة على مقابلتهما مع أن عدد جنودهما يزيد عن ضعف جنوده فتلاقى الجيشان فى صحراء المصارة غربى قرطبة فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨ ودارت رحى الحرب بينهما فى العاشر منه أى يوم عيد الأضحى وكان يوم الجمعة (١٥ مايو سنة ٧٥٦).

تفاءل عبد الرحمن بالفوز لمشابهة هذا اليوم بيوم مرج راهط الذى كانت فيه الواقعة بين جده مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهرى فدارت الدائرة على الأخير.

أراد الداخل أن يشدّ عزائم جنوده فقال لهم يوم التلاقى: «أى يوم هذا» فقالوا: «الخميس يوم عرفة» فصاح قائلا: «فالأضحى غدا يوم الجمعة والمتزاحفان أموى وفهرى والجندان قيس ويمن قد تقابل الأشكال جدا وأرجو

أنه أخو يوم مرج راهط فابشروا وجدّوا»[١] فلما سمعوا ذلك قويت عزائمهم ووثقوا بالنصر وباتوا يأخذون أهبتهم للقتال وبات جيش يوسف يُعدّ الضحايا للذبح واشيع فيه قبل الفجر حديث مشابهة يوم مرج راهط بيوم الغد فتشاءموا وخارت قواهم.

لما تنفس الصبح هجم فرسان عبد الرحمن على فرسان يوسف بغتة فتزعزع هؤلاء وارتدّوا على أعقابهم بدون نظام حتى اختلطوا مع المشاة وساد الفشل فيهم وفى منتصف اليوم تبدّد شمل الفهريين وتفرقوا أيدى سبا تاركين معسكرهم مغطى باشلاء القتلى وأسلابهم وأسلحتهم وافترق يوسف والصميل فالأول فرّ نحو ماردة والثانى نحو جيّان هذه الواقعة رفعت شأن عبد الرحمن وأيدت سلطانه.

روى أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لهم بعد هزيمة يوسف والصميل: «يا معشر يمن هل لكم إلى فتحين فى يوم قد فرغنا من يوسف والصميل فلنقتل هذا الفتى ابن معاوية فيصير الأمر لنا نقدّم رجلا منا ونحلّ عنه المضرية» فلم يجبه أحد لذلك فإن شهامة عبد الرحمن فى الواقعة ملكت قلوبهم.

بلغه الخبر فأسرّها فى نفسه إلى أن اغتاله بعد عام فقتله.

رجع عبد الرحمن إلى قرطبة وقد فزع أهلها ففتحوا له أبوابها على شرط أن يدخل من باب القنطرة الغربى وأسرة يوسف وأتباعه تخرج من الباب الشرقى.

فلما دخلها لم يستقرّ به قرار بل أقام عليها أبا عثمان محافظا[٢] ونهض فى طلب يوسف فعلم هذا بأمره وبأن حامية قرطبة عددها قليل فانتظر حتى جاوز

---

(١) كذا فى نفح الطيب صحيفة ٧١٤ وما بعدها وفى تقييدات رومى صحيفة ١٩١ من الجزء الثالث (أن هذا اليوم كان فى سنة ٢٤ للهجرة وأن الواقعة كانت بين مروان وأحزاب خصمه الزبير فى شرق غوطه دمشق) وأقول إن هذا الواقعة كانت فى سنة ٦٤ لا ٢٤.

(٢) كذا فى تاريخ رومى والتواريخ العربية لكن فى تاريخ كندى أنه أقام حسام بن عبد الملك محافظا على قرطبة صحيفة ١٧٨ (جزء أول).

خصمه جبال مورين SIERRA MORENA فخالفه فى الطريق وانقض على المدينة فلم يسع أبا عثمان وجنده القليل العدد إلا الفرار إلى حصن مدوّر من كورة غرناطة[١] وقيل: إن يوسف أمر ابنه أبا زيد أن ينقضّ على المدينة ففعل وحاصر عبيد الله فى منارة الجامع الكبير حتى الجأه إلى التسليم وأخذه أسيرا وأخذ جاريتين كانتا فى القصر لعبد الرحمن[٢].

عاد عبد الرحمن على الفور واستردّ المدينة لكنه لم يجد يوسف فاقتفى أثره حتى لحقه فى أرض المنكب وكان قد اجتمع بصاحبه الصُّمَيل وناجزهما القتال بدون ريث حتى مزّق جيشهما كل ممزّق فالتجأ إلى جبال البيرة فتبعهما فنزل يوسف وادى شنيل حيث توجد جملة بيوت من انشاء العرب يكتنفها حصون منيعة على مسافة غير بعيدة من البيرة القديمة وآل أمر هذه البيوت بعد عدة قرون إلى أن صارت مدينة غرناطة الشهيرة وهى آخر مدينة كان بها عز وسلطان للمسلمين فى اسبانيا، وبعدئذ أحسّ يوسف أنه لا يمكنه المقاومة زمنا طويلا وأشار عليه الصميل أن يخابر عبد الرحمن فى الصلح ففعل وتم بينهما فى صفر سنة ١٣٩[٣] على أن يكون للأموى الإمارة والسلطان على جميع البلاد وللفهرى أمواله خاصّة وأن يسكن بلاط الحرّ (منزلة بشرقى قرطبة) وأن يعطيه رهينة على ذلك ولديه أبا الأسود وأبا زيد يبقيان فى قصر الإمارة مكرمين إلى أن تهدأ الجزيرة فيردّهما إلى والدهما، وفى أثناء مخابرات الصلح ردّ خالد الاسبانى اسير عبد الرحمن إلى يوسف وهذا ردّ إليه اسيره عبيد الله وبعد الصلح عاد عبد الرحمن إلى قرطبة ويوسف على يمينه والصميل على يساره فى (يوليو سنة ٧٥٦)[٤].

(١) كندى.

(٢) دوزى.

(٣) فى المقرى أن عقد الصلح تم فى صفر سنة ١٣٩ كما ذكرنا وفى رومى وكندى أنه تم فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩ ـ ٢٩ سبتمبر سنة ٧٥٦.

(٤) دوزى.

يؤخذ من كندى وروى أن عبد الرحمن عهد فى هذه السنة إلى الصميل بإمارة الحدود الشرقية نحو جبال البرانس المشتملة على وادى ابره من سرقسطة إلى طرطوشه جزاء نصائحه التى حسمت الخلاف وعقدت الصلح بين الفريقين.

لما ذاع خبر الصلح فى اسبانيا خضع إلى عبد الرحمن شيوخ القبائل من اليمانية والمضرية فى الجنوب والغرب وجاءت إليه وفود الجهات تترى لتعرب له عن طاعتها وإخلاصها فاكرم مثواهم واحتفى بهم وابقى القادة منهم فى قيادتهم والعمّال فى عمالاتهم فخرجوا من عنده فرحين شاكرين وعادوا إلى مدنهم وألسنتهم تطرى مدحه وتردد الثناء عليه، ثم إنه زار المدن الشهيرة من الاندلس والاسترامادورة ASTRAMADURE توجّه إلى ماردة فى طنطنة مسموعة وأبهة مرموقة يصحبه كثير من اصدقائه وكوكبة من فرسان زناته فدخلها فى يوم مشهود واخترق شوارعها ممتطيًا جواداً نَهْداً مطَهَّمًا تحفه تهليلات الفرح والسرور من الأهلين، وفى هذه المدينة استقبل مبعوثى البرتغال (لوزيتانية) والقنطرة وبطليوس وغيرها وقدّموا له مراسيم الطاعة بالنيابة عن بلادهم.

عاد عبد الرحمن إلى قرطبة بهجا من نجاح سياحته السياسية وصفا له جو الحدثان زمنا رزق فيه بمولود سمّاه هشاما فى رابع شوّال سنة ١٣٩ (أول مارس سنة ٧٥٧) أى فى السنة الهجرية التى تولّى فيها.

وفى هذه السنة ابتنى الأمير منية الرصافة تشبيها برصافة جدّه هشام فى الشام فاتخذ بها قصراً عاليا يشرف على جميع الجهات يرى منه الرائى مناظر على مسافات شاسعة ودحا حوله حدائق واسعة نقل إليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل جهة وغرس بيده فيها نخلة احضرها من الشام والنخل ما كان معروفا عند الاسبانيين فى ذلك الوقت فكانت هى أول نخلة غرست فى أرض

اسبانيا ومنها تولد النخل الاسبانى، ويروى أن الأمير كان يراقب نماء هذه النخلة من قصره وينشد:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بارض الغرب من بلد النخلِ
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول اكتئابى عن بنىّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمتنأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المتنأى الذى
يسحّ ويستمرى المساكين بالوبلِ

قال ابن سعيد والرمان السفرى[1] الذى فاض على ارجاء الاندلس وصار لا يفضلون عليه سواه من هذه الرصافة.

كان الأمير كثير الحنين نحو الشرق موطنه القديم دائم التفكر فى بقايا الامويين المضطهدين المشتتين فى العراق ومصر وبرقة حتى بعث معاوية بن صالح الحضرمى رسولا إلى الشرق يدعو من شاء منهم إلى التوجه إلى الاندلس وانشد يتشوق إلى معاهده بالشام مخاطبا الرسول:

أيّها الراكب الميمّم أرضى ... أقرِ من بعضىَ السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قُدّر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

(١) قيل سبب تسميته بذلك أن الأمير أرسل رسولا يحضر أخته من الشام إلى الاندلس فجلب طرائف من رمان رصافة هشام فأعطى جزءا منه إلى سفر بن زيد من جند الأردن فغرس عجمه فأينع وأثمر وجاء بجناه إلى الأمير فاغترس منه بجنان الرصافة فانتشر نوعه.

ففى أوائل سنة ١٤٠ عـاد الرسول إلى اسبانيا ومـعه كثيـر منهم وكان من بينهم عبد الملك بـن عمر المروانى وابناؤه فعـقد له الامير على اشـبيلية[١] ولابنه عمر على المدوّر ونصب مـعاوية قاضى القـضاة فى اثناء ما كـان عبد الرحـمن يصرف السنين الأولى من حكمـه فى إصلاح شئـون اسبانيـا وتوطيد دعائـم ملكه فيهـا كان يوسف يصرف ثروته الواسعة فى تأليف حزب له سرّا.

ففى أوائل ستة ١٤٢ ظهر له أن حـان الوقت المناسب لإيقاد نار الثورة وردّ ما سلب منه فثار واسـتولى على حصن المدوّر ومـا جاوره فى غرب قرطبة وقـام معه نحو ٢٠ ألف ثائر وأخذ يجـدّد سلطانه على الأقاليم حينئذ بـادر عبد الملك وابناؤه وتحت امرتهم جنود مـن اركش وشدونة واشبـيلية إلى ردّ هذا الحصن وغـيره من المدن المجاورة[٢] فـإن سكانها انـقلبوا ينادون باسـم يوسف فهـاجـموهم حـتى هزموهم.

وأخذ عـبد الملك يطارد المنهزمـين نحو أرض تدمير حـيث كان فيهـا العدوّ قوى الجـانب كثير العـدد بعد أن كتب إلى عبـد الرحمن يخبره بالنصـر وأن يمده بمدد عظيم يجىء من طريقين كى يفرّق قوى يوسف المجتـمعة ويشغلها فلحقهم فى برارى لورقـة LORCA[٣] ودارت رحى الحـرب بين الفـريـقـين وانجلت عن تبديـد شمل الفـهريين واصـابة يوسف بعدة جـراحات أودت بحـياته فقـطع رأسه وأرسل إلى عبـد الرحمن[٤] وروى أن هذه الملحـمة وقـعت بين مـاردة وطليطلة وأن يوسف اغـتاله بعض جنده اثناء هـزيمتـه وأرسلوا رأسه إلى قـرطبة دليـلا على طاعتهم وكانت مدّة حكم يوسف ٩ سنين و٩ أشهر.

(١) فى نفح الطيب صحيفة (١٥٦) أن عبد الملك بن عـمر المروانى وفد على عـبد الرحمن من المشرق فى عشرة رجـال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة سنة ١٤٠ فعـقد له على الشبيليه ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور.

(٢) كذا يؤخذ من كندى ورومى.

(٣) كذا فى رومى، وفى كندى لوشة LOXA.

(٤) كذا يؤخذ من رومى وكندى، وفى التواريخ العربية ما يخالف ذلك.

وأما أولاد يوسف الثلاثة فاكبرهم أبو زيد اقتفى أثره والى طليطلة تمّام وقتله وأرسل رأسه إلى قرطبة فعلّق بجانب رأس أبيه وأوسطهم أبو الأسود حبسه بدر فى طليطلة فى ٩ ذى القعدة سنة ١٤٢ (٢ مارس سنة ٧٦٠) ومنّ عليه بحياته على شرط أن يسجن فى إحدى قلاع قرطبة الحصينة طول عمره وأصغرهم قاسم ابن يوسف نجا بنفسه والتجأ إلى الجزيرة الخضراء عند عاملها رزق بن النعمان الغسّانى فأجاره وجهّز جيشا هاجم به شدونة واشبيلية[1] ولكن تمّام توجّه إليه وردّه إلى أرضه وأخذ قاسما وساقه إلى قرطبة مغلولا فلم يقتله عبد الرحمن بل أرسله إلى طليطلة تحت قيادة بدر ليسجنه فى قلعة تاجه.

كافأ عبد الرحمن تمّاما بتوليته منصب الحجابة وهى تقابل فى زماننا رياسة الوزراء.

واقتفى بدر خطوات الصميل وراقبه إلى أن جاء به من شقندة إلى قرطبة وزجّه فى السجن حتى مات خنقا بحبل وقيل قطع رأسه بسكين، الآن بلغ عبد الرحمن ما كان مطمح انظاره فقد تبوأ عرش مملكة اسبانيا الواسعة الارجاء بحكمته وشهامته ودهائه بعد أن أهلك عتاة اعدائه المنازعين له فى سلطانها ومن العجب العجاب أن بلغ هذا المرقى بعد أن طلّ دَمه وفرّ من وطنه اتقاء الفتك به وقاسى الشدائد وتجشم الاخطار ضالا فى صحارى أفريقية بين قبائل المغرب خمس سنوات ومع هذا الرقى ما صفت له الأيام ولم يهنأ بما أتاحه له القدر من الملك والسلطان فإنه حكم اسبانيا ٣٣ سنة هجرية لم يكن فيها لواء السلم منشورا بل نازعه فى الامارة الفهريون واليمانيون والافارقة ونصارى الشمال والفرنج.

ففى سنة ١٤٤ للهجرة بلغ الأمير أن قبيلة قوية تحت إمرة هشام بن عذرة

(١) كذا يؤخذ من رومى وفى ابن الأثير أن رزق بن النعمان الغسانى وكان على الجزيرة الخضراء ثار بالاندلس على عبد الرحمن فى سنة ١٤٣ فاجتمع إليه خلق عظيم فسار إلى شدونة فملكها ودخل مدينة اشبيلية وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها وضيق على من بها فتقربوا إليه بتسليمهم رزقا فقتله فامنهم ورجع عنهم.

الفهرى قامت على وزيره فى طليطلة وأخذت منه القصر وطردته وفكّت اسار قاسم بن يوسف الفهرى من السجن واجتمع تحت لوائها عشرة آلاف رجل فسار إليهم عبد الرحمن بنفسه وحاصرهم فى طليطلة وشدد الحصار عليهم طويلا حتى اضطر غير الفهريين من المحاصَرين إلى أن يتذمروا على هشام بن عذرة وفى ذلك الحين جاء الأمير خبر ثورة اشدّ خطرا من هذه فاضطر إلى أن يصالح هشاما على شرط أن يفتح المدينة بدون ريث وأن يسلم ابنه محمدا رهينة على الصلح وأن يردّ قاسما إلى السجن فخضع ابن عذرة لهذه الشروط كرها وألقى مقاليد المدينة إلى الأمير فى (آخر سنة ١٤٥ للهجرة ـ ابريل سنة ٧٦٣).

وفى سنة ١٤٥ ارسل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور إلى والى القيروان العلاء بن مغيث أن ينزع اسبانيا من ابن معاوية ويردّها إلى خلافة بنى العباس فاستعدّ هذا الوالى لما دعاه إليه الخليفة فبلّغ شيخ تاهرت عاصمة زناته خبر الاستعداد إلى عبد الرحمن اثناء ما كان يحاصر طليطلة وهذا ما حمله على عقد الصلح مع ابن عذرة فى شهر (افريل سنة ٧٦٣).

وفى هذا الشهر نفسه أغار العلاء على شواطئ الاندلس وجاء نبؤه إلى طليطلة فندم هشام على الصلح ودعا حزبه إلى السلاح ونزعوا إلى الثورة ثانية وهاجموا القصر وقتلوا جميع من كانوا يدافعون عنه ومن بينهم سعيد بن المسيّب والى طليطلة واستولوا على أبواب وحصون المدينة ودعوا إلى (المنصور الخليفة العباسى) فبلغت الانباء إلى قرطبة فأمر الأمير قائده بدرا بجمع جيوش من قلعة رباح وطلبيرة وغيّرهما وأن يحاصر طليطلة آخذا معه محمد بن هشام الرهين وأن يمنع ابن عذرة من أن ينضم إلى ابن مغيث ولكنّ بدرا قد فاتته الفرصة وحاصر المدينة بعد أن خرج منها هشام قاصدا العلاء.

وهذا الأخير أوغل فى إقليم باجة من جهة الغرب قاصدا قرطبة محرضًا الأمة على اشهار السلاح فى وجه (الداخل) قائلا: «إنه آبقٌ شقىٌّ من قوم اخنى عليهم

الدهر ملعونين على منابر الشرق مغضوب عليه من خلافة الإسلام الشرعية» حاملا اللواء الأسود شعار بنى العباس ليستميل القلوب إليه مدعيًا أنه استلمه من الخليفة نفسه وأن من يتبعه فجزاؤه الجنة فاتبعه ناس كثيرون تزعزعت أفكارهم من زخرف قوله وفوق ذلك كان يكثر العطايا لتابعيه ويعدهم باضعافها عند الفوز.

فى هذه الاثناء جمع عبد الرحمن جنودا من أنحاء شتى ورتّبها ثلاث فرق كانت ثالثتها أشد بأسا لأنها كانت مؤلفة من فرسان قرطبة واشبيلية وشريش ثم قدّم شراذم من جيشه تناوش العدو فلما صارت على مرأى من معسكر العلاء الكثير العدد خرج عساكره عن متاريسهم ووقعت بين الفريقين مناوشات غير كبيرة الجدوى وكان هشام وقتئذ وصل إلى هذا المعسكر ليدعو والى القيروان إلى الإسراع فى الاستيلاء على طليطلة عاصمة الأندلس القديمة.

ولما طلع فجر اليوم التالى زحف العسكران للقتال فبدأت عسكر ابن مغيث بالهجوم فكانت ملحمة شديدة استمرت بدون رجحان فريق على آخر إلى منتصف النهار ثم هجم فرسان الاندلسيين بحميّة شديدة على الأفارقة فبدّدوا شملهم وحلّوا عقد نظامهم وقتلوا العلاء قائدهم.

قال رومى ما معناه: تقدم عبد الرحمن إلى العلاء وقابله فى أرض بَطَلْيَوْس وتقاتلا أياما بدون أن يظهر فريق على آخر ولكن آل الأمر إلى أن لا يحتمل العباسيون هجمات فرسان الأمويين وأن يسقط لواء الخليفة فى يد الأمير والى قتل العلاء وسبعة آلاف من جيشه والى انهزام باقيه إلى أفريقية ـ وبعد أن فُضَّت هذه المعركة الشعواء سنة ١٤٦ قطع ابن معاوية رأس ابن مغيث ويديه ورجليه وأرسل هذه الاشلاء سرّا إلى القيروان ومعها هذه الكتابة «هكذا يقتصّ عبد الرحمن بن معاوية بن أمية من المعتدين عليه كالعلاء بن مغيث والى القيروان» ويروى أن العلاء بن مغيث ثار بباجة سنة ١٤٦ ودعا إلى طاعة المنصور فاتبعه الناس إلى أن كادت دولة الأمير تنصرم فخرج إليه من قرطبة وصار بقرمونة فتحصن بها مع

مواليه وثقاة رجاله فنازله العلاء وحاصره بها نحو شهرين فلما طال الحصار ملّ عسكر العلاء الانتظار وعلم عبد الرحمن ما هم عليه فأمر بنار فأوقدت بالقرب من باب المدينة وقال لأصحابه وكانوا نحو سبعمائة من أبطال الرجال «لنُلْقى أغماد سيوفنا فى هذه النار ونحلف على الموت كراما فى ساحة الوغى إذا لم يُكتب لنا النصر» فكلهم ألقوا الأغماد فى اللهب وخرجوا من المدينة والشجاعة تغلى فى صدورهم وانقضوا على المحاصرين انقضاض العقبان على الغربان فبددوا شملهم وقتلوا العلاء رئيسهم وسبعة آلاف منهم.

ثم إن الأمير أمر بجزّ رأس العلاء ورءوس أشراف أصحابه وقُرِّطَت فى آذانها صكوك باسمائهم وأودعت اسفاطا وأنفذ الأمير قوما توجهوا بها إلى القيروان فطرحوها فى الليل فى الأسواق فتسمّع الناس أمرها واتصل الأمر بأبى جعفر فانكسرت حدّته وقيل: إن رأس ابن مغيث، حملت فى سَفَط ومعها اللواء الاسود إلى مكة ليقع عليها نظر المنصور وهو حَاجٌّ فلما رآها ارتاع وقال ما هذا إلا شيطان (يعنى عبد الرحمن) الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا[1].

لم تكن هذه الهزيمة حاسمة للنزاع لأن هشام بن عذرة قاوم زمنا وتحت رايته بقايا الفهريين والعباسيين فإنه لما لم تمكنه العودة إلى طليطلة التى كان بدر يحاصرها توجه إلى شدونة فاستولى عليها ثم فاجأ اشبيلية وخرّب فيها دار الصناعة والقصر فعادت الجنود الأموية إليه ففرّ إلى شدونة حيث تجمعت احزابه ولكن عبد الملك بن عمر حاصرهم فيها وضيق عليهم دائرة الحصار فلم يبق لهم إلا أحد أمرين اما أن يسلموا البلد واما أن يخرجوا ويخترقوا معسكر العدو وقد عوّلوا على الأمر الأخير ففى ليلة ليلاء خرجوا من بابين من أبواب المدينة وفاز عدد عظيم منهم بالنجاة إلى جبال زندة وجاز بعضهم البحر إلى أفريقية ولكن هشاما

(١) ابن عذارى ودوزى والمقرى مع تصرف.

ما أمكنه الفرار معهم لشيخوخته فأدركته خيل الأمويين وأصيب فرسه بضربة فسقط ووقع فى قبضة عبد الملك فعجل بقتله سنة ٧٦٥م.

لنعد إلى حصار طليطلة:

ابتدأ حصارها سنة ٧٦٣م ومكث إلى سنة ٧٦٦ وسبب طول الحصار أنها كانت ذات حصون قوية وأهلها وإن كانوا أخلاطا من المسلمين والنصارى المستعربين لم ينشقوا فى الرأى بل أجمعوا أمرهم على خطة واحدة فى السياسة وهى أن لا ينقادوا لأمير قرطبة ضاربين صفحًا عن اختلافهم فى الدين، وصدقهم فى الدفاع عن المدينة ثبّط عزائم المحاصرين فبنوا مساكن وقتية أمام طليطلة ووطدوا أنفسهم على سكناها واكتفوا بأن يقلقوا أحيانا أحراس أبواب المدينة وينهبوا الأطعمة التى كانت تصل إليها عادة بدون كبير مانع ومن طول المقام ضاعت حميتهم فتراخوا فى الحصار إلى أن صار كهدنة بينهم وبين أهل المدينة فما كانوا يهاجمونها ولا يمسكون الطرق عليها بل آل الأمر إلى تبادل الروحات والجيئات بين المعسكر والمدينة والتساهل فى دخول سفن النهر حاملة الأقوات إليها وان سكان ضواحيها يزرعون ويحصدون ويدخلون المحصود إليها بدون كبير مشقة.

استبطأ الأمير بدرا فأرسل إليه تمّامًا ليجهزا معا على طليطلة سريعا فلما وصل تمّام تغيرت الشئون إلى شدة ومضاء عزيمة وتيقظ وإقدام فتوالى الهجوم على المدينة وتسلق الجند جدرانها الواطئة فذعر أهلها ورضخوا إلى التسليم بعد أن نَجَّوا قاسم بن يوسف الفهرى فعبر النهر سبحا وولّى الفرار وفتحوا أبواب المدينة على أمان من تمّام سنة ١٤٩[١] (٧٦٦).

وفى سنة ١٤٩[٢] (٧٦٦) ثار سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بكورة لبلة

(١) فى كندى أن فتح المدينة كان فى آخر سنة ١٤٨ وما ذكرناه مأخوذ من رومى.

(٢) فى ابن الأثير أن ثورة المطرى كانت فى سنة ١٤٨ وفى غيره أنها كانت فى سنة ١٤٩ والظاهر أنها طالت فى غضون السنتين.

طالبًا بثأر من قُتِلَ من اليمانية مع العلاء وتغلب على اشبيلية فسار إليه عبد الرحمن ففرّ وامتنع بقلعة رعوان[١] فحاصره وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللّخمي بمدينة شدونة فأمدّه فبعث عبد الرحمن بدرا فحال دون المدد ودون المطرى ثم طال عليه الحصار فخرج من القلعة وقاتل وقُتل فقدّم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان فدام الحصار ثم استأمنوا إلى عبد الرحمن وسلموا إليه الحصن فخرّبه وقتل خليفة ومن معه ثم سار إلى غياث فحاصره بشدونة حتى استأمن فأمنه وعاد إلى قرطبة[٢].

يؤخذ من ابن الأثير وابن عذارى ودوزى «أن عبد الرحمن عزل فى هذه السنة أبا الصباح رئيس اليمانية عن اشبيلية» فإنه كان يوجس خيفة منه من يوم واقعة المصارة حين أشار على قبيلته بقتله فنزع إلى الخلاف ودعا اليمانيين إلى السلاح فوجه إليه الأمير حاجبه تمّامًا فأمنه ولاطفه حتى جاء به قرطبة فغدر به عبد الرحمن[٣] ويروى بعضهم أن أبا الصباح قدم قرطبة فى أربعمائة فارس على غير عهد فأوصله تمّام إلى الأمير فعاتبه فأغلظ له أبو الصباح فى الجواب فأمر بقتله[٤] وقيل: إن الأمير حاول قتل أبى الصباح بخنجر فقاومه فاستعان عليه بحرسه فقتلوه ثم أمر عبد الرحمن بطمس آثار الدم وتغطية الجثة بغطاء ثم أحضر وزراءه وقال لهم إن أبا الصباح محبوس فى القصر واستشارهم فى قتله فاشاروا عليه بأن لا يفعل خشية من خطر يتوقع من فرسان أبى الصباح الذين هم بباب القصر وخالفهم فى الرأى أحد أقارب الأمير، حينئذ قال عبد الرحمن «قد قتلته» وكشف الغطاء وأرسل من أخبر الفرسان بأن صاحبهم قضى نحبه فلينصرفوا فانصرفوا بسلام.

ولم يذكر حادثة أبى الصباح هذه فى سنة ١٤٩ ابن خلدون ولا المقرى ولا رومى

(١) وقيل زعواق.
(٢) ابن خلدون ابن عذارى.
(٣) ابن الأثير.
(٤) ابن عذارى.

ولا كندى والظاهر أنها وقعت قبل هذه السنة فقد ذكروا عقب واقعة المصارة سنة ١٣٨ أن عبد الرحمن اغتال أبا الصباح بعد عام ـ وتقدم أيضا أن عبد الرحمن ولّى عبد الملك اشبيلية حين قدومه من الشرق سنة ١٤٠.

ويروى أن عبد الرحمن غزا فى هذه السنة جبال جليقية GALICE وجبال البشكنس فى شمال اسبانيا فاخضع الثائرين الذين كانوا نبذوا الطاعة وعاد جنده إلى قرطبة مثقلا بالغنائم الواسعة يقود كثيرا من الأسرى ومن قطعان الماشية.

وفى سنة ١٥١[١] ثار فى شرق الاندلس رجل من بربر مكناسة يعرف بشقنا[٢] ابن عبد الواحد كان يعلم الصبيان وادعى أنه من ولد فاطمة والحسين عليهما السلام وتسمى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبريّة واجتمع إليه خلق من البربر فسار إليه عبد الرحمن فهرب فى الجبال واعتصم بها فرجع وولّى على طليطلة حبيب بن عبد الملك فولّى هذا على شنتبرية سليمان بن عثمان فنزل إليه شقنا واخذه وقتله وغلب على ناحية قورية وأفسد فى الأرض فعاد إليه عبد الرحمن سنة ١٥٢ وأعياه أمره وصار ينتقل فى البلاد ويهزم العساكر وسكن حصن شيطران[٣] من جبال بلنسية ثم سار إليه عبد الرحمن سنة ١٥٦ واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بزحف أهل غرب الاندلس من اليمانية نحو قرطبة[٤] تحت قيادة عبد الغفار بن حميد اليحصبى زعيم لبلة وحياة بن ملابس زعيم اشبيلية فرجع عن شقنا وانهض عبد الملك فى معظم الجيش لقتالهم فسار إليهم، ولما قرب منهم قدم ابنه أمية فى أكثر العساكر فخالطهم فوجد فيهم قوة

(١) كذا فى ابن الأثير ـ وفى ابن خلدون سنة ١٥٠ ـ وفى ابن عذارى سنة ١٥٢.
(٢) بالنون بعد القاف كما فى ابن الأثير وابن خلدون وفى دوزى Chak ya (شقيا) بالياء ولم يذكر اسمه المقرى ولا ابن عذارى.
(٣) وقيل شطران وسيطران.
(٤) المقرى صحيفة ٧١٨ طبع بولاق.

فخاف الفضيحة معهم فانحاز منهزما إلى أبيه فلما جاءه سقط فى يده وقال له: ما حملك على أن استخففت بى وجرّأت الناس والعدوّ علىّ إن كنت فررت من الموت فقد جئت إليه وضرب عنقه ثم لقيهم مستميتا فهزمهم واثخن فيهم حتى جرح ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاه خيرا ووصله بالصهر وولاّه الوزارة ونجا عبد الغفار وحياة بن ملابس إلى اشبيلية فسار عبد الرحمن إليها سنة ١٥٧ وقتل خلقا كثيرا من أهلها ممن كانوا مع عبد الغفار وحياة، واستراب من يومئذ بالعرب وعلم أنهم على دغل وحقد فانحرف عنهم إلى اتخاذ الموالى فابتاع كثيرا منهم فى كل ناحية حتى بلغ من فى قبضته منهم أربعين ألف رجل صار بهم غالبا على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطّدت.

وفى سنة ١٥٨ غزا عبد الرحمن مدينة قورية وفتك بالبربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا.

وفى سنة ١٦٠ وقيل التى بعدها غدر بشقنا رجلان من أصحابه وجاءا برأسه إلى عبد الرحمن.

وفى سنة ١٦١ وقيل التى قبلها سار عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى[1] من أفريقية إلى الاندلس مظهرا الدعوة العباسية ونزل بتدمير فاجتمع إليه البربر وكان سليمان بن يقظان عاملا على برشلونة فكتب إليه يدعوه إلى أمره فلم يجبه فسار إليه فلقيه سليمان فهزمه وعاد إلى تدمير وزحف إليه عبد الرحمن من قرطبة وأحرق سفنه تضييقا عليه فى الهرب فاعتصم بجبل بلنسية فبذل فيه عبد الرحمن الأموال فاغتاله رجل من أصحابه البربر وحمل رأسه إلى الأمير سنة ١٦٢ فأعطاه ألف دينار.

ما ذكرناه من تاريخ الفاطمى وابن حبيب مرجعنا فيه إلى ابن الأثير وابن خلدون والمقرى وابن عذارى.

(١) إنما سمى بذلك لطوله وزرقته وشقرته ـ كذا فى ابن الأثير فى حوادث سنة ١٦١.

وجاء فى كندى ورومى فى هذا الموضوع ما يخالف ذلك وهاك تعريب ما جاء فيهما ملخصًا: «أن من فرّوا من شدونة إلى جبال رندة ثم إلى أفريقية التجأوا إلى والى مكناسة واستشاروه وأن هذا الوالى كان يسمى عبد الغافر (كذا) وأنه كان شابا عالى القدر يفتخر بأنه من سلالة فاطمة بنت النبى محمد ﷺ وزوج علىّ (عليه السلام) فنزع إلى الثورة وأخذ يعدُّ مُعدّات القتال وقبّل دخوله اسبانيا اذاعوا فضله وعظمته فى الجزيرة وأنه سيجوز إليها البحر فى جيش جرّار وثروة واسعة وأنه سيهب أموالا طائلة للمسلمين المخلصين الذين يشهرون السلاح فى وجه الداخل الجائر الغاصب إمارة الاندلس.

ولما علم بذلك عبد الرحمن أمر سكان البيرة بصدّ الثائرين ووضع حامية قوية فى المنكب وأمر بالتيقظ ومراقبة السفن التى ترسو فى الثغور وأعلن بأنه يجزل العطاء لكل من يأتيه برأس من رؤساء من يثورون مع الفاطمى وهذا الإعلان جعل من كانت نفسه تجيش إلى الثورة يخلد إلى السكون التام فإنه كان لا يثق بعضهم ببعض إلا القليل ونجم عن ذلك أن عبد الله بن حارثة ذبحه حرسه فى مدينة جيّان وأرسلوا رأسه إلى الأمير فى قرطبة سنة ١٤٩.

هذا ولما أتم المكناسى معدّاته جاز البحر إلى الاندلس ومعه كلّ من فى أفريقية من الشيعة وأغلب فرسان البربر ونزلوا المنكب والمرية واحدثوا هرجا وازعجوا هاتين الكورتين فبلغ خبرهم والى البيرة اسعد بن عبد الرحمن الشيبانى فتوجّه إليهم واقتفى آثارهم وقاتلهم قتالا شديدا وانتصر عليهم حتى الجأهم إلى الفرار نحو جبال رندة فانضموا إلى ثائريها لكنه أُصيب بجرح بليغ اضطره إلى العودة إلى البيرة حيث مات سنة ١٥٠ للهجرة (مارس أو ابريل سنة ٧٦٧) فحزن عليه الأمير حزنا شديدا لأنه كان فارسا مغوارا ذا رأى سديد وقد دلّت الآثار العربية فى (الاسكوريال ESCURIAL)[1] على أن هذا الوالى هو الذى أُنشئت

(١) برج فى اسبانيا فى سفح جبال نهر رامة على بعد ٤٠ كيلو مترا من مدريد نحو الغرب.

تحت رعايته مبانى غرناطة وحصونها الجديدة وأن عبد الرحمن أقام مكانه عبد السالم بن إبراهيم (كذا).

وأما الأفريقى فقد تبعه الشَّرَد واللصوص واعتصموا جميعا بجبال رندة فكانت هذه الجبال بؤرة تألب العصاة وكانوا فى مبدأ الأمر ينهبون ويخربون القرى المتاخمة لمأواهم ثم استفحل أمرهم فأخذوا يشنّون الغارات على أرقش وشدونة وكثيرا ما كانوا يدفعون عصاباتهم إلى برارى اشبيلية فيسلبون سكان الأطراف وكان يطاردهم والى المدينة بفرسانه كى يلحقهم فى السهل ولكنهم كانوا يلجأون سريعا إلى الجبال حيث لا تقدر خيل الوالى أن تصيب رماتهم بضرر وكانوا يجتنبون المعارك الحقيقية الحاسمة للنزاع جاعلين أعداءهم فى فزع دائم مدّخرين من المؤن ما يقوم باحتياجهم وبذلك اقلقوا زمنا طويلا راحة والى اشبيلية وقواد قرمونة وبيانة وأرقش وشدونة.

وفى سنة ١٥١ (كذا) رسا فى طرطوشة عشرة سفن تقل عساكر من البربر تحت قيادة عبد الله (كذا) بن حبيب الصقلبى جاءوا لإعانة المكناسى ولكن مرساهم كان بعيدا عن جبال رندة وكانوا يظنون أن سكان اسبانيا الشرقية يساعدونهم على ابن معاوية ولكن خاب ظنهم ولما بلغ الأمير نزولهم جهّز جيشا وسار بنفسه إلى ابن حبيب ولكنه لما وصل إلى بلنسية جاءه الخبر من والى طرطوشة بأنه بدَّد شمل الأفريقيين وأن سفن ترجونة الحربية احرقت بعض مراكب العدوّ والجأت البعض الآخر إلى الفرار ففرح عبد الرحمن بذلك لكنه لم يعد إلى قرطبة بلّ تابع السير ليزور مدائن شرق اسبانيا فإنه لم يزرها مع أنها جزء من مملكته فزار طرطوشة وبرشلونة وطرجونة ووشقة وسرقسطة ثم عاد إلى قرطبة من طريق طليطلة ـ وأما ابن حبيب نفسه فقد قُتل لأنه لم يجئ له ذكر فى كلام المؤرخين (كذا).

وأما عساكره الذين تفرّقوا فإنهم تمكّنوا من الانضمام إلى عصابات المكناسى

فى جبال رندة فتقوّت عزائمهم وتعدّدت غاراتهم ففازوا فى استبة ASTAPA على فرقة من الجنود التى جاءت من اشبيلية لتعترضهم وهزموا عساكر بيانة وقرمونة وخيّم معسكرهم على أميال من اشبيلية ولما علم أهلها بفوز الفاطمى نزع الساخطون منهم إلى الثورة وأخبر كبيرهم وهو حيون بن سلمى (كذا) KAYOUN BEN SALEMA سرا عبد الغافر (كذا) بأنه يساعده على أخذ المدينة إذا هجم عليها.

ولما بلغ والى اشبيلية وهو عبد الملك بن عمر[١] اقتراب عبد الغافر منها بعث طليعة تستكشف أمره تحت قيادة ابنه الصغير قاسم (كذا) فلما رأى قوتهم عاد مذعورا إلى أبيه فقتله لجنبه ثم دارت رحى الحرب بين عبد الملك وعبد الغافر نهارا كاملا فانهزمت عساكر المكناسى ولكن انهزامهم كان نحو اشبيلية ولم يقتف أثرهم عبد الملك لما حلّ به من تعب النهار بل صرف الليل مستريحا فى ميدان القتال.

وأما المنهزمون فباتوا على بعد رمية سهم من المدينة ولم يجرءوا على أن يجوسوا خلالها، فى صباح اليوم التالى وقع الهرج فى المدينة فإن الشيخ حيون وحزبه أرادوا أن يفوا بوعدهم للمكناسى فاجتهدوا فى أن يستولوا على أبواب المدينة ويسلموها إليه وبينما هو عازم على أن يمدّ إليهم يد المساعدة إذ فاجأه عبد الملك فلم يتقهقر ووقعت بينهما واقعة دموية هائلة لم تقف رحاها إلا حين أرخى الليل استاره وقد جرح فيها عبد الملك ـ وأما عبد الغافر فأمكنه أن يدخل المدينة بمساعدة حيون فنهبها ليلا وفرّ فجرا إلى قشتالة CASCHTALA (كذا)[٢].

ولما بلغ خبر ذلك إلى الأمير ضاق صدره وأخذ يستجيش الجيوش من الكور لمطاردة عبد الغافر حتى حصره جيشان من قطربة والبيرة نحو ربية استجة على

(١) ولاه عبد الرحمن اشبيلية سنة ٧٥٩ كذا فى رومى.
(٢) تسمى الآن قزالة CAZALLA.

شواطئ نهر شنيل وقتله والى البيرة عبد السالم بن إبراهيم (كذا) فى سنة ١٥٦ للهجرة (٧٧٣) وقتل ابن سلمى (كذا) ونحو خمسين من الرؤساء الافريقيين وأغلب قبيلة مكناسة.

وبعد هذه الواقعة توجّه عبد الرحمن إلى اشبيلية ليزور واليها عبد الملك بن عمرو يعزّيه على ما أصابه من فقد ابنه وجرحه البليغ فى واقعة المكناسى على أبواب هذه المدينة وكان من تعزية الأمير له أن ولاه سرقسطة واسبانيا الشرقية كلها» اهـ.

فإذا قابلنا بين الروايتين العربية والافرنجية نرى بينهما اختلافا كثيرا ففى الأولى أن الفاطمى كان معلم صبيان وأنه كان يُعرف بشقنا بن عبد الواحد وتسمى بعبد الله بن محمد، وفى الثانية أنه كان والى مكناسة فى أفريقية وأنه كان يسمى عبد الغافر.

وفى الأولى أن ابن حبيب الصقلبى يسمى عبد الرحمن وأنه جاء اسبانيا سنة ١٦١ أو التى قبلها بعد قتل الفاطمى، وفى الثانية أنه يسمى عبد الله وأنه جاء اسبانيا سنة ١٥١ ليشد أزر الفاطمى.

وفى الأولى أن الفاطمى غدر به رجلان من أصحابه سنة ١٦٠ أو التى بعدها وفى الثانية أنه قتل سنة ١٥٦ فى واقعة استجة وأن الذى قتله هو والى البيرة عبد السالم بن إبراهيم.

وفى الأولى أن عبد الغفار زعيم لبلة وحياة بن ملابس زعيم اشبيلية زحفا لأخذ قرطبة حينما توجّه الأمير نحو الشرق لقتال شقنا الفاطمى، وفى الثانية أن عبد الغافر هو المكناسى الفاطمى وأنه جاء من الشرق لأخذ اشبيلية بايعاز من حيون بن سلمى.

وفى الثانية أن الأمير عيّن عبد الملك والى سرقسطة واسبانيا الشرقية ولا أثر

لذلك فى الأولى وغير ذلك كثير والصحيح ما فى التواريخ العربية فإن التواريخ الأفرنجية تستمدّ منها وتنقل عنها ولكنها عند النقل قد تكون كحاطب ليل.

وفى سنة ١٦٣ (كما يؤخذ من ابن الأثير) عزم عبد الرحمن على غزو بنى العباس وأخذ ثأره منهم فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بسرقسطة فسيّر إليهما ثعلبة بن عبيد فى عسكر كثيف فقاتلهما قتالا شديدا حتى أخذ أسيرا وتفرّق عسكره واستدعى سليمان قارله ملك الافرنج ووعده بتسليم المدينة وثعلبة إليه فلما وصل إليها أخفق مسعاه فى حصارها فعاد إلى بلاده ومعه ثعلبة وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء فأهمله عبد الرحمن مدة ثم طَلَبه من الافرنج فاطلقوه.

وفى سنة ١٦٤ سار الأمير إلى سرقسطة وفرّق اولاده فى الجهات ليدفعوا كل مخالف ثم يدركونه فسبقهم إليها وكان الحسين قد قتل سليمان وانفرد بالمدينة فوافاه عبد الرحمن على أثر ذلك وضيّق على أهلها تضييقا شديدا فرغب الحسين فى الصلح وأذعن للطاعة فأجابه عبد الرحمن وصالحه وأخذ ابنه سعيدا رهينة ورجع عنها وغزا بلاد الافرنج فدوّخها ونهب وسلب وبلغ قَلَهُرَّة ثم سار إلى بلاد البشكنس فقاتلهم وفتح بعض حصونهم ثم رجع إلى قرطبة ثم إن الحسين نقض العهد فعاد الأمير سنة ١٦٦ إلى سرقسطة وحصرها وضايقها ونصب عليها المجانيق فملكها عَنْوة وقتل الحسين اقبح قتلة ونفى أهل سرقسطة منها ليمين تقدمت منه ثم ردّهم إليها.

وفى سنة ١٦٨ ثار محمد بن يوسف الفهرى الملقب بأبى الأسود فلقيه الأمير على الوادى الاحمر بقسطلونة وهزمه واثخن فى أصحابه حتى قتل منهم أربعة آلاف سوى من تردّى فى النهر ولم يزل يقتفى آثار المنهزمين حتى جاوز قلعة رباح ثم لقيه ثانية سنة ١٦٩ وهزمه ثم هلك الفهرى سنة ١٧٠ بقرية من أعمال طليطلة وقام مكانه أخوه قاسم فغزاه الأمير فجاءه بغير أمان فقتله.

ويؤخذ من دوزى ما تعريبه مع تصرف:

«تعاقد محافظ برشلونة سليمان بن يقظان الاعرابى وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وأبو الأسود بن يوسف الذى كان عاقبه الأمير بالسجن الدائم وتعامى حتى فرَّ على أن يكونوا يدا واحدة على عبد الرحمن الأموى وأن يطلبوا مساعدة شرلمان الذى اشتهر فى العالم بفتوحاته فتوجهوا فى سنة ٧٧٧ للميلاد إلى پَدربُرن PADERBORN حيث يعقد شرلمان الجمعية العمومية واستنجدوه على أمير اسبانيا فأجاب طلبهم واتفقوا على أن الأعرابى وحلفاءه فى شمال نهر ابرة يساعدون شرلمان بعد أن يجوز جبال البرانس ويعترفون بسلطانه عليهم وأن الصقلبى يجنّد البربر من افريقية ويقودهم إلى إقليم تدمير (مرسية) كى يساعدوا الحركات التى تقع فى الشمال رافعين لواء الخليفة العباسى حليف شرلمان ـ هذه المؤامرة لو نفذت لكانت أشدّ وقعا على عبد الرحمن من الحوادث السابقة ولكن من سعد طالعه أن طرأ عليها ما أوقف حركتها فإن الصقلبى أبحر حقيقة بجيش من البربر إلى كورة مرسية ولكن وصل قبل أن يجوز شرلمان جبال الأبواب فطلب مساعدة الأعرابى فأجابه: إن الخطة المتفق عليها فى (پدربرن) أن ابقى فى الشمال لأساعد جيش شرلمان فأحفظ هذا الجواب الفهرى فوجّه جيشه إليه ليقاتله فصدّه الأعرابى واعاده إلى تدمير ففتك به بربرى[1] يظن أنه سفير ارسله الأمير عبد الرحمن لهذا الغرض هذا ما كان من أمر ابن حبيب وأما أبو الأسود فلم يذكر لنا مؤرخ من الفرنج أو العرب ما فعل (كذا) فلم يبق من أعضاء مؤامرة (پدربرن) إلا الاعرابى وحليفاه أبو ثور محافظ وشقة وجلندو كونت سردانية فلما جاوز جيش شرلمان جبال البرانس (١٦١ للهجرة ـ ٧٧٨ للميلاد) استولى على پنپلونه ووصل إلى أبواب سرقسطة فقاوم دخوله فيها أميرها حسين ابن يحيى من سلالة سعد بن عبادة الانصارى الذى طمح نظره إلى الخلافة

(١) فى تاريخ ابن عذارى أن قاتل ابن حبيب اسمه مشكار البربرى.

بعد موت النبى ﷺ وكان لحسين سلطان على قلوب أهل المدينة لنسبه هذا فكبر عليهم أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ولما لم يستطع الأعرابى أن يقنعهم وخشى أن شرلمان يسىء الظن فيه ألقى بنفسه بين يديه وبينما الملك آخذ فى حصار المدينة إذ جاءه خبر أن البشكنس[١] اغتنموا فرصة غيبته عن بلاده وسطوا عليها وأحرقوا وخرّبوا وذبحوا فاضطرّ أن يترك سريعا شواطئ نهر براه ويرجع إلى شواطئ نهر رين RHIN وعند رجوعه انقضّوا على مؤخرة جيشه عند مضايق جبال البرانس فمزّقوها كل ممزّق وقتلوا الكونت روتلند قائد حدّ بريطانيا ونهبوا أمتعتها وفرّوا سراعا، وقد أرخى الليل سدوله وعقب ذلك عاد الأعرابى إلى سرقسطة فعدّه حسين خائنا لدينه فقتله فى المسجد ثم جاء عبد الرحمن وحصر المدينة فأطاعه حسين لكنه فيما بعد رفع لواء الثورة فأسلمه سكان المدينة المحصورون إلى عبد الرحمن فقتله شر قتلة ثم إن الأمير غزا البشكنس وأخضع كونت سردانيه إلى دفع الجزية ثم ثار أبو الأسود على الأمير فالتقيا فى الوادى الأحمر GUADAL-IMAR وكانت بينهما معركة دموية قتل فيها من أصحاب الفهرى أربعة آلاف، كانت اشلاؤهم أقواتا للسباع والنسور والسبب فى انخذال الفهريين خيانة قائد الجناح الإيمن من جيش أبى الأسود[٢].

لم يكن تتابع ثورات الثائرين على الأمير حائلا دون سعيه فى ارتقاء بلاد الجزيرة فى الزراعة والعمارة والمعارف فقد بلغت قرطبة فى عهده شأوا بعيدا فى العمران والحضارة والعلم والفلسفة حتى صارت نبراس الاندلس وكعبة الإسلام فى الغرب ـ كان يرى فيها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة على طراز العمارات الشرقية الجميلة وحمامات وفنادق وبساتين على طول ضفة الوادى

(١) الافرنج يسمونهم بسكس BASQUES أو فكونس VACONS الظاهر أن الاسم العربى منحوت من هذين اللفظين ويؤخذ أيضا من كتاب (مسالك الممالك) للاصطخرى صحيفة ٤١ أنه يقال (بسكونس).

(٢) فى ابن عذارى أن هذه الواقعة كانت يوم الاربعاء مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩.

الكبير وجوامع ومعاهد للصلاة والتعليم ـ كان يهرع إليها من اسبانيا ومصر والشام والعراقين العلماء والشعراء والأطبّاء والفلاسفة، وقصارى القول أنها كانت تضارع بغداد فى العظمة والشهرة[١].

وفى سنة ١٧٠ (٧٨٦) أمر الأمير عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة الشهير الذى تضلّ العين فى بدائعه وأخرج عليه مائة ألف دينار، قيل: إن هذا سوى ثمانين ألف دينار دفعت ثمن الكنيسة التى كانت مكانه ومات قبل تمامه.

ذكر بعض المؤرخين أن فى الجامع أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفوان قيل من بدائعه أن فيه ثلاثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتمّ الدور ثم تعود وأن فيه تنّورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح وأن فيه مصحفا من القرآن كتبه عثمان ابن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وقفه الأمير على الجامع.

وفى آخر سنة ١٧١ (٧٨٨) لما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا إلى حضرته الحاجب وقاضى القضاة ووزراءه وولاة الأقاليم وعمّال الأمصار واشهدهم على أنه عهد إلى ابنه هشام بالولاية العامة على اسپانيا وأمرهم أن يعترفوا له بذلك فاطاعوا أمره ووعدوه بالإخلاص والطاعة لولى عهده حين يقوم بأعباء الإمارة وصافحوا هذا يدا بيد دليلا على رضاهم وخضوعهم.

واختار عبد الرحمن ابنه هشاما خليفة له فى الإمارة مع أنه كان أصغر من أخيه سليمان لأنه كان يرى فيه فطانة واستقامة ودينا ودماثة أخلاق وإسداء معروف دونه ويروى أن أمّ هشام المسماة حوراء[٢] كان لها ضلع فى هذا الاختيار وقد حضر سليمان مجلس تولية العهد لهشام فاستاء سرّا من تفضيل أخيه الأصغر عليه.

---

(١) رومى ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

(٢) وقيل: اسمها (جمال) وقيل (حلل).

وفى سنة ١٧٢ مات الإمام عبد الرحمن يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر (٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨) بعد أن حكم ٣٣ سنة هجرية (٣٢ سنة ميلادية).

ذنابات:

الأولى: يحكى عن كيفية فرار عبد الرحمن الداخل من المشرق إلى المغرب أنه قال: بينما أنا جالس يوما فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد ألمّ بى إذ دخل من باب البيت ابنى سليمان وهو ابن أربع سنين فزعا باكيا وهوى إلى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فإذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت وإذا بالرايات السود عليها منحطة وأخ لى حدث السن كان معى يشتدّ هاربا ويقول لى النجاة يا أخى فهذه رايات المسوّدة فضربت بيدى على دنانير تناولتها ونجوت وأخى يتبعنى وأعلمت اخواتى بمتوجّهى وأمرتهن أن يلحقننى ومولاى بدر معهن وخرجت وكمنت فى موضع ناء عن القرية فما كانت ساعة حتى أقبلت الخيل وأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ومضيت فأتيت رجلا من معارفى بشطّ الفرات وأمرته أن يبتاع لى دوابّ وما يصلح لسفرى فدلّ علىّ عبد سوء له العامل فما راعنا إلاّ جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا فى الهرب فسبقناها إلى الفرات ورمينا فيه بأنفسنا والخيل تنادينا من الشطّ ارجعا لا بأس عليكما فسبحت وكنت أحسن السبح وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصّر أخى ودهش فالتفت إليه لأقوّى من قلبه فإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه فناديته تقتل يا أخى، إلىّ إلى، فلم يسمعنى واغتر بأمانهم وخشى الغرق وانقلب نحوهم وقطعت أنا الفرات وبعضهم قد همّ للتجرد للسباحة فى أثرى فاستكفّه أصحابه عن ذلك فتركونى ثم قدّموا الصبىّ أخى الذى عاد إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ومضيت

إلى وجهى أحسب أنى طائر وأنا سائر على قدمىّ فلجأت إلى غيضة آشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هاربا أؤمّ المغرب حتى وصلت إلى أفريقية.

الثانية: يصفه بعض المؤرخين بأنه كان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان فصيحا لَسِنا شاعرا حليما عالما حازما سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ولا ينفرد فى الأمور برأيه شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر سخيّا جوادا يكثر لبس البياض وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبط المملكة.

الثالثة: قال ابن حيّان وقّع إلى سليمان بن يقظان الأعرابى على كتاب منه سلك به سبيل الخداع «أما بعد فدعنى من معاريض المعاذير والتعسّف عن جادّة الطريق لَتَمُدّن يدا إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالا بما قدّمت يداك وما الله بظلام للعبيد».

الرابعة: ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه: أخبرونى مَنْ صقر قريش من الملوك قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الاعداء وحسم الادواء، قال: ما قلتم شيئا، قالوا: فمعاوية قال: لا، قالوا فعبد الملك بن مروان، قال ما قلتم شيئا، قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا اعجميا منفردا بنفسه فمصّر الأمصار وجنّد الاجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلّلا له صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها.

الخامسة: قيل لما خرج من البحر أول قدومه على الاندلس أتوه بخمر فقال: إنى محتاج لما يزيد فى عقلى لا لما ينقصه فعرفوا بذلك قدره ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان وإن أنا اشتغلت

عنها بهمّتى فيما اطلبه ظلمتها وإن اشتغلت بها عما اطلبه ظلمت همّتى ولا حاجة لى بها الآن وردّها على صاحبها.

٢- هشام بن عبد الرحمن:

لما توفى الأمير عبد الرحمن يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٧٢ (٣٠ سبتمبر ٧٨٨) كان ابنه الأكبر سليمان واليا على طليطلة وابنه هشام على ماردة وابنه عبد الله هو الذى حضر وفاته بقرطبة[١] وصلّى عليه[٢] ثم ذهب إلى قصر الإمارة مؤمّلان يقبل عليه كبراء المدينة ويحيّوه بتحيّات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد[٣] ولما تحقق أن رغبات الأهلين منصرفة عنه إلى أخيه هشام ولىّ العهد رأى من الحكمة أن لا يركب هواه فجدّد البيعة لأخيه هذا وكتب إليه بنعى أبيه وبالإمارة[٤] وبأن يحضر قرطبة ليذهب هو إلى ماردة.

فسار هشام من ساعته إلى قرطبة فدخلها بعد يوم الوفاة بستة أيام فقابله أهلوها بفرح وسرور وبايعه الخاصّة والعامّة يوم الأحد مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢

(١) يقول رومى: إن تاريخ الوفاة كان يوم الثلاثاء ٣٠ سبتمر سنة ٧٨٨ وفى تقييداته أن هذا التاريخ يوافق ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٧٢ للهجرة وفى كندى أن تاريخ الوفاة كان فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٧١ وخطأه رومى فى اليوم والسنة ـ وفى التواريخ الغربية أنه مات يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الثانى سنة ١٧٢ وهذا هو الصحيح لأنه يؤخذ من تقويم مقارنات السنين الهجرية بالسنين الميلادية أن شهر ربيع الثانى من سنة ١٧٢ ـ ٢٩ يوما وأن أوله يوم الاثنين الموافق ٨ سبتمر من سنة ٧٨٨ فيلزم أن يكون يوم الثلاثاء لست بقين من الشهر العربى هو يوم ٢٣ منه الموافق ٣٠ سبتمبر.

(٢) ابن الأثير ويؤخذ من رومى أن عبد الرحمن بعد أن عهد إلى ابنه هشام بالامارة فى محفل حافل توجه إلى ماردة حيث تنازل فيها عن الحكم إلى ابنه هشام الذى كان معه وأن عبد الله بقى فى قرطبة ـ ولم يذكر لنا التاريخ ما كان قائما به من الأعمال ـ وأن سليمان توجه إلى طليطلة ـ واستمرت إقامة عبد الرحمن فى ماردة إلى أواخر ربيع الثانى سنة ١٧٢ للهجرة وفيها مرض ومات ثم شهرت إمارة هشام فى هذه المدينة فى ٢٤ هذا الشهر (أول أكتوبر سنة ٧٨٨) وهتف الخطباء باسمه على المنابر.

(٣) كندى.

(٤) ابن الأثير.

وكان عمره وقتئذ فوق الثلاثين[١] وكان مهيبا تقيّا كريما عادلا وكانوا يلقبونه بالعادل وبالرضيّ وأما عبد الله فرحل إلى ماردة بإذن من أخيه[٢].

ولما علم سليمان ببيعة هشام غصّ بها فإنه كان يروم الأمر لنفسه ويحسد أخاه هشاما على تقديم والده له عليه وكتب إلى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة إلى طليطلة فجاءها بدون أن يعلم الأمير ولكن وزير ماردة أعلمه ذلك.

فاتفق الأخوان سليمان وعبد الله أن يستقلا فى إقليميهما ويتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالأمير فعارضهما وزير طليطلة غالب بن تمّام فيما اتفقا عليه فسجنه سليمان فأرسل الأمير رسولا يسأله عن سبب سجن الوزير فكان جواب سليمان أن جاء بالمسجون وخزقه أمام الرسول وقال له: «قل لمولاك يدعنا نحكم فى إقليمينا أحراراً جزاء ما ألمّ بنا من الضرر من إمارته التى سبقت ابّانها».

هذا الجواب أحفظ هشاما فكتب إلى ولاة الأقاليم وقضاتها بأن سليمان واخاه عبد الله شقا عصا الطاعة فليحافظوا على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ولا يطيعوا لهما أمرا ولا يسمحوا لهما بالإيواء إليهم ـ وجهز عشرين ألف جندى وتوجّه إلى طليطلة فلما علم بذلك سليمان جهّز خمسة عشر ألفًا وسار إلى قرطبة تاركا ابنه وأخاه يحفظان المدينة فالتقى الجيشان بالقرب من حصن بلخ BOU-LCHE OU BOULKH ودارت رحى الحرب كأنها بين خصمين اختلفا فى الدين واللغة وكانت المعركة هائلة سالت فيها الدماء على الصحصحان ولم يحل دون منايا القتال إلا أن أرخى الليل سدوله فتمزق جيش سليمان وأوى إلى الجبال تحت أستار الظلام سنة ١٧٣ وفى صبيحة اليوم التالى لما لم ير الجيش الغالب أثراً

(١) قال كندى إن عمره ٣٠ سنة وخطأه رومى وقال: إن هشاما ولد فى أول مارس سنة ٧٥٧ فيكون عمره فى أول اكتوبر سنة ٧٨٨ إحدى وثلاثين سنة وسبعة أشهر وأقول: إن كندى جعل إمارة هشام فى سنة ١٧١ لا فى سنة ١٧٢ واغفل الشهور التى أقل من سنة.

(٢) كندى ورومى ـ وفى ابن الأثير فى سنة ١٧٣ أن عبد الله خاف من أخيه هشام فمضى هاربا إلى أخيه سليمان وهو بطليطلة فأرسل هشام جمعا فى أثره ليردوه فلم يلحقوه.

للمغلوب تابع سيره نحو طليطلة حتى حاصرها وكانت منيعة الأركان لحصانة موقعها من جهة ولعناية عبد الله وشهامته من أخرى.

وأما سليمان فإنه جمع قوته ونزل من الجبال إلى برارى قرطبة فاحتلّ قلعة شقندة فخرج إليه عبد الله بن عبد الملك المروانى من قرطبة وقاتله حتى أخرجه من شقندة والجأه إلى الجبال ثانية فاستنجد بوزير ماردة وبشيوخ هذه الكورة فقاموا لكن لا لنجدته بل لقهره وطرده إلى أرض تدمير.

لما رأى عبد الله أن أخاه سليمان لا يمكنه أن يفلح فى أن ينضم إليه وأن مؤن المدينة نفذت وأن الأهلين عيل صبرهم وضعفت عزائمهم سأل قوّاد الجيش فى أن يسمحوا بجواز رسولين إلى الأمير ليفاوضاه بالنيابة عن أهل المدينة فى الصلح فجاز متنكرا هو ووزيره وتوجها إلى قرطبة فقابله هشام بصدر رحيب وعفا عما سلف ووعد بالعفو عن أخيه سليمان إذا جاءه معتذرا ثم عادا إلى طليطلة ففتحت أبوابها وقوبل فيها الأمير على الرحب والسعة ودخل قصر الإمارة هو وأخوه وابن أخيه وأقام أحد أقارب الوزير غالب بن تمام الذى خزقه سليمان عاملا على طليطلة وأسكن أخاه قصرا فى ضواحيها ثم عاد إلى قرطبة مفكراً فى الوسائل التى تخضع أخاه الثانى سليمان.

ولما علم هذا بتسليم طليطلة حزن كثيرا ولكنه لم ييأس وأخذ يجول فى أنحاء كورة تدمير مستفزا الأهلين إلى الثورة وأن يشدُّوا أزره فقاد إليه هشام جيشا كانت مقدمته مؤلفة من نخبة فرسان الاندلس تحت إمرة ابنه الحكم وكان شابا لم يرأس فرقة قبل هذه المرة فجدّت هذه المقدمة فى المسير حتى لاقت عساكر سليمان فى برارى لورقة وكانت تنتظر قائدها الذى كان يجمع مددا من البلاد المجاورة فشباب الحكم دفعه إلى أن يهجم عليها بدون ريث ولا أمهال ولا سماع نصيحة سوى صوت حميّته فبدّد شملها وفرّق جمعها تاركة ميدان الحرب مغطّى بأشلاء قتلاها فلما حضر جيش هشام لم ير من يقاتله ففرح الأمير بنصر ابنه نصرا مبينا

واثنى على شجاعة فرسانه ثناءً حسنا ولكنه عاتب الحكم على عجلته وإقدامه بدون نظر فى العواقب ونصحه بأن يقدّم الرأى قبل الشجاعة.

ولما وصل المنهزمون إلى سليمان ندب حظه ثم توجه ومعه شرذمة من فرسانه إلى أرض بلنسية ومر بالقرب من دانية ولم يزل مرتكبا التعاسف وجيش هشام يقتفى أثره حتى ألقى بنفسه فى جزيرة شقر XUCAR وهى محل حصين يكتنفه النهر وهناك كتب إلى أخيه يلتمس الصلح فأجابه بأن يترك اسبانيا ويأخذ ماله و ٦٠ ألف دينار مصالحة على تركة أبيه فرضخ سليمان إلى ذلك ورحل قاصدا عدوة المغرب ليسكن طنجة وكان ذلك فى الأشهر الأولى من سنة ١٧٤ للهجرة (٧٩٠) وأما عبد الله فقيل: إنه بقى فى اسبانيا وقيل إنه لحق بأخيه.

فى أثناء قيام الشجار بين هشام وأخويه ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى بشاغنت من إقليم طرطوشة فى شرق الاندلس واجتمع له خلق كثير وملك مدينة طرطوشة وأخرج عاملها يوسف القيسى[١] فجاء إلى والى بلنسية موسى[٢] أمر من الأمير هشام بأن يقمع العصاة فلمّا قرب من طرطوشة قابله سعيد ابن الحسين ووقع بين الخصمين معركة انهزم فيها سعيد وقتل[٣] وسار موسى إلى طرطوشة فملكها فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر فى جمع كثير فقاتله وقتل موسى[٤] وانهزم أصحابه فى أواخر سنة ١٧٢ للهجرة (٧٨٩)[٥].

فى هذه الأثناء أيضا ثار مطروح بن سليمان بن يقطان بمدينة برشلونة وخرج

(١) ابن الأثير.

(٢) ابن الأثير يسميه موسى بن فرتون وكندى ورومى يسميانه موسى بن حذيرة HODHEIRAH.

(٣) ابن الأثير.

(٤) كذا فى ابن الأثير وفى رومى أن الذى قتله سعيدا هو أبو عثمان الذى خلف موسى فى ولاية بلنسية.

(٥) كندى ورومى.

معه جمع كثير فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقه وتغلب على الثغر كله[١] فكلّف الأمير هشام أبا عثمان والى بلنسية الجديد الذى خلف موسى بأن يطفىء نار هذه الثورة فتوجهّ إلى اسبانيا الشرقية فى أوائل سنة ٧٩٠ للميلاد وسار إلى مطروح بن سليمان وهو فى سرقسطة فحاصره فلم يظفر به فرجع أبو عثمان ونزل حصن طرطوشة بالقرب من سرقسطة وبث سراياه على أهل سرقسطة يغيرون ويمنعون عنهم الميرة ثم إن مطروحا خرج يوما يتصيّد فأرسل البازى على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فتعاوراه بسيوفهما حتى قتلاه واحتزا رأسه وتقدّما به إلى أبى عثمان فسار إلى سرقسطة ونزلها بدون ممانع وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام.

لما سكنت زوابع الثورات فى اسبانيا باخضاع أخوى الأمير وقمع الثائرين فى شرقها وعمّ السلام البلاد صرف هشام عزيمته إلى غزو الفرنج فى الشرق الأعلى والبشكنس والاستوريين والجلالقة فى شمالها.

ففى مبدأ سنة ١٧٥ للهجرة أرسل كتبا إلى البلاد كافّة يستنفرهم إلى الجهاد بخيلهم ورجلهم وسلاحهم ومالهم وخطب الخطباء بذلك فى جميع المساجد فلبّوا دعوته العامّة وصار يرسل الجيوش المؤلفة منهم تباعًا فى هذه السنة والسنين التاليات بعضها إلى الحدود لردّ البلاد التى غصبها هؤلاء الأقوام وبعضها إلى داخل بلادهم للاستيلاء عليها.

قال ابن عذارى نقلا عن الرازى وغيره أن الأمير هشاما أغزى فى سنة ١٧٦ أبا عثمان إلى ألبه[٢] والقلاع فلقى الاعداء فهزمهم وقتل منهم كثيرا وأغزى يوسف

(١) ابن الأثير وابن عذارى وفى كندى ورومى أن بهلول بن مخلوق أبا الحجاج استولى على سرقسطة ووضع هو وولاة برشلونه وطرجونه حدودا للأرض التى أرادوا أن يستقلوا بها.

(٢) تراها فى التواريخ العربية بالباء الموحدة وقد رأيتها مضبوطة بالتحريك فى تاريخ ابن عذارى وقد بحثت عنها فى معجم ياقوت وغيره فلم أرها ثم رأيت ما يقابلها فى تاريخ رومى مرسوما هكذا ILIA ايليا وهذا يدل على أنها بالياء المثناة لا بالموحدة فحرر.

ابن بخت جليقية فلقى ملكهم برمود BERMOUDE[١] وواضعه الحرب فانهزم الجلالقه. اهـ.

وفى سنة ١٧٧ لما فطن الأمير هشام إلى أن أقليم سبتمانية خال من الحامية بسبب اشتغال شرلمان وابنه لويز ملك اكيتانه باطفاء ثورة الثائرين على ابنه الثانى ملك ايتاليا ITALIE وجّه جيشا عرمرما تحت إمرة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد إلى أرض الفرنج (الفرنك FRANK) فدخلها حتى بلغ جرنده[٢] فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم رحل عنها إلى أربونه (نربونة) ففعل بها مثل ذلك حتى استولى عليها[٣] ثم جاس البلاد شهورا يخرّب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرّون من بين يديه طالبين النجاة ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيسة وبلغ خمس هذه الغنائم الذى كان باسم الأمير ٤٥ ألف مثقال من الذهب العين وقد فرح أهل قرطبة بهذا الفوز المبين وحبس الأمير الخمس على بناء الجامع الكبير فى قرطبة وهذه الغزوة من أشهر غزوات المسلمين.

وأمر الأمير هشام عبد الله بن عبد الملك والى سرقسطة بأن يقيم على الحدود.

وفى سنة (١٧٨) أغار عبد الكريم بن عبد الواحد ثانية على بلاد ايليا ILIA والقلاع فغنم وسلم.

وفى ابن الأثير فى حوادث سنة ١٧٩ أن هشاما صاحب الاندلس سيَّر جيشا كثيفا عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى استرقه ASTORGA وكان أذفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد وامدّه ملك

---

(١) أو (برمند VERMENDUS) يروى أنهما التقيا فى محل يسمى (بربيا) فوقعت بينهما معركة كان الفوز فيها للعرب ورجع جيش المسلمين مثقلا بالغنائم والاسلاب.

(٢) كذا فى ابن الأثير وفى كندى جيرونه GERONA.

(٣) فى كندى أن العرب أخذوا مدينتى جيرونه ونربونه بالقوة ووضعوا السيف فى رءوس أهليهما وعبارة ابن الأثير تفيد أنهم اشرفوا على فتحهما.

البشكنس وهم جيرانه فصار فى جمع عظيم فـأقدم عليه عبد الملك فرجع اذفونش هيبة له وتبـعهم عبد الملك يقفـو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوّخ بلادهم وأوغل فيها يغنم ويقتل ويخرّب ورجع سالما.

وكان قد سيّر هشام جيـشا آخر من ناحيـة أخرى فدخلوا أيضًا على مـيعاد من عبد الملك فاخـربوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العـدو اعترضهم عسكر الفرنج فنالوا منهم وقتلوا نفرا من المسلمين وعاد الباقون سالمين. اهـ.

وفى رومى «فى سنة ١٧٨ (٧٩٤) اغـار عبد الكريم بن عـبد الواحد ثـانية على بلاد ايليا ILIA والقصور، وفى الوقت عينه زحف أخـوه عبد الملك من طريق آخر على أرض النصارى فلقى فى اسـترقه ASTORGA ملك جليقيـة وملك البشكنس فلم يجرؤ على مـهاجمـته فتـوغل عبد الملك فى بلادهم لكن عند رجـوعه مثـقلا بالغنائم كـمن له العـدوّ فى الطريق فخـسر المـسلمـون خسـارة تذكر وقـتل منهم شـجعـانهم ومن بينهم يـوسف بن بخت الذى كـان قائد فـرقـة منهم وردّت منهم الغنائم والأسـرى» يظهر أن هذه الغـزوة ابتـدأت فى أواخر سنة ١٧٨ وانتـهت فى سنة ١٧٩ وهى آخر غزوة غزاها هشام.

ما كان غزوة هشام صارفا له عن تحسين قرطبة فـقد أنشأ فيها كثيرا من المبانى والمساجـد التى كانت تتخذ مـدارس لتعليم الفقه واللسـان العربى ويروى أنه منع النصارى أن يتكلـموا بغيـر هذا اللسان وأن يكتبـوا بلسانهم اللاتينى ـ وكـان شغف المسلمين فى عهده بعد الغزو بهندسة الأبنية وقرض الشعر وفقه الدين.

واشتـهر بالشـعر فى عـصره عامـر بن أبى جعـفر وكان قـيِّمـا فى طليطلة على التركات التى لا وارث لها الآيلة إلى بيت مال المسلمين.

واشتهر بالفقه زياد بن عـبد الرحمن الذى رحل إلى الشرق ليتلقى الموطأ عن مالك بن أنس ثم عاد إلى الاندلس فادخل مذهبه فيها.

وفى سنة ١٧٩ للهجرة (٧٩٥ للميلاد) جمع هشام فى القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلنهم بأن ابنه الحكم هو ولىّ العهد بعده وكان عمره وقتئذ ٢٢ سنة ثم مرض هشام فى أوائل صفر سنة ١٨٠ للهجرة ومات فى ثانى عشر هذا الشهر (٢٦ ابريل سنة ٧٩٦) بعد أن حكم سبع سنين قمرية وتسعة أشهر كذلك وثمانية عشر يوما أو سبع سنين أفرنجية وستة أشهر كذلك وستة وعشرين يوما[١].

٣- الحكم (من ٧٩٦ إلى ٨٢٢):

بعد وفاة هشام ولِى الأمرَ بعده ابنه الحكَم بعهد منه وشهرت إمارته فى موكب حافل يوم ١٤ صفر سنة ١٨٠ (٢٨ ابريل سنة ٧٩٦) وفى الجمعة الأولى (١٥ صفر) من حكمه حضر الصلاة فى جامع قرطبة الكبير وخطب الخطيب باسمه على المنبر وكان وقتئذ ابن خمس وعشرين سنة[٢] وكان الناس يأملون فيه أن يكون خير خلف لأبيه وجدّه فإن سيماه السامية كانت تنبئ بذلك وتربيته من شأنها أن تهدى إلى الصراط المستقيم ولكن لا يعلم الباطن إلا الله، يصفه بعض المؤرخين بأنه كان عالما فطنا فصيحا شاعرا صارما حازما لكنه متكبر قاسى القلب سريع الغضب ويصفه البعض بأنه كان طاغيا مسرفا له آثار سوء قبيحة أمّه أم ولد اسمها زخرف. اهـ.

وأعماله الآتية تنبئك عن صفاته فإنها أكبر شاهد:

لما ولى الإمارة الحكم اختار عبد الكريم بن عبد الواحد[٣] حاجبا له فإنه تربى معه فى الصِّغر وكان أمين كتبه وكان الأمير يعجب بعلمه وقريضه وأمانته وشجاعته.

---

(١) انظر رومى (ص ٣١٠ ج ٣).

(٢) فى كثير من التواريخ ومنها كندى أنه ابن ٢٢ سنة ولكن فى رومى أنه كان ابن ٢٥ سنة وهو الصحيح.

(٢) يقول كندى عبد الكريم بن عبد الوليد.

وقد نازعه فى الإمارة عمّاه سليمان وعبد الله: فالأول كان يعيش فى طنجة من ابتداء سنة ٧٩٠ ولثروته واخلاقه كثرت أشياعه والثانى لم يترك اسبانيا (على قول) بل أقام فى القصر الذى فى ضاحية طليطلة لا يحرك ساكنا مدة حكم أخيه هشام للمعاهدة التى بينهما ولكنه فى هذه الأثناء كوّن له حزبا قويّا من قوّاد أعمال طليطلة كبيرهم عبيد الله بن حمزة ـ فلما جاء عبد الله النبأ بموت أخيه وولاية الحكم نزعت نفسه إلى الثورة لكنه رغب أن يتفاوض مع سليمان فى الأمر أوّلا فرحل هو وأسرته إلى طنجة بعد أن عهد إلى ابن حمزة بزعامة حزبه.

هنا لا ينص التاريخ على ما اتفق عليه الأخوان سليمان وعبيد الله لكن الحوادث الآتية تعرب عن هذا الاتفاق فإن عبد الله بعد أن أقام مدة قصيرة فى أفريقية ذهب سرا إلى (شرلمان) ملك الفرنج (الفرنك) فاستقبله فى قصره فى مدينة (اكس لاشپال) AIX-LA CHAPELLE سنة ٧٩٧ وعقب ذلك دعا شرلمان ابنه لويس من اكيتانه وقابل نائب (ألفونس) ملك استوريا وجليقية ويظهر أنهم اتفقوا على أن يشعلوا نيران الثورة فى عدة جهات من اسبانيا فى آن واحد كى ينزعوا الإمارة من الحكم فقد عاد لويس إلى اكيتانه ومعه عبد الله وقصد هذا اسبانيا ولوى على طليطلة فوجد عبيدة بن حمزة[١] ومعه قوّاد حصون اقليش[٢] UCLIS وهلده[٣] HUELDE وشنت بريه مستعدين له استعدادا تامّا فأماطوا جميعا لثام الاستتار ورفعوا لواء العصيان واستولوا على أبواب وقصر طليطلة فى خريف سنة ١٨١ (٧٩٧) ولم يبق على طاعة الحكم من قوّاد ضواحى طليطلة إلا عمروس قائد طلبيرة وفى الوقت عينه جاز سليمان بجيش جرّار من أفريقية إلى اسبانيا فبلغ الحكم قيام عمّيه فعبّى جيوشه ووجّه فرسان أرقش وشريش وشدونه

(١) كذا فى كندى ورومى وفى ابن الأثير عبيدة بن حميد وقيل أيضا ابن عمير فحرر.

(٢) قال ياقوت: اتليش مدينة بالاندلس من اعمال شنت بريه وقال الحميدى: بليدة من أعمال طليطلة.

(٣) كذا فى كندى وفى رومى هباده HUBE DA.

واشبيلية لصدّ سليمان ومنع اتصال جيشه بجيش أخيه عبد الله وتوجّه هو إلى طليطلة.

وفى هذه الاثناء أرسل لويس اكيتانه جيشا اجتاز الثغور واستولى على نربونه وجيرونه سنة ٧٩٧ للميلاد وهدّد مدن الحدّ الشرقى وخضعت له مدت پنپلونه ووشقه ولاردة ونجم عن ذلك أن قامت ثورة فى برشلونه أعقبها سقوط المدينة فى يد من أهداها إلى شرلمان.

دعت هذه الكوارث قاضى وشقة المسمّى عبد السلام بن عبد الوليد إلى أن يكتب إلى الحكم بأن الافرنج شنوا الغارة الشعواء على البلاد وإن سقطت فى أيديهم بعض المدن وأن ولاة الحدود مالوا إليهم وأن والى وشقه سلّم المدينة بشروط معيبة فلما قرأ ذلك الحكم ترك ثورة طليطلة إلى القائد عمروس وتوجّه فى الحال إلى الحدود يقود جيشا عظيما فاستردّ وشقه ولاردة وبرشلونه وجيرونه ثم زحف على أرض أفرنجة فدخل نربونه وفتك بالافرنج فتكا ذريعا وسبى نساءهم وأولادهم وغنم غنائم واسعة ورجع منصورا ولذا لقبوه بالمظفر[1] وأقام على الحدود عبد الكريم بن عبد الواحد وفطيس بن سليمان وأسرع هو إلى طليطلة وحارب عمّيه فى عدة وقائع كان له فيها الغَلَب عليهما حتى الجأهما فى سنة ١٨٣ إلى أرض تدمير.

ودارت رحى الحرب دورات بين الحكم وجيش عمّيه كان فيها الغلب له عليهما وفى الواقعة الأخيرة حمى الوطيس بين الجيشين وكلاهما يكرّ على الآخر

(١) كندى ورومى ولم أر فى التواريخ العربية أثرا لهذه الواقعة فى السنين الأولى من حكم الحكم ويبعد أن يرى الحكم قيام الثورات فى الجنوب والجوف من عميه ويتركهما قاصدا الحدود قبل أن يطفئ نيرانها إلا أن ابن الأثير وتبعه غيره ذكر أن الحكم سير فى سنة ١٨٠ جيشا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فدخل البلاد وبث السرايا ينهبون ويقتلون ويحرقون حتى غنموا مال الفرنج واسروا رجالهم وسبوا حريمهم وعادوا سالمين... اهـ. بتصرف وتاريخ هذه الواقعة سابق تاريخ قيام سليمان وعبد الله على الحكم.

كرَّ من يثق أن الفوز له وقد اظهر سليمان وأخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها شجاعة حتى خال الرائى وقتئذ أن سيكون لهما الغَلَب ولكن قدّر الله إصابة سليمان بسهم فى نحره فسقط صريعا ووطئته سنابك الخيل فلما رأى عبد الله ما أصاب أخاه اخذ فى الهزيمة وقد خيَّم الظلام إلى أن التجأ إلى بلنسية ثم جيء بجثة سليمان إلى ابن أخيه الحكم فبكاه وشيَّع جنازته بإجلال واحترام سنة ١٨٤[١].

بعدئذ لم يسع عبد الله إلا أن يطلب الصلح من الحكم فأجابه إليه على أن يجعل أولاده نزلاء عنده فى قرطبة فذهب عبد الله إلى طنجة وأرسل ولديه إلى الحكَم فقابلهما بحفاوة وإجلال ورتب لعمه كل شهر ألف دينار وفوق ذلك خمسة آلاف فى كل سنة وأباح له السكنى فى قصور ضاحية بلنسية وعفا عن القوَّاد الذين كانوا معه وزوّج أخته المسماة (كَنزًا) لأكبر ولدى عمه المسمى أصبغ وكان بذلك حسم النزاع سنة ١٨٦[٢].

وفى سنة ١٨٤ التى قامت فيها المعركة الأخيرة بين الحكم وعمّيه سَلَّمت طليطلة زعيم الثورة عبيدة بن حمزة إلى القائد عمروس فقطع رأسه وأرسله إلى قرطبة ودخل المدينة وأقام ابنه يوسف محافظا عليها وأسرع فى اللحاق بالأمير ومعه القوى التى أمكنه أن يعدّها ولم يترك حامية فى طليطلة فأدركه فى معسكره فى جنجيلة[٣].

---

(١) كذا يؤخذ من كندى ـ وفى ابن الأثير فى حوادث سنة ١٨٥ أن سليمان انهزم وقصد ماردة فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه فلما حضر عند الحكم قتله وبعث برأسه إلى قرطبة وكتب إلى أولاد سليمان وهم بسرقسطة كتاب أمان واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة.

(٢) فى ابن الأثير وغيره أن الصلح تم فى سنة ١٨٦ وفى كندى وتبعه رومى أنه كان فى سنة ١٨٤ والمتبادر أن الواقعة الأخيرة هى التى كانت فى سنة ١٨٤ (٨٠٠) وأما الصلح فكانت خاتمته فى سنة ١٨٦.

(٣) قال ياقوت جنجيله مدينة بالاندلس بين شاطبة وبنشته.

يؤخذ من رومى أن الفرنج انتهزوا فرصة قيام الخصام بين الحكم وعمّيه فى السنين ٧٩٨ و ٧٩٩ و ٨٠٠.

١ - فأغاروا على اسبانيا الشرقية وأوغلوا فيها وسبب ذلك أنهم بعد أن ضربهم الحكم فى آخر سنة ٧٩٧ وأخرجهم من الأنحاء التى فتحوها وطردهم من اسبانيا الشرقية ومن جزء من سبتمانية ما صدّهم ذلك كله عن مقصدهم نحو اسبانيا ففى أوائل سنة ٧٩٨ اجتمع مجلس أمّتهم PLAIDE فى طلوشة وقرر ارسال تجريدة إلى اسبانيا وفى ذلك الوقت كان بهلول يحكم البلاد الجبلية التى تتاخم اكيتانه وقد ضربه الفرنج فى السنة الماضية فأرسل مبعوثين ليقدّموا إلى المجلس هدايا ويلتمسوا الصلح فأكرم لويس وفادتهم وأجاب ملتمسهم وربما كان ارسال التجريدة إلى اسبانيا من ملتمسات بهلول من المجلس وقد استولت هذه التجريدة على جرونه وروذة وأميرياس.

٢ - وأقاموا قلاعا قويّة على الحدود وقد شغلتهم إقامة هذه القلاع عن إرسال بعثة حربية فى سنة ٧٩٩ إلى ما وراء جبال الأبواب ولكنها لما كملت فى السنة الأولى من القرن التاسع ورأى لويس حصانتها على طول جبال البرانس اجتاز الحدود إلى اسبانيا وكان مقصده الوحيد على ما يظهر أن يتحقق من صحة الوعود والقيود التى ارتبط بها زيد محافظ برشلونه وحسن محافظ وشقة فإن الأول أطاع شرلمان طاعة اسميّة سنة ٧٩٧ ولما قرب الملك من برشلونه جاء إليه زيد واستقبله بإجلال وتعظيم ولكن لم يسلّمه المدينة فتقدم الملك إلى لاردة وهاجمها فأخذها ثم خرّبها وخرّب عدة قصور وقلاع على الطريق الذى بين لاردة ووشقة ووالى هذه المدينة رفض أن يسلمها وكانت حصينة فاكتفى لويس باتلاف مزرعات قمحها وباحراق ما كان خارجا عن أسوارها ولما جاء الشتاء عاد هو وجيشه إلى اكيتانه.

وفى ربيع السنة التالية عقدت الجمعية العمومية لمملكة اكيتانه فى طلوشه

وقررت أخذ برشلونه فجمعت الجنود من أربع أمم تابعة لهذه المملكة: من الفرنك والبشكنس والقوط والاكيتان وجازت حدود جبال البرانس حتى وصلت إلى أسوار برشلونه وحاصرتها وكان أميرها يسمى زيدون فأثار حميَّة سكانها وحضهم على الدفاع والذود عن بيضتهم وصدّ الاعداء عن عاصمتهم فاستعدوا ودفعوا هجمات العدو برميه بالنبال والقلاعات من فوق أسوار المدينة ولكن آل الأمر إلى سقوطها فى سنة ٨٠١م.

ويؤخذ من كندى أن نصارى الفرنج أغاروا فى سنة ١٨٥ على شرق اسبانيا فحاصروا مدينة جيرونة حتى خضعت ثم توجهوا إلى برشلونه فحاصروها زمنا طويلا إذ كانت منيعة فإن المسلمين كانوا حصنوها تحصينا قويّا وإن الحكم لما بلغه ثورة بهلول بن مرزوق وأنه يقود النصارى نحو طرجونة وكورة طرطوشة أمر بتوجيه قوة تطفئ ثورته وتردع هؤلاء الخائنين ـ وفى أثناء اعداد معدّات القوة جاء الخبر إلى قرطبة بسقوط برشلونه سنة ١٨٥ بعد أن طال حصارها سبعة أشهر(١) وفى أثر ذلك سار الحكم نفسه إلى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد بن مفرج والوالى عمروس ولكن هذا عاد إلى طليطلة وسبب ذلك أن يوسف بن عمروس أحفظ أهل طليطلة وأهاج نفوسهم عليه لغلظته وقسوته حتى تجمعوا حول بيته ورموه بالحجارة وجرحوا كثيرا من حرسه وأرادوا الفتك به لولا أن حال دون ذلك كبراء المدينة وكتبوا إلى الحكم بهيجان الطليطليين وقيامهم على واليهم وأنه غير أهل لمنصبه فأطلع الحكم عمروسا على ما كتبه هؤلاء فى ولده وأمره أن يدعوه إلى الحدود فرجاه هذا أن يقوم مقام ابنه فى ولاية طليطلة لينتقم من أهلها فأجاب الأمير رجاءه.

لما استرد الحكم سرقسطة توجه إلى مدن الحدود الأخرى ليستردَّها فأخذ

(١) جاء فى ابن الأثير أن الفرنج ملكوا برشلونة سنة ١٨٥ واخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم إليها وكان سبب ملكهم إياها اشتغال الحكم بمحاربة عميه عبد الله وسليمان.

تطيلة وترك يوسف بن عمرو قائدا لها واحتل بنبلونه وعند نزوله نحو شواطئ نهر ابرة استولى على وشقة ثم زار حدود فرنجة ـ وفى هذه الاثناء رغب يوسف قائد تطيلة الجديد أن يبرهن على أهليّته فأغار على حدود الفرنج فوقع أسيرا فى كمين نصبوه له سنة ١٨٧ ففداه أبوه منهم فأطلقوه[١].

ثم سار الحكم إلى طرجونه فوجد أن بهلولا جلا عنها فاقتفى أثره إلى أن أدركه فى برية طرطوشه يقود عصابات من الجبليين والنصارى فاشتبك القتال بينهما فى عدة ملاحم قاوم فيها بهلول مقاومة تذكر لكنه قهر فى الملحمة الأخيرة التى دامت أربع عشرة ساعة فجيء به حيّا بين يدى الأمير فقطع رأسه سنة ١٨٨ (٨٠٤).

حصل هذا ولم يستردّ الأمير برشلونه ويحتمل أن توالى المعارك وتتابع الاسفار أضعفت قوى جيشه فحال ذلك دون استرداد هذه المدينة الحصينة، يذكر بعض المؤرخين هنا أن الحكم بعد أن وطّد دعائم الأمن فى الحدود عاد من طرطوشه إلى بلنسية فشاطبة فدانية فتدمير فقرطبة فى أوائل سنة ١٨٩ للهجرة (٨٠٥).

وفى هذا الوقت ارتقى إلى عرش إمارة المغرب ادريس بن ادريس وهو الثانى من أمراء الأدارسة فأرسل إليه الحكم وفدا يهنئه بهذا الارتقاء ويعقد معه محالفة

(١) استخلصنا هذا من كندى ورومى لكن جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ١٨٧ أن الفرنج ملكوا مدينة تطيلة وسبب ذلك أن الحكم استعمل على ثغور الاندلس قائدا كبيرا اسمه عمروس فاستعمل ابنه يوسف على تطيله وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت من الاندلس أولو قوة وبأس لأنهم خرجوا عن طاعته فالتحقوا بالمشركين فقوى أمرهم واشتدت شوكتهم وتقدموا إلى مدينة تطيله فحاصروها وملكوها من المسلمين فأسروا أميرها يوسف بن عمرو وسجنوه بصخرة قيس واستقر عمروس بمدينة سرقسطة ليحفظها من الكفار وجمع العساكر وسيرها مع ابن عم له فلقى المشركين وقاتلهم ففض جموعهم وهزمهم وقتل اكثرهم ونجا الباقون منكوبين وسار الجيش إلى صخرة قيس فحصروها وافتتحوها وخلصوا يوسف أمير الثغر وسيروه إلى أبيه وعظم أمر عمروس عند المشركين وبعد صيته فيهم. اهـ ولا يخفى ما فى هذه العبارة من المغايرة لما نقلناه عن كندى ورومى.

على من يناوئهما وكان يصحب هذا الوفد خمسمائة فارس فقويل بالحفاوة والإجلال وكانت حاضرة امارة إدريس (وليلى WALILI) لافاس فإنه هو الذى خطّطها فى سنة ١٩١ - هـ (٨٠٧م).

وفى سنة ١٩٠ للهجرة (٨٠٦)[١] حدث حادث فظيع فى طليطلة وهو أن عمروسا لما ولى إمارة طليطلة خلفا لابنه عزم أن ينتقم من الطليطليين فانتهز فرصة توجّه عبد الرحمن بن الحكم إلى اسبانيا الشرقية يقود خمسة آلاف فارس ومروره بالقرب من طليطلة فدعاه أن يعرّج على المدينة فلبّى دعوته وكان ابن خمس عشرة سنة فأولم له الوالى وليمة فاخرة وأطلعه على ما عزم عليه من دعوة أعيان المدينة إلى الوليمة والفتك بهم فاظهر ابن الأمير سخطه من هذا الأمر الشائن فأجابه الوالى بأن عداوة الطليطليين للامويين نار كامنة دائما متى كشفتها ريح الفرص ثاروا عليهم فيجب افزاعهم بما يخمد أنفاسهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك فهذا القول خدع الشابّ فلما جاء المساء وبادر المدعوون إلى قصر الولاية للاحتفاء بابن أميرهم الحكم فأخذ الحرس كل مدعو إلى الداخل وقادوه إلى حفرة وقطعوا رأسه حتى قتلوا أربعمائة مدعوّ من الأشراف وفى اليوم التالى طرحت رءوسهم أمام أهل المدينة فذعروا من منظرهم البشع ووجفت قلوبهم وشاع أن هذه المكيدة الشنعاء من تدبير الحكم فملئت قلوب الطليطليين بغضا فيه وكانوا لا يلصقونها بعبد الرحمن لصغره ولكنهم ما نسوا أنه كان العلة فيها فثاروا عليه أيام إمارته.

وبعد ثلاثة أيام سار الأمير الشابّ وفرسانه إلى سرقسطة على الحد الذى كان وقتئذ نهر ابره ويقال إن السبب فى تجريدة عبد الرحمن هذه الپنپلونيين -PAM

(١) هذه الحادثة يذكرها ابن الأثير فى حوادث سنة ١٩١ لكن فى تاريخ كندى وتاريخ رومى أنها حدثت فى سنة ١٩٠ ويذكرها دوزى فى ٨٠٧ (١٩١) ويؤخرها عن حادثة ائتمار فقهاء قرطبة على خلع الحكم.

PLUNOIS والنفاريين كانوا خاضعين للحكم منذ غزوته سنة ٨٠٢ ولكنهم فى ٨٠٦ خضعوا للفرنج من تلقاء أنفسهم.

وفى ذلك الوقت كان الحكم وَلى أصْبغَ ابن عمه مدينة ماردة فعزل هذا وزيره فتوجّه المعزول إلى قرطبة ووشى بالوالى عند الأمير وقال له: إنه يتربص فرصة مناسبة ليلقى عن عاتقه نير الخضوع للإمارة الشرعية فأثّرت هذه الوشاية فى نفس الأمير حتى أدّت به إلى عزل ابن عمه وتولية الوزير فتوجه هذا إلى ماردة فرحا بنصرته وأعطى كتاب العزل والتولية إلى أصبغ فرفض أن يترك منصبه وكتب إلى الأمير جوابا يعجب فيه من سماع وشاية الوزير المعزول ويقول له: إن حفيد عبد الرحمن لا يطرد من عمله كما تطرد السُّوقة فهاج هذا الجواب غضب الحكم فبعث فى الحال كوكبة من فرسانه إلى ماردة فرأت أبوابها مغلقة فبلّغَت الأمير فحضر وعزم أن يدخل المدينة بالقوة ويمثّل بأصبغ ولكن قدّر الله درأ ذلك فخرجت كَنْز زوج أصبغ وأخت الحكم ممتطية جوادا يصحبها خادمان واخترقت معسكر الحصار إلى أن دخلت خيمة أخيها فلما رآها ارتاع وهاجت فيه عاطفة الحنان إليها فترامت على قدميه وأخذت تبرئ زوجها بفصاحة لسان وقوة جنان وتدحض عنه ما رماه به الوزير بحجج بالغة حتى اقنعت أخاها وصرفت عنه الظنون وذهب شيطان الشقاق وجاء ملك الوفاق ودخل الأمير وأخته المدينة وأقام فى ضيافة ابن عمه أياما إلى أن جاءه كتاب من قاسم ابن عمه عبد الله يدعوه إلى قرطبة لقيام فتنة فيها فعاد مسرعا فقال له: «علمت أن كثيرا من وجهاء وفقهاء المدينة ممن ينقّم عليك قسوتك وأثَرَتَك وطاعة هواك ائتمروا بك ليقتلوك واختاروا أن أكون أميرهم فلم يسعنى إلا إظهار الميل لما يرومون وقد اطلعتك على أمرهم وأنا لا أزال على بيعتك» فبعث الحكم وسأله تصحيح ما بلّغ فأخذ معه بعض ثقات الأمير وأجلسهم فى قبّة فى داره وأخفى أمرهم وحضر القوم عنده ليتفقوا على موعد ينفذون فيه مأربهم فقال لهم: هذا الذى تدعوننى إليه لا يقوى

على القيام به فئة قليلة فسمّوا له آخرين معهم فقال: إنى لا أثق بمن سمّيتم دون أن اسمع منهم كما سمعت منكم فتطيب نفسى وأدخل فى الأمر على قوّة وبصيرة فأتوه وسمع مقالتهم فقال لهم: موعدنا يوم الجمعة فى المسجد وقت الصلاة وثقات الحكم بحيث يرون ويسمعون ويكتبون اسماءهم فلما صحّ عند الحكم أمرهم بشهادة هؤلاء الثقات عليهم أخذهم وصلبهم جميعا.

وروى دوزى هذه الحادثة بصورة أخرى فى سنة ٨٠٥ فقال:

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون وبعض الأعيان على تولية ابن شمّاس ابن عم الحكم إمارة اسبانيا وخاطبوه فى هذا الشأن فطلب منهم أن يعرّفوه اسماء من يمكنه أن يعتمد عليهم فوعدوه بذلك فى ليلة يعودون فيها إليه فلما خرجوا من عنده توجه سرا إلى قصر الحكم وأطلعه على أمرهم فكان يسمع منهم ويلوح على سيماه الريب فى الأمر فقال له وقد كاد يتميز من الغيظ: «تريد أن تثير غضبى على أعيان عاصمتى ـ تالله إن لم تثبت ما أخبرتنى به لأقطعن رأسك» فسأله ابن شماس أن يرسل معه ثقة فى ليلة كذا فأجاب الحكم سؤاله وأرسل إليه فى الليلة المعينة ناموسه (كاتب اسراره) ابن الخاضع وغلامه الخاص بخدمته المسمى (هَيَسنت HYACINTHE)[1] وكان اسبانيا نصرانيا فاستترا وراء ستار وادخل ابن شماس من ائتمروا وسألهم عمن يعتمد عليهم من الرجال فذكروا له اسماء المؤتمرين والناموس من وراء الستار يكتب الأسماء فى برنامج وكان بعضها أسامى أناس مخلصين فى الظاهر للأمير فخشى الناموس أن يذكروا اسمه بين الأسماء فأحدث جَلَبَةً بنطقه بعض ما يكتبه على الورق فشعر المجتمعون بالأمر وقاموا مخذولين صائحين فى وجه ابن شمّاس قائلين له: «غدرتنا يا عدوّ الله» ونجا بعضهم بالفرار من المدينة وممن فرّوا عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى

(١) وهو اسم نبات يسمى بالعربية السنبل أو الخزامى ويسمى بالفرنسية أيضا (ZACINTHE زسنت) وذكر دوزى فى تقييداته عدة ابنية لهذا الاسم منها (يزنت) عن ابن الابار ثم قال إذا اضيفت جميع الحركات حصل (يزنتو YAZINTO) وبالاسبانية ZACINTO زستو).

إلى طليطلة وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين رجلا من المؤتمرين وصلبتهم قال كندى ورومى إن من صلبوا كانوا ثلاثمائة وأن الحادث وقعت سنة ١٩٠ (٨٠٦) وأن من كانوا اختاروا ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وأنه هو الذى أنشى سرهم ـ ويؤخذ من ابن الأثير أن أهل قرطبة هاجوا ثلاث هيجات الأولى فى سنة ١٨٧ وأن عدد المصلوبين فيها اثنان وسبعون وأنهم كانوا اختاروا محمد بن القاسم القرشى المروانى عم هشام ابن حمزة وأخذوا له البيعة على أهل البلد وأنه هو الذى أطلع الحكم على أمرهم، والثانية فى سنة ١٩١ وأن الحكم عاد بسببها من ماردة إلى قرطبة وكشف عن الذين اثاروا الفتنة وصلبهم منكسين وضرب اعناق جماعة منهم ولم يعين هنا العدد ولا من اختاروه أميرا، والثالثة فى سنة ١٩٨ وقيل سنة ٢٠٢[1] ويسميها بواقعة الربض وملخصها أن أهل قرطبة نقموا من الحكم انهماكه ولذاته وقتله جماعة من أعيانهم فعرَّضوا به فكانوا ينادون عند انقضاء الأذان (الصلاة يا مخمور الصلاة) وشافهه بعضهم بالقول وصفّقوا عليه بالأكفّ وتعرضوا لجنده بالأذى والسبّ فحصّن قرطبة وعمرّ أسوارها وحفر خنادقها وارتبط الخيل على بابه واستكثر المماليك ورتّب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ثم وضع على أهل قرطبة عشر الأطعمة كل سنة من غير حرص ثم قتل عشرة من رؤساء سفهائها وصلبهم فهاج لذلك أهل الربض فاجتمعوا بالسلاح فقاتلتهم الجنود فغلبهم الربضيون وأحاطوا بالقصر فنزل الحكم من أعلاه ولبس سلاحه وركب وحرّض الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا وأمر ابن عمه عبد الله فثلم فى السور ثلّمة وخرج منها ومعه قطعة من الجيش فأحرق الربض وأتى أهله المحاربين من ورائهم وفتك بهم فانهزموا وكانت مقتلة عظيمة وأخرج من كانوا فى المنازل والدور واسرهم فقتل الحكم من وجوههم ثلاثمائة وصلبهم منكسين

(١) نقل رومى عن بعض مؤرخى العرب أن واقعة الربض كانت يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ للهجرة وقال ابن الأثير فى آخر عبارته: «وذكر بعضهم هذه الوقعة سنة اثنتين ومائتين».

وأقام النهب والقتل والإحراق والتخريب فى أرباض قرطبة ثلاثة أيام وأشار على الحكم حاجبه عبد الكريم أن يعفو فنودى بالأمان على أن من بقى من أهل الربض بعد ثلاثة أيام قتلناه وصلبناه فخرج من بقى منهم مستخفيا ومعهم نساؤهم وأولادهم وما خف من أموالهم. اهـ.

قال المقرى (ناقلا عن ابن خلدون مع تصرف) كان للحكم الوقعة الشهيرة مع أهل الربض لأنه فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل: يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ، وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فحصروه سنة تسعين ومائة[1] فقاتلهم وغلبهم فافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة بالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ساروا بها فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش[2] فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة. اهـ.

وفى سنة ١٩٠ (٨٠٦) كانت قوّاد الحكم تحارب على حدود جليقية حتى اضطر ملكها ألفونس أن يطلب هدنة ثلاث سنين من القوّاد فأجابوه إلى طلبه وكان الحكم وقتئذ بماردة.

وفى سنة ١٩١ ثار فى باجة حزم بن وهب وقصد أشبونة فأرسل إليه الحكم ابنه هشاما فى جمع كثير فأذلّه ومن معه حتى طلبوا الأمان وفى أثناء ما كان الحكم مشغولا بأهل ماردة وقرطبة كان الفرنج يغيرون على المسلمين المتاخمين لهم

---

(١) كذا فى ابن خلدون ويظهر أن المقرى أغفل هذه العبارة لشكه فى تاريخ الحادثة فإن ابن الأثير وهو من المآخذ التى أخذ عنها ابن خلدون أرخ هيجات قرطبة بسنين ١٨٧ و ١٩١ و ١٩٨ أو (٢٠٢).

(٢) جزيرة جريد أو كريت الآن.

على طول جبال البرانس حتى استولوا على جزء عظيم من أرض اسبانيا بين هذه الجبال ونهر ابرة.

وفى ابتداء سنة ١٩٢ حاصر الفرنج تحت قيادة لويس ملك اكيتانة مدينة طرطوشه فتوجّه إليهم عبد الرحمن من سرقسطة يقود جيشا جرّارا وانضم إليه جيش من بلنسية تحت قيادة واليها فرفعوا الحصار عن المدينة وفتكوا بالمحاصرين فتكا ذريعا حتى تغطت ميادين القتال بجثثهم وصارت أقواتا للطيور والوحوش وانهزم لويس ابن شرلمان إلى اكيتانه وعاد عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة وكان ابن تسع عشرة سنة فقويل فيها بالفرح والسرور سنة ١٩٣ ودعا عمروسا ليخلفه فى اسبانيا الشرقية.

وفى سنة ١٩٣ (٨٠٩) نزل نصارى جليقية إلى (لوزيتانيا) تحت قيادة ملكهم ألفوس فحرقوا مدنها وقاتلوا أهلها واستمروا فى سيرهم حتى وصلوا إلى أشبونة فنهبوا وخربوا ضواحيها إلى أن جاءهم الحكم نفسه فدفعهم إلى أرضهم وعاد إلى قرطبة تاركا قواده تحاربهم إلى (سنة ٨١١) وفى سنين ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ عاودت أهل ماردة الخلاف على الحكم وعصوا عليه فسار إليهم بنفسه وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردّد إليهم حتى خضعوا وخرج منها واليها أصبغ وسكن قرطبة، وفى هذه السنين (كما جاء فى ابن الأثير) طمع الفرنج فى ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبى وكان الحكم مشغولا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج فأتاه الخبر بشدة الأمر على الثغور وما بلغ العدو منهم وسمع أن امرأة مسلمة أُخذت سبية فنادت واغوثاه يا حكم، فعظم الأمر عليه فجمع عسكره وسار إلى بلاد الفرنج سنة ١٩٦ وأثخن فى بلادهم وافتتح عدة حصون وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال وقصد الناحية التى كانت بها تلك المرأة فخلصها من الأسر فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: هل أغاثكم الحكم؟ فقالوا نعم: ودعوا له وأثنوا عليه خيرا وعاد إلى قرطبة مظفرا.

قال المقرى فى سبب هذه الغزاة: إن العباس الشاعر توجّه إلى الثغر فلما نزل بوادى الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدوّ علينا فآيمنا وأيتمنا فذهب إلى الحكم وأنشده قصيدة يصف له فيها خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه منها:

تدارك نساء العالمين بنصرة
فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

فأنف ونادى فى الحين بالجهاد فخرج إلى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض العدوّ كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وأثخن فيها وفتح الحصون وخرّب الديار وقتل عدداً كثيراً وجاء إلى وادى الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد فأحضر وأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة: وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وأنكى العدوّ وأغاث المهلوف فأغاثه الله وأعز نصره فارتاح لقولها وبدا السرور فى وجهه وقال:

ألم تر يا عباس أنى اجبتها
على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارا وبرّدت غلة
ونفّست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس: نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبّل يده.

ويؤخذ من رومى أن الفرنج فى سنة ٨١٠ أرادوا أن يعاودوا الكرة على طرطوشه فذهب جيشهم أولا إلى برشلونة وصنعوا فيها زوارق سهلة الحمل كل منها مقسم إلى أربعة أقسام يمكن حمله على حصانين أو بغلين ويسهل تركيبه عند إرادة الاستعمال واستحضروا لهذا الغرض مطارق ومسامير وقيرا وشمعا ومشاقا وليخفوا أمرهم كانوا يسيرون ليلا ويختبئون نهارا فى الغابات ولا يشعلون النار لئلا

يدل عليهم دخانها حتى وصلوا إلى شاطئ نهر ابرة بعد ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع ركبوا زوارقهم ووضعوها فى الماء واخترقوا بها النهر قائدين خيلهم تسبح حول الزوارق فلما وصلوا إلى الشاطئ الآخر فاجئوا فرقة من العسكر كانت تخفر النهر فولّت مدبرة تاركة وراءها امتعتها وخيامها فبات فيها الافرنج وفى اليوم التالى قابلهم والى طرطوشة المسمى عبيد الله أو عبدون بمن قدر على جمعه من الجنود ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانجلت عن فوز الطرطوشيين وعن ارتداد الفرنج إلى اكيتانة على أعقابهم خاسرين(١).

لما رأى الحكم تتابع الحروب بين المسلمين وبين الافرنج من جهة الشمال الشرقى وبين نصارى جليقية من جهة الشمال الغربى أرسل مبعوثين إلى شرلمان امبراطور الفرنج يطلبون الصلح ومع هؤلاء المبعوثين (كونت) كان أسيرا عند الأمير منذ سنين فوصلت هذه البعثة إلى مدينة (اكس لاشبال AIX-LA-CHAPELLE) فى الوقت الذى وصلت فيه إليها بعثة امبراطور القسطنطينية (نسافورة NICEPHORE) لمثل غرض البعثة الأولى فعقد شرلمان الصلح مع البعثتين فى شهر اكتوبر سنة ٨١٠م.

ومع هذا أغارت تجريدة بحرية من المسلمين فى نهاية هذه السنة على جزيرة قرصة CORSE) فخربتها لكن يظهر أن هذه التجريدة قامت من ثغور اسبانيا قبل أن يعلم الصلح فى زمن كانت فيه وسائل نقل الأنباء صعبة وقليلة السرعة.

وفى نهاية هذه السنة أيضا طرد عبد الرحمن بن الحكم عمروسا من سرقسطة والجأه إلى وشقةٍ مسقط رأسه لما ظهر من أن له علائق بالفرنج وأنه كان يطلعهم على المحالّ التى يسهل عليهم مفاجأتها وكان عمروس هذا من المولودين أبوه مسلم وأمه نصرانية فيحتمل أن الفرنج حالفوه على استقلاله بالثغر الأعلى تحت رعايتهم.

(١) هذه الحادثة لا أثر لها فى التواريخ العربية التى بأيدينا.

وفى سنة ٨١١م فسخ عقد الصلح بين الحكم وشرلمان وعاد الشجار بين الأمتين على أرض اسبانيا حتى إن لويس تأهب لأخذ طرطوشة[١] ويحتمل أن سبب ذلك استمرار غزوات المسلمين البحرية إلى جزائر البحر المتوسط التابعة لمملكة افرنجة.

وفى سنة ١٩٧ (٨١٢) دخل عبد الرحمن جيرونه وغزا أرض نربونه فقاتل أهلها ونهبها وعاد ومعه كثير من الاسرى والغنائم الواسعة وكان ابن إحدى وعشرين سنة وكان حاكم اسبانيا الشرقية ومحافظ الحدود[٢] جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠٠ أن الحكم جهز جيشا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالاندلس (يعنى نصارى جليقية) فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخرّبها ونهبها وهدم عدة من حصونها فاستنفد خزائن ملوكهم، فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلاده كاتب ملوك جميع تلك النواحى مستنصرا بهم فاجتمعت إليه النصرانية من كل أوب فأقبل فى جموع عظيمة بازاء عسكر المسلمين بينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام، المسلمون يريدون أن يعبروا النهر وهم يمنعونهم فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون إليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون إلى النهر فأخذهم السيف والاسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من كنودهم[٣] وملوكهم وقمامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما

(١) روى رومى عن قصصى منجم أن لويس سار إلى طرطوشه بنفسه يقود جيشا كثير العدد والعدد وحاصرها أربعين يوما وهو يرمى حيطانها بالمجانيق حتى طلب أهلها عقد شروط وألقى محافظها عبيد الله مفاتيحها إلى لويس فحملها وهو فرح إلى أبيه» واعقب رومى هذه الرواية باستبعاد استيلاء لويس على طرطوشة كما استولى على برشلونه وأنه ترك فيها حامية وأقام عليها محافظا ـ لأنه لم يوجد لذلك أثر فى تاريخ عربى ولا أفرنجى وقد جاءت اخبار مختلفة تتكلم عن طرطوشة بعد هذا الزمن باعتبار أنها مدينة خاضعة للحكم الاسلامى.

(٢) رومى.

(٣) جمع كند المعروف الآن بكنت.

فجاءت الأمطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم سابع ذى الحجة. اهـ.

وجاء فى ابن خلدون ما نصه:

«وفى سنة ٢٠٠ بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار فيها وخربها ونهبها وهدم من حصونها وأقبل إليه ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أيامًا ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الأمطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين وجاء فى تاريخ ابن عذارى نحو ذلك وسَمَّى النهر نهر ارون وقال: إن المشركين قتل منهم عدد عظيم لا يحصى كثرة وضاقت الحال أيضا بالمسلمين فقفل عبد الكريم ظافرا لسبع خلون من ذى القعدة.

ويؤخذ من كندى ورومى:

١- أن جيش الحكم فى سنة ١٩٧ (٨١٢) كان يحارب نصارى الشمال الغربى تحت قيادة عبد الكريم وعبد الله فكان للجيش فى المبدأ نصرات لكن صعب القتال على المسلمين منذ دخلوا فى أرض جبلية يجلونها فغلب النصارى القائد عبد الله على حدود جليقية فقتلوه وفرّقوا جنده أيدى سبا وفرّ فرسانه حاملين الرعب إلى عساكر عبد الكريم حتى اضطروهم إلى الفرار مع ما هو عليه قائدهم من المهارة والشجاعة فغرق بعضهم فى النهر ولجأ البعض إلى الغابات المجاورة وتسلّقوا اشجارها ليختبوا فيها ولكن عسكر النصارى أدركوهم ورموهم بالسهام.

٢- وإن عيسى بن أحمد الرازى قال: بقى الجيشان بعد الهزيمة يواجه أحدهما الآخر بدون قتال ثلاثة عشر يوما فلا النصارى يجرءون على المسلمين ولا هؤلاء يجرءون على أولئك ثم اشتبك الفريقان فى مناوشة دموية جرح فيها عبد الكريم برمح ومات أثر جرحه بيومين فأخذ جيشه فى الهرب.

لا يخفى ما بين كلام مؤرخى العرب وكلام مؤرخى الأفرنج فى هذه الحادثة

من التناقض لكن جاء فى تقييدات رومى (ص ٣٩٣ج ٣) أن مرفى MURPHY يروى هذه الحادثة بوجه آخر أقل خسرانا على المسلمين قال «فى هذا الوقت (٨١٢) تقدم (اذفُنش) ملك الجلالقة يقود جنودا نحو المسلمين فالتقى الجيشان بالقرب من نهر واقتتلا ثلاثة عشر يوما كان فيها الفوز للمسلمين لكن هطلت أمطار غزيرة أمدّت النهر فطغى ماؤه فاضطر المسلمون وإن كانوا ظافرين إلى ترك ميدان القتال» فهذه العبارة تؤيّد ما جاء فى التواريخ العربية ويذكر مؤرخو العرب هذه الحادثة فى حوادث سنة ٢٠٠ للهجرة ومؤرخو الافرنج يذكرونها فى حوادث ٨١٢ للميلاد المقابلة لسنة ١٩٧ فيحتمل أنها ابتدأت فى سنة ١٩٧ وانتهت فى سنة ٢٠٠ والله أعلم بالحقائق.

وفى ربيع سنة ١٩٨ أغار عبد الرحمن على جليقية ليأخذ بثأر من قتل من المسلمين فى السنة الماضية فطرد النصارى من مدينة سمّورة التى على نهر دورو DUERO واستولى على عدة قلاع والتقى بالأعداء على نهر[1] ففتك بهم حتى سالت دماؤهم كالنهر وانهزم من نجا منهم وبعدئذ عقد الصلح بين الفريقين وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مثقّلا بالغنائم يقود كثيرا من الاسرى وقد اكسبت عبد الرحمن نصراته فخرا وشهرة واسعة فجمع والده الحكم الأمراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والقوّاد والسراة وعهد إليه أمامهم بولاية الأمر من بعده فارتضوه جميعا وحلفوا له يمين الطاعة وكان ذلك فى يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور ومن ذلك اليوم سُمّى وليّ العهد سنة ١٩٩ يؤخذ من رومى (أن اختيار عبد الرحمن ولى عهد كان فى سنة سكنت فيها زوابع الحروب لاستمرار زمن الصلح بين المسلمين والفرنج ولعقد عبد الرحمن الصلح مع الجلالقة عقب غزوته الأخيرة فى سنة ٨١٣) وكأنه نسى قوله قبل ذلك: إن عقد الصلح فسخ فى سنة ٨١١ وأن عبد الرحمن غزا أرض تربونه سنة ١٩٧ (٨١٢) إلا أنه يحتمل أن

(١) لم يسموا النهر ولعله نهر ازلا EZLA.

عبد الرحمن استعاد الفرنج الصلح عقب غَزْوه إيّاهم هذه السنة كما أنه عقده مع الجلالقة فى السنة التالية.

ويؤيد ذلك قوله فيما بعد أن موت شرلمان امبراطور الفرنج فى ٢٨ يناير سنة ٨١٤ لم يغيّر شيئا فى العلائق التى بين العرب والفرنج إلى سنة ٣١٥ ففيها فسخ الصلح الذى عقد بين الامتين فى سنة ٨١٢ وعادت الخصومات بينهما إلا أن عبد الرحمن والى اسبانيا الشرقية أرسل سفراء إلى (لويس) الذى خلف أباه شرلمان يطلبون منه إطالة زمن الصلح ثلاث سنين فقابلهم فى سنة ٨١٦ وبعد مطاولة أجاب طلبهم فى ٨١٧.

قال ابن الأثير «وفى هذه السنة (٢٠٠) خرج خارجىّ من البربر بناحية مورور فاستدعى الحكم قائداً وأخبره بذلك سرّاً وقال له: سر من ساعتك إلى هذا الخارجى فأتنى برأسه وإلا فرأسك عوضه وأنا قاعد مكانى هذا إلى أن تعود فسار القائد إلى الخارجى وقتله وأحضر عند الحكم رأسه فأحسن إليه ووصله وأعلى محله (مَوْرور بفتح فسكون فضم).

ويؤخذ من رومى وكندى أن الحكم كان لا يخرج من قصره زمن السلم مفوّضا شئون الحكومة إلى ابنه عبد الرحمن مولعًا هو بمجالس اللهو والطرب والخمر فى حدائقه بين غلمانه ونسائه اللائى كنّ يحسنّ الغناء وضرب آلات الموسيقا وكان هذا يلهيه عن أمور الدين، وكان يغضب الفقهاء والعلماء منه رأيه فى شرب الخمر وسفكه الدماء وجوره على الرعية فكرهه الناس لذلك ولاتقاء شرّهم اتخذ حرّاسا: مائتى جُنْدى يرابطون على شواطئ النهر بازاء قصره فى ثكنتين بنيتا لهذا الغرض وخمسة آلاف مملوك من الصقالبة منهم مائتا راجل وثلاثة آلاف فارس يحرسون ذاته، خاصّة وهؤلاء المماليك يخدمون فى القصر وعند الحاجة يحملون السلاح ونفقات هؤلاء الحرّاس الجأت الأمير إلى أن يفرض على الأهلين رسوما يؤدّونها على عروض تجاراتهم المختلفة الداخلة فى المدينة فامتلأت صدورهم

حنقا عليه وتذمروا وتوقف بعضهم عن ادائها واهانوا الجباة فأمر الحكم بالقبض على عشرة من المتوقفين ونشأ عن ذلك ضجيج وصخب فى انحاء المدينة وقضى عليهم قضاء صارمًا بأن يصلبوا على أوتاد على شاطئ النهر ففعل بهم ذلك فى ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ فهرع سكان الربض الجنوبى من قرطبة ليروا هؤلاء المصلوبين فضرب جندى أحدهم فرموه بالحجارة وهجموا عليه فجرى أمامهم مغطّى بدمائه حتى احتمى فى حرس المدينة وقد تمادوا فى الهيجان حتى انقضّوا على الحرس وفرقوا شمله ووصلوا إلى قصر الأمير صارخين عليه ومهددين إياه.

لما علم الحكم بأمرهم تسربل بسلاحه وهمّ بالنزول إليهم فاراد اخصّاؤه أن يمنعوه فلم يسمع لهم قولا فجمع فرسانه وركب فى مقدمتهم وطرد المتجمهرين وكانوا عُزْلا ففر كثير منهم إلى مساكنهم وأوصدوا أبوابها عليهم ومن بقوا منهم فى الشوارع اجتهدوا فى أن يقاوموا فلم يفلحوا وقبض على ثلاثمائة منهم فقتلوا ورميت اشلاؤهم بالقرب من النهر ـ وفى اليوم التالى أمر الحكم بتخريب أرباض قرطبة لا سيما الربض الجنوبى[١] وأباح نهب منازلها ثلاثة أيام خلا أن يمس النساء ضرر.

وفى اليوم الرابع نودى فى الناس بالأمان على أن يهاجروا من قرطبة ففرّ منهم كثير إلى قرى طليطلة ورحل منهم خمسة عشر ألفا إلى أفريقية فأقام منهم ثمانية آلاف فى المغرب والباقون ذهبوا إلى مصر[٢] وقد اختاروا أبا حفص عمر بن شعيب البلوطى[٣] رئيسا لهم فلما وصلوا الاسكندرية اعترض لهم أهلها ومنعوهم الدخول لكنهم قَوَوْهم[٤] ودخلوا المدينة عنوة وفتكوا بأهلها وتغلبوا على حكومتها فجاءهم عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون واتفقوا على

(١) كان هذا الربض يمتد على الشاطئ الأيسر للنهر الكبير فى جنوب قرطبة بازاء قنطرة السمح.
(٢) يروى أن الذين ذهبوا إلى مصر كانوا خمسة عشر ألفا خلا النساء والاطفال.
(٣) نسبة إلى فحص البلوط أى برية قلعة رباح.
(٤) قاويته فقووته أى غلبته.

الجلاء عن الاسكندرية على مال وسكنى جزيرة اقريطش (جريد أوكريت) التى كانت قليلة السكان وقتئذ فرحلوا إليها وتغلبوا على أهلها وحكموها مدة ١٣٨ سنة إلى أن فتحها (ارماتاس) ابن امبراطور اليونان قسطنطين فى سنة ٣١٥ للهجرة (٩٦١ للميلاد).

هذه هى وقعة الربض الأخيرة وقد سبق كلام ابن الأثير وابن خلدون والمقّرى فيها.

ولا يخفى ما فى روايتها من الاختلاف ومن أجلها لقبوا الحكم بالربضى وكنوه بأبى العاص ومن هذه التسمية الأخيرة سماه الافرنج ابولاز ABULAZ.

وفى سنة ٢٠٣ للهجرة (من يوليه سنة ٨١٨ إلى يونيه سنة ٨١٩) وتاليتها توجه عبد الرحمن إلى حدود جليقية يقود جيوش ماردة فغزا النصارى وغلبهم فى عدة مناوشات ثم ذهب إلى حدود الفرنج فأوقف سير غاراتهم على اسبانيا ورجع إلى قرطبة سنة ٢٠٥ (٨٢٠- ٨٢١) وعند مروره بطرجونه وجّه السفن الراسية على شواطئ اسبانيا هناك إلى جزيرة سردينا فقاتلوا نصارها وأحرقوا أسطولهم أمام الجزيرة وقبضوا على ثمانى سفن تجارية لهم ورجعوا إلى ساحل اسبانيا.

أحدثت فظائع وقعة الربض تأثيرا سيئا فى عقل الحكم حتى مرض ومات فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦[1] بعد أن حكم ٢٦ سنة قمرية و١٠ أشهر و١١ يوما.

قال ابن خلدون (ناقلا عن ابن الأثير مع تصرف) توفى الحكم ابن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته وهو أول من جنّد بالاندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس

(١) فى ابن الأثير أنه مات لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٠٦.

وكان يقرّب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطّأ الملك لعقبه بالأندلس. اهـ.

٤- عبد الرحمن الثانى ابن الحكم (من ٢٠٦ إلى ٢٣٨):

قبض عبد الرحمن على دفة حكومة اسبانيا فى السنين الأخيرة من حياة أبيه الحكم فلما مات هذا فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ للهجرة انتقل لقب الإمارة العامة إلى ابنه وكان ابن إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام[١].

يصفه بعض مؤرخيه بأنه كان اسمر اللون طويل القامة اقنى الأنف أكحل العين عظيم اللحية حازما ماهرا شجاعا عالى الهمة أديبا شاعرا عالما بالشريعة والفلسفة وأنه أول من شاد القصور الجميلة والمنتزهات ومهّد الطرق وأتى بالماء العذب إلى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وشاد الجوامع وزاد فى جامع قرطبة وكان محبا للعلماء والأدباء ولم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه ابهة ومجدا وزاد حرسه ألف فارس.

فى أول ولايته ثار عليه عم أبيه عبد الله البلنسى ولم يطفئ بَرَد لحيته نار طمعه فى ملك اسبانيا فعبر من طنجة مجاز جبل طارق بقوة عظيمة قاصدا قرطبة مدّعيا أنه أمير اسبانيا ظانا أن أولاده يمدون إليه أيدى المساعدة وكانوا ثلاثة مرتقين إلى مراتب سامية فى الحكومة وهم: قاسم وأصبغ وعبيد الله فتقدم إليه عبد الرحمن وغلبه فى عدة معارك حتى الجأه إلى الفرار إلى مدينة بلنسية فجاءها الجيش الغالب وحاصرها إلى أن جاء ابنا عبد الله قاسم واصبغ إلى المعسكر وطلبا العفو من الأمير عن أبيهما فعفا وصفح وتقابل عبد الرحمن وعبد الله وزال الخلاف وولاّه الأمير كورة تدمير مدة حياته وبعد سنتين مات عبد الله سنة ٢٠٨ (٨٢٣)

(١) كندى ورومى وفيه نظر يتبين مما يأتى أخيرا ـ قال ابن الأثير أن عبد الرحمن ولد بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لابيه هشام.

وكان شيخا كبّارا ولد فى الشام قبل دخول أبيه اسبانيا كذا يؤخذ من كندى ورومى وقال ابن الأثير: «لما ولى خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسى وطمع بموت الحكم وخرج من بلنسية يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبد الله خاف وضعفت نفسه فرجع إلى بلنسية ثم مات.

وقال ابن خلدون فى هذا الموضع: «خرج عليه لأول ولايته عبد الله البلنسى عم أبيه وسار إلى تدمير يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فحام عن اللقاء ورجع إلى بلنسية ومات إثر ذلك» فيؤخذ من كلام هذين المؤرخين أن عبد الله لم يخرج على الأمير من طنجة بل من بلنسية وأنه لم تحدث معارك بين الفريقين وسبق أن الحكم سكنه ضاحية بلنسية.

وفى السنة التالية لسنة الولاية (٢٠٧) حدثت الوقعة المعروفة بوقعة (بالس)[١] وسببها أن الحكم كان قد بلغه عن عامل البيرة المسمى ربيعا أنه يظلم أهل الذمة وثبت الامر لديه فقبض على العامل وصلبه ومات الحكم إثر ذلك فجاء المظلومون إلى قرطبة يطلبون ردّ الأموال التى ظلمهم فيها ربيع ظانين أنها تردّ إليهم ووقفوا بباب القصر وشغبوا فبعث إليهم الأمير عبد الرحمن من يسكنهم فلم يقبلوا بل دفعوا من جاءهم فخرج إليهم الجند وأوقع بهم ونجا فلهم إلى البيرة.

فى هذه الأثناء أغار كند[٢] برشلونة على بلاد المسلمين من وراء الثغر[٣] فخربوا وأحرقوا ونهبوا وعادوا مثقلين بالغنائم (٨٢٢) فجاء خبر ذلك إلى عبد الرحمن عقب أن عقد الصلح مع عم أبيه فى بلنسية وكان يريد أن يطلق سراح الجنود فأمسك وأرسل فريقا منهم فى المقدّمة تحت قيادة عبد الكريم فقابل النصارى وهزمهم وحصرهم فى برشلونه حتى جاء الأمير بقوّاته العظيمة وأحدق

(١) يظهر أنها سميت بذلك لأنها وقعت أمام القصر واسم القصر بلغة الافرنج (بالس PALAIS).
(٢) أو كونت ويجمعه ابن الأثير على كنود وهو لقب رتبه من رتب الافرنج.
(٣) الثغر اسم نهر فى اسبانيا يخرج من فرنسا من شق سردينا على جبال البرانس ويصب فى نهر ابرة.

بالمدينة ووالى الهجوم عليها حتى فتحها[١] وأخلاها من العدوّ وأمر بزمّ أسوارها ثم سار إلى أرغل URGEL فأصابها ما أصاب أختها ثم طارد الافرنج حتى ألجأهم إلى قلاعهم المقامة على الجبال ثم عاد إلى قرطبة منصورا سنة ٢٠٧ للهجرة[٢] (٨٢٢).

وفى هذه السنة نشأت الفتنة فى كورة مرسية بين اليمانية والمضرية فاقتتلوا بلورقة وكانت بينهم وقعة تعرف بوقعة (المصارة) قتل فيها نحو ثلاث آلاف رجل وكان الأمير عبد الرحمن يرسل القوّاد بالجيوش ليزيلوا الشقاق المستحكم بين الفريقين ويكفّوهم عن القتال فكانوا إذا جاء قائد الأمير يسكنون وإذا رحل عنهم يهبُّون إلى الخصام وداموا على ذلك سبع سنين.

وفى ربيع السنة التالية جاء من القسطنطينية إلى قرطبة وفد من قِبَل قيصر الروم ميخائيل إلى الأمير عبد الرحمن بهديَّة ثمينة من الخيل المطّهمة المجهزة بعُدَد فاخرة لم ير لها فى اسبانيا نظير فاستقبل الأمير هذا الوفد بالحفاوة والإجلال وقبل الهدية وأضافهم فى قصره فبلغوه أن القيصر يرغب أن يكون له حليفا على حزب المأمون خليفة بغداد وأن هذا يسهّل عليه تجديد ملك اجداده فى الشرق فوعدهم الأمير خيرا وغمرهم بالهدايا الجزيلة وأرسل معهم يحيى الغزال[٣] من كبار أهل

(١) يستبعد رومى فتح عبد الرحمن برشلونه وبعده كفتح لويس طرطوشه.

(٢) هذه السنة تبتدئ فى فبراير سنة ٨٢٢ وتنتهى فى فبراير سنة ٨٢٣.

(٣) كذا فى التواريخ العربية ويسميه كندى (يحيى بن حكم الغزالى) وتبعه رومى إلا أنه قال: (ابن الحكم) ويؤخذ من تقييدات هذا أنه سمى بالغزلى لأنه كان ينظم شعر الغزل وانظر هل هذا الشاعر هو المعنى فيما يرويه ابن عذارى من أن الغزال الشاعر دخل على الأمير فقال الأمير: جاء الغزال بحسنه وجماله فقال له الوزير أجز ما بدأ به الأمير فقال

قال الأمير مداعبا بمقاله
جاء الغزال بحسنه وجماله
أين الجمال من امرئ أربى على
متعدد السبعين من أحواله

فإن صح ذلك يكون ما أبداه رومى من علة التسمية وهم.

الدولة ومعه هديّة برسم القيصر من أفراس الاندلس الرائعة الكريمة ومن سيوفها البتّارة المصوغة فى معاملها الموشّاة بالحلى الجميلة وكان يحيى فصيحا شاعرا حكيما ماهرا فى فنّ الملاحة.

وفى السنة عينها (٢٠٨) أو فى مبدأ السنة التالية جاء إلى عبد الرحمن فى قرطبة وفد من النفاريين والجبليين يدعونه إلى التحالف وهم من البشكنس وحملهم على هذا ما اشيع من أن الفرنج سيغيرون على الجبلين (سكان جبال البرانس) مدّعين أن عصيانهم يتجدد دائما وعلى أثر هذه الإشاعة أقسم النفاريون على إهلاك هؤلاء القوم الجرمانيين الذين هم وإن كانوا نصارى مثلهم إلا أنهم على الدوام يقاتلونهم أكثر من الأندلسيين المسلمين وعلى هذا دعوا هؤلاء لمساعدتهم على عدو الفريقين فأجاب عبد الرحمن دعوتهم وحالفهم، وما كانت هذه الإشاعة التى حملت الجبليين على أن يحالفوا الاندلسيين بدون أساس ففى أواخر سنة ٨٢٣ أمر ملك اكيتانه أن يجتاز جيش قوّى الجبال تحت إمرة قائدين يسميان (ايلوس ELUS) و (أرناريوس ARNARIUS) وقتئذ كان المقصد من اجتياز الجيش غير معلوم هل كان محاربة العرب أو الجبليين أو النفاريين أو البنبلونيين وقد علم بعد أن الجيش قصد بنبلونه فدخلها وقضى مأربه فيها ثم عاد فوقع فى أيدى أعدائه.

هنا لم يذكر المؤرخون السبب الذى اقتضى توجه جيش ملك الأكيتان إلى بنبلونه وما هو المأرب الذى قضاه بها ويظهر أن الغرض كان اتخاذ المدينة مركزا حربيا للاستيلاء على الأقوام المجاورين فحال دون ذلك أن سمع الجيش بتوجه العرب والبشكنس نحو الحدود فعاد مسرعا تاركا المدينة على ما كانت عليه.

ذكر المؤرخون الاندلسيون أن ولاة الحدود فى سنة ٢٠٩ للهجرة (٨٢٤) قاتلوا فرنج الجبال فى عدة معارك دموية وغلبوهم وقتلوا كثيرا منهم فى مضايق جبال البرت ومن تلك المعارك معركة (بُرت شزر PORT- SCHAZAR) التى هى

ثغر بنبلونه فإن العرب مزّقوا الفرنج فيها كل ممزّق وأخذوا قادتهم أسرى إلى قرطبة وغنموا غنائم واسعة، يظهر أن هذه المعارك هى المعنيّة فى التواريخ العربية بغزوة البة والقلاع.

قال ابن خلدون (نقلا عن ابن الأثير): «فى سنة ثمان (٢٠٨) أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى البة والقلاع فخرّب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونها وصالح بعضها على الجزية واطلاق اسرى المسلمين وانصرف ظافرا» وقال ابن عذارى: «وفى سنة ٢٠٨ كانت الغزاة المعروفة بغزاة البة والقلاع غزاها عبد الكريم بن عبد الواحد بالصائفة واحتل بالثغر وتوافت عليه عساكر الإسلام واختلفوا فى الدخول على أىّ باب يكون إلى دار الشرك ثم اجتمعوا على أن يكون من باب (البة) إذ كان ذلك الباب انكى للعدوّ وأحسم لدائه فاقتحموا من فجّ يقال به جرنيق وكان وراءه بسيط للعدوّ فيه خزائنه وذخره فوقع أهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخر تلك الخزائن فانتهبوا وانصرفوا غانمين ظافرين».

وفى سنة ٢٠٩ أرسل الأمير عبد الرحمن إلى حد (الجوف)[١] عبيد الله بن عبد الله البلنسى لأن النصارى كانوا ابتدءوا هناك فى شنّ الغارات وكان عبيد الله هذا قائد السيّافه وقد أقامه الأمير محافظا على هذا الحد فقاتل (اذفُنش) ورجح عليه حتى اضطره إلى أن يلتجئ إلى جباله وحصونه وعاد هو إلى قرطبة ومعه كثير من الأسرى والغنائم فاستقبله الأمير بالإجلال سنة ٢١٠هـ.

وبعد اشهر أعاده الأمير إلى قتال هؤلاء الاعداء أنفسهم فتوجّه يقود الجيوش مشاة وفرسانا وبقى هناك سنتين.

(١) يؤخذ من كندى ورومى أن (الجوف) فى شمال اسبانيا لكن جاء فى ياقوت الجوف أرض مطمئنة أو خارجة فى البحر فى غرب الأندلس مشرفة على البحر المحيط والجوف أيضا من إقليم (اكشونية) من الاندلس وقال أيضا: (اكشونية) مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل اشبونة وهى قرطبة.

ما كانت حروب عبد الرحمن العديدة عائقة له عن تحسين قرطبة وإعلاء حضارتها وجلب الماء الصافي من الجبال إليها في أنابيب الرصاص وبناء الجسور على نهرها[١] وعن تشييد القصور والمدارس والجوامع ذات النافورات المرمرية في قرطبة وغيرها من المدائن وعن أن يعيش ملكا منعما في قصره الباذخ مغمورا في الترف والرفاهية ويفيض بأعطياته على مهندسي مبانيه وشعرائه ومغنيه وجواريه وكانت تلجئه نفقات هذه الشئون ونفقات الحروب إلى فرض ضرائب باهظة على الأهلين حتى سخطوا وتذمروا من ذلك ـ وكان النصارى المدائن العظيمة ارتباط بأهل أوروبا فإن كثيرا منهم كانت تدفعهم رغباتهم في التجارة إلى السفر من اسبانيا إلى بلاد الغال (فرنسا الآن) وجرمانيا حتى إلى جزيرة (برتون BRETON) فطنطنوا في شكاويهم من الأمير إلى الأوروبيين ففي سنة ٢١٣ (٨٢٨) جاءَ كتاب من (لويس ملك الفرنج إلى أهل ماردة يحرّضهم على الثورة على الإمارة[٢] فصادف منهم صدورا حرجة من قسوة الشرطة في جبى الضراب التي كانوا يسمونها بالزكاة فرفعوا لواء العصيان تحت امرة محمود بن عبد الجبار الذي كان جابيا في عهد الحكم وفصل من وظيفته في مبدأ حكم عبد الرحمن لأنه شهر نفسه في حزب خصمه عبد الله وهجموا على بيوت العمال ونهبوا وخرّبوا وفتكوا بهم وما نجا الوالي من القتل إلا بالهرب من المدينة ـ في هذه الأثناء كان الأمير يتأهب للرحيل إلى الشمال الشرقي من اسبانيا ليغزو الفرنج ويرّد إلى إمارته حدودها القديمة التي كانت تمتد إلى جبال البرانس فلما جاءه نبأ ثورة المارديين وقف عن السير وأمر والي طليطلة عبد الرءوف بن عبد السلام بالتوجه إلى ماردة لإطفاء نار الثورة فيها فلما بلغتها جنوده هدموا أبنية ضواحيها ومنازل النزهة بها وأتلفوا بساتينها فأغضب فعلهم هذا الأمير فكتب إلى عبد الرءوف يلومه وينهاه أن لا يزيد خسائر الأهلين وأنه إذا فتح المدينة لا يعامل أهلها بالقسوة، هذا وقد

(١) كندى.

(٢) انظر نص الكتاب في تاريخ رومي صحيفة ٤٤١ وما بعدها من الجزء الثالث.

استمر حصار المدينة عدة أشهر ساءت فيها أحوال المحصورين وكان من بينهم نحو أربعين ألف رجل مسلحين كان يدفعهم تلمّس القوت إلى نهب بيوت الغنى والتجارة فاجتمع رؤساء المسلمين المخلصين للإمارة وقرروا فيما بينهم أن يفتحوا أبواب المدينة لجيش الأمير فبعثوا بستة من شبانهم إلى المعسكر ليعلموا القائد بالامر ويدعوه إلى الدخول فى ساعة معيّنة ليلا فدخل الجنود المدينة بدون معارض ولما أصبح الصباح تتبعوا العصاة فى الشوارع وقتلوا منهم سبعمائة رجل وفرّقوا شمل الباقين منهم ولم يؤذوا أحداً من الأهلين امتثالا لأمر الأمير ـ وبعد أيام نادوا فى المدينة بالأمان سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقد فرّ رؤساء الثورة ومن بينهم محمود بن عبد الجبار والتجأوا إلى جليقية.

ما انتهت فتنة ماردة إلا واعقبتها ثورة طليطلة وكان يسكن هذه المدينة كثير من النصارى واليهود الأغنياء الذين هم وإن كانوا خاضعين لحكومة الأمير إلا أنهم أعداء للمسلمين ويريدون أن يلقوا نير حكمهم عن عاتقهم فكانوا يحدثون الفتن والقلاقل لاضطراب الحكومة وزعزعة أركانها ويسرّهم حلول المصائب بها فثاروا وكان زعيم ثورتهم شابّا غنيّا يهوى الانتقام يسمى هاشما كان يحرض الأهلين على القيام على الوالى ويعطى فى سبيل ذلك كثيرا من المال إلى الفقراء حتى استمال بذلك أحراس قصر الولاية وهجم عليه هو وشيعته وقتلوا عمّاله ونهبوا جميع الأسلحة وكان الوالى ميسرة الفتى غائبا فى قلعة رباح فاخبر عبد الرحمن بما بلغه من أمر الثورة فأرسل الأمير ابنه أميّة[1] ومعه فرقة من الفرسان لنجدة الوالى فلم ينالا غرضا من هاشم بل استمر عصيانه نحو تسع سنين.

فى هذا الوقت كانت مدينة ماردة هادئة لحسن ادارة واليها عبد الرءوف فإنه كان يشغل ذوى البطالة بأعمال تكسبهم أرزاقهم ويطارد الشاردين ويقيم الشرطة والعَسَس لاتقاء شر اجتماع المفسدين الذين لا يرون لهم الصيد إلا فى الماء العكر

(١) وقيل: أمية بن الحكم وسيأتى أن الوليد بن الحكم يحاصر طليطلة أيضا

وأحراسًا تحفظ المدينة من الطوارئ فبينما عبد الرءوف يوطّد دعائم السلام فى المدينة إذ جاءَه أمر الأمير بالتوجّه إلى حصار طليطلة إذ قد مرّت ثلاث سنين وقادة الأمير لم يحلوا بطائل من ثائريها إلى أن جاءت سنة ٢١٧ (٨٣٢) ففيها أمكن أميّة أن يحدق بهم بواسطة كمين أكمنه لهم على شواطئ نهر البرش وأن يفتك بهم فتكا ذريعا حتى كاد يستأصلهم قتلا وألجأ من قدّر الله نجاته منهم إلى المدينة وفى السنة التالية حضر من ماردة عبد الرءوف يقود قوّة عظيمة فقاتل ثوّار طليطلة وانتصر عليهم إلا أنه لم يجن ثمر انتصاره.

بعد أن فارق عبد الرءوف ماردة عاد الناقمون من الحكومة إلى الثورة ودعوا محمد بن عبد الجبّار وشيعته إلى المدينة فدخلوها وهجموا على الحرس ونهبوا مخازن الأسلحة وقتلوا قائدين، ولما بلغ الأمير أمرهم أمر قوّاد تلك الكورة أن يحشدوا الجنود ويذهبوا إلى ماردة ثم حضر الأمير نفسه وحرسه وقابل القواد والجنود المحشودة فى مكان يسمى بعين الكبوش فأمر القوّاد بأن ينبهوا جنودهم إلى أن من يحاربونهم هم أناس من دينهم فمن يهرب منهم أو يخضع لا يُعَدّ عدوا فلا يُمَسّ بأذى بل يكفى نزع سلاحه منه وأن القصاص لا يحلّ إلا على زعماء الثورة الذين الجئوا أهل المدينة إلى حمل السلاح.

لما وصل الأمير وجنوده إلى ضاحية ماردة أراد أن لا يدخلها سافكا الدماءَ فأمر كل جندى أن يعلّق فى سهمه رقعة يكتب فيها «أن الأمير يعفو عن الثائرين إذا فتحوا أبواب المدينة ما عدا زعماء الثورة» وأن يقذفوا بالسهام إلى المدينة ففعل الجنود ما أمروا به فلما قرأ الثائرون والمخلصون للأمير هذه الرقاع فتحوا أبواب المدينة وقد فرّ زعماء الثورة وفيهم محمود بن عبد الجبّار فدخلها بحرسه وقابله الأهلون بالفرح والسرور.

وأقام أيامًا أمر فيها والى الكورة المسمى عبد الله بن كليب بإصلاح القلاع والأسوار وقد أشار بعضهم على الأمير بهدمها لئلا يعود السكان إلى العصيان فلم يكترث الأمير بإشارته ووضع فى القلعة الأصلية رقعة كتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم هب بركتك ووقايتك أمة أطاعتك:

بَنى هذه القلعة وأسوارها فى عهد ما كان الأمير بن الحكم (أيده الله) يحكم أمة تطيع الله عاملُه عبد الله بن كليب بن ثعلبة وخادمه جعفر بن محسن رئيس البنائين فى ربيع الثانى سنة ٢٢٠ (٨٣٥)[١] ومع هذا ما زالت نار الحرب مستعرة فى طليطلة ثلاث سنين أخرى وحصارها شديد والثائرون يدافعون عنها بثبات غريب إلى أن ألجأهم الجوع إلى الخروج من المدينة لقتال جيوش ميسرة وعبد الرءوف فسقط هاشم زعيم الثورة جريحا فجىء به إلى عبد الرءوف فقتله فى الحال ودخل المدينة سنة ٢٢٣ (٨٣٨) وأعلن الأمان العام بناء على أمر جاءه من الأمير وأخذ يصلح ما أفسدته أيدى الحدثان ويوطّد دعائم السلام وقد قلّده الأمير ولاية المدينة ودعا ميسرة إلى قرطبة واتخذه وزيرا[٢].

روى المؤرخون حوادث ماردة وطليطلة بروايات مختلفة لا تخلو من التناقض.

جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢١٣ أن أهل ماردة قتلوا عاملهم فثارت الفتنة عندهم فسيّر إليهم عبد الرحمن جيشًا فحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعاودوا الطاعة وأُخذت رهائنهم وعاد الجيش بعد أن خرَّب سور المدينة ثم أرسل عبد الرحمن إليهم بنقل حجارة السور إلى النهر لئلا يطمع أهلها فى عمارته فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان واسروا العامل عليهم وجدّدوا بناء السور واتقنوه فلما دخلت سنة ٢١٤ سار الأمير فى جيوشه إلى ماردة ومعه رهائن أهلها فلما بارزها راسله أهلها وافتكوا رهائنهم بالعامل الذى اسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدهم ورحل عنهم ثم سيّر إليهم جيشا سنة ٢١٧ فحصروها وضيقوا عليها ودام الحصار ثم رحلوا عنها، فلما دخلت سنة ٢١٨ سير إليها جيشًا

(١) كندى ورومى.

(٢) كندى ورومى.

ففتحها وفارقها أهل الشر والفساد وكان منهم محمود بن عبد الجبار فحصره عبد الرحمن فى جمع كثير من الجند وصدقوه القتال فهزموه وقتلوا كثيرا من رجاله وتبعتهم الخيل فى الجبل فأفنوهم قتلا واسرا وتشريدا ومضى محمود فيمن سلم معه من أصحابه إلى (منت سالوط) فسير إليه عبد الرحمن جيشًا سنة ٢٢٠ فهرب فجدّت سرية فى طلبه فهزمها وغنم ما معها ومضى لوجهته وقابلته سرية أخرى فنال منها ما نال من سابقتها وسار حتى وصل إلى بلاد المشركين واستولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام حتى حصره أذفونش ملك الفرنج (الجلالقة) فملك الحصن وقتل محمودا ومن معه سنة ٢٢٥.

وفى حوادث سنة ٢١٤ أن هاشما الضرّاب خالف بمدينة طليطلة وكان ممن خرج منها لما أوقع الحكم بأهلها فسار إلى قرطبة ثم عاد فاجتمع إليه أهل الشر فأغار على البربر فاشتدت شوكته واجتمع له جمع عظيم وأوقع بأهل ستتبريه وكان بينه وبين البربر وقعات كثيرة فسير إليه عبد الرحمن جيشا فقاتله فلم يستظهر أحد الفريقين على الآخر فسيّر إليه عبد الرحمن جيشا كثيفا سنة ٢١٦ فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا فاشتدت الحرب بينهم ودامت عدة أيام ثم انهزم هاشم وقتل هو وكثير ممن معه من أهل الطمع والشر وطالبى الفتن وكفى الله الناس شرّهم (واستمر أهل طليطلة على الخلاف).

وفى حوادث سنة ٢١٩ أن عبد الرحمن سيّر جيشا مع أمية بن الحكم إلى طليطلة فحصرها وكان أهلها قد خرجوا عن الطاعة فقطع أشجارهم وأهلك زروعهم فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وانزل بقلعة رباح جيشا عليهم ميسرة الفتى فلما أبعد خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون غفلة من ميسرة فينالون منه ومن أصحابه غرضا وكان ميسرة قد بلغه الخبر فجعل الكمين فى مواضع فلما وصل أهل طليطلة إلى قلعة رباح للغارة خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السيف فيهم واكثروا القتل وعاد من سلم منهم منهزما إلى

طليطلة وجمعت رءوس القتلى إلى ميسرة فلما رأى كثرتها عظمت عليه وارتاع لذلك ووجد فى نفسه غما شديدا فمات بعد أيام يسيرة وفيها أيضا كان بطليطلة فتنة كبيرة تعرف بملحمة العراس قتل من أهلها كثير.

وفى حوادث ٢٢٠ «سيّر عبد الرحمن ملك الاندلس جيشا إلى طليطلة فقاتلوها فلم يظفروا بها».

وفى حوادث ٢٢٢ أن جماعة من أهل طليطلة خرجوا سنة ٢٢١ إلى قلعة رباح وكان بها عسكر لعبد الرحمن فاجتمعوا كلهم على حصر طليطلة وضيقوا عليها وعلى أهلها وقطعوا عنهم باقى مرافقهم إلى أن دخلت سنة ٢٢٢ فسيّر عبد الرحمن أخاه الوليد، فرأى أهلها وقد بلغ بهم الجهد كل مبلغ واشتد عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال فافتتحها قهرا وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب وأمر بتجديد القصر على باب الحصن الذى كان هدم أيام الحكم وأقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ حتى استقرّت قواعد أهلها وسكنوا.

وجاء فى دوزى ما ترجمته، كادت الثورات لا تنقطع فى مدينة ماردة فإن نصاراها كان بينهم وبين لويس ملك الفرنج تراسل واستمر عصيان طليطلة عدة سنين فإن الطليطليين بعد سنين قلائل منذ يوم الحفرة حصلوا على استقلالهم وهدموا قصر عمروس فاحتال الحكم على أخذ المدينة فأظهر أنه يريد غزو قطالونيا فتوجه إلى مرسية وخيم بها معسكره ولما أبلغته عيونه أن الطليطليين يظنون الآن أنهم بعيدون عن تهديد الأمير حتى إنهم يهملون إيصاد أبواب المدينة ليلا نهض مسرعا إليها حتى جاءها ودخلها وهم غافلون فملكها بدون قتال وأحرق منازل القسم المرتفع منها وكان من بين هذه المنازل منزل شاب يسمى هاشما فجاء قرطبة وهو معدم فاشتغل بالحدادة ثم عاد إلى طليطلة وفؤاده مشتعل بحب الانتقام فكوّن له عصابة تمكن بها من طرد جند عبد الرحمن وشيعته (٨٢٩) وأخذ يجوب البلاد ينهب ويحرق قرى العرب والبربر حتى استفحل أمره وقويت

عصابته فأمر عبد الرحمن محمد بن بسيم محافظ الحدّ أن يقمع هؤلاء المفسدين فلم يحل بطائل منهم واستمر هاشم سنة كاملة يعثو فى البلاد فسادا بدون أن يناله قصاص إلى أن جاء المدد إلى محمد ولامه الأمير على تراخيه فهاجم الأشرار وكان له الغلب عليهم بعد معركة دامت أيامًا قتل فيها زعيمهم وتفرقوا ومع هذا استمرت طليطلة على استقلالها إلى أن جاءت سنة ٨٣٤ فأرسل إليها عبد الرحمن ابنه أميّة فحاصرها ولكن الطليطليين نجحوا فى صدّ هجماته على المدينة فاضطر إلى رفع الحصار عنها والعود إلى قرطبة، فلما رأى الطليطليّون تباعد جيش العدو عنهم عزموا على أن يتحرشوا به ولكن أمية ترك فى قلعة رباح جيشًا تحت إمرة ميسرة فلما علم هذا بمقصد الطليطليين أكمن لهم كمينا فلما جاءوا أحدق بهم الكمين واثخن فيهم حتى قتل منهم كثيرا وقدم العسكر رءوس القتلى إلى قائدهم فارتاع من رؤيتها وحزن على أبناء أمته ومات بعد أيام، فإن ميسرة هذا كان من الأسبان الذين ارتدوا عن النصرانية (كهاشم).

لما اتحدت كلمة الطليطليين أمكنهم أن يحافظوا على استقلالهم بضع سنين وإن كان الأمير فى خلالها أنزل بهم الكوارث فلما زال الوفاق من بينهم سهل على الأمير قنصهم، لا ندرى ما الذى حصل فى المدينة ولكن الحوادث التى طرأت فيها بعد حملتنا على الظن بوقوع الخلف بين مسلميها الاسبان والنصارى فإن رئيسا يسمى ابن مهاجر[1] ترك المدينة هو وحزبه سنة ٨٣٦ قاصدين قلعة رباح لينضموا إلى قائدها ويساعدوه على فتح المدينة واتفقوا جميعًا على أن يضيقوا دائرة الحصار عليها ويمنعوا عنها الميرة، فحاصرها الوليد بن الحكم سنة حتى أضرها الجوع وجاء أهلها رسول من قبل القائد ينصحهم بأن يسلموا طوعا ويغتنموا وقتًا يخوّل لهم وضع شروط للتسليم وإلاّ عما قريب يسلمون كرها، فرفضوا وعاد

(١) يظهر أنه من الفريق الأول.

الرسول وأخبر الوليد بضعفهم وحالتهم السيئة وأعجله على الهجوم عليهم بشدة فهجم فسقطت المدينة فى ١٦ يونيه سنة ٨٣٧ بعد أن استقلت نحو ثمانى سنين.

يؤخذ من رومى أنه بعد أخذ طليطلة بقليل أخذ العرب يقاتلون نصارى الشمال فإن هؤلاء آووا العاصى محمد بن عبد الجبار عند نكبته الأولى وربما مدّوا إليه يد المساعدة فى ثورة ماردة الأخيرة، فكان هذا سببا فى الحرب فقد أغار جنود ماردة وبطليوس واشبونه (لسبونة) سنة ٨٣٨ على أرض جليقية وحاربوا ملكها أذفونش فكان الفوز لهم وقيل كان الفوز له[1] ومهما يكن من الأمر فإن محمد بن عبد الجبار فرّ من انتقام عبد الرحمن فآواه أذفونش واسكنه ورفقاءه جليقية فى أرض قريبة من مدينة (لوغو LUGO) فما كان من النزيل بعد إقامته ثمانى سنين إلا أن رأى فى استطاعته أن يثور على من أكرم مثواه ويؤسّس إمارة مستقلة فى جليقية، وأما التحالف السرّى الذى يتوهم حصوله بين عبد الرحمن وابن عبد الجبار على أذفونش فيجب أن يدرج فى عداد الخرافات التاريخية التى كثرت فى التواريخ الاسبانية الجديدة، فابتدأ ابن عبد الجبار منازعاته بالاستيلاء على قصر (سنت كرستين SAINTECHRISTINE) على بعد فرسخين من لوغو وتحصن فيه وكان يأمل أن يكون حصنا يستطيع منه أن يستولى على البلاد ـ هنا يغالى المؤرخون الاسبانيون فى عدد جيشه فيقولون: إنه يبلغ ٥٠ ألفا ويقصون علينا مع العجب انتصار أذفونش على هذا العدد الكثير والذى يظهر أنه حقيقى (أن أذفونش لما بلغه قيام ابن عبد الجبار جاءه وهاجمه وغلبه وقتله واستولى على حصنه).

وفى هذه الاثناء ابتدأت الحرب فى إقليم (قوطيه GOTHIE) الشامل أرض سبتمانيا وكورة برشلونه وقد ساعدت الظروف جيش الأمير فانتصر وذلك أنه فى سنة ٢٢٤ (٨٣٨) أمر الأمير عبد الرحمن والى سرقسطة أن يجمع الجنود من

(١) فى كندى أن أهل ماردة وبطليوس واشبونه خربوا مدائن جليقية وحاربوا ملكها أذفونش.

اسبانيا الشرقية ويسرع بها إلى أرض الفرنج فشن عبيد الله بن عبد الله البلنسى[١] وابن عبد الكريم الغارات على هذا الإقليم مدة سنتين بجيوش جرّارة، وأغار موسى والى تطيلة على سردانيا وأنزل بها النوائب، وقامت سفن عربية من طرجونه وأمدتها سفن أخرى خرجت من موانئ جزائر (ميورقه) واتجهت كلها إلى شواطئ (مرسليا) ونهبت ضواحيها واستولت على كثير من خيراتها وأسرت كثيرا من أهلها[٢]، فى هذا الوقت جاء قرطبة من القسطنطينية سفراء من قبل ملك الروم (تيوفيل THÉOPHILE) يطلبون المساعدة على المعتصم خليفة الشرق فاستقبلهم الأمير بصدر رحيب وأكرم مثواهم وكتب إلى الملك يخبره أنه متى خلص من الحروب الداخلية يرسل إليه سفنه لتساعده ثم غمرهم بالعطايا وصرفهم.

يذكر مؤرخو الإفرنج أن وفدا جاء قبيل ذلك الزمن من قبل المأمون إلى لويس ملك الفرنج بهدية من المنسوجات والعطور.

وفى سنة ٨٤٠ للميلاد مات لويس ملك الافرنج فى المانيا وعقب موته انفجر الشجار بين ولديه (پپن PEPIN) و (كرلوس CHARLES) ويظهر أن كونت برشلونه المسمى (برنار) دخل فى حزب الأول سرّا وساعده على أن يستقل فى إمارته عن أخيه، وقد علم هذا بذلك فدعا (الكونت) إليه بعد أن عقد الجمعية العمومية فى (طلوشه) وقتله بيده[٣] فقام غليوم بن برنار لينتقم من قاتل والده وكان له حزب كبير فهجم أوّلا على (ألدرام ALDERAM) كونت برشلونه الذى عيّنه الملك خلف أبيه وليتحقق من نجاح ثورته دعا أمير قرطبة إلى مساعدته وكان يقاتل باسم (پپن) المعزول فلبى الأمير دعوته وثارت (البشكنس) على كرلوس

(١) يظهر أنه ابن البلنسى كان والى سرقسطة.

(٢) يظهر أن الغرض من هذه الحروب كان يرمى إلى كسب الأموال أكثر من فتح البلاد فإن الضرورة كانت تدفع العرب من وقت إلى آخر فى ظروف معينة إلى أن يدّخروا النفقات لقتال أعدائهم المجاورين.

(٣) انظر رومى صحيفة ٤٧٣ ج ٣.

أيضا فاتقدت نيران الثورات بين برشلونه وبنبلونه (أى فى إقليم قطالونيا) فى السنة الخامسة والأربعين من القرن التاسع الميلادى وجاءت جيوش الأمير بناء على دعوة غليوم ودخلت فى غمار هذه الثورات التى استمرت إلى سنة ٨٤٧ فإن الصلح عقد فى هذه السنة بين الملك كرلوس والأمير عبد الرحمن واعقب ذلك خمود نار القتال، ومع هذا قد استولى غليوم على برشلونه وأمبرياس سنة ٨٤٨ ولكن لم تدم مدة حكمه فإن أحزاب (ألدرام) قاموا فى السنة التالية على غليوم وقتلوه وأعادوا الولاية إلى زعميهم.

قلنا إن جيوش الأمير دخلت فى غمار الثورات فى قطالونيا ولزيادة البيان نقول: إن جيشين من المسلمين اجتازا نهر (ابره) أحدهما تحت قيادة والى سرقسطة ابن البلنسى وقد أغار على الأقاليم السفلى من جبال البرانس واستولى على قلاع كثيرة والآخر تحت إمرة عبد الكريم وقد اتجه نحو برشلونه وأحدق بها وكان بها كثير من اليهود فساعدوا الجيش على تسليمها واقتفى الجيشان آثار اعدائهما فى مضايق الجبال حتى أرض الفرنج قال رومى: ما كان يتوقع أن تخرج برشلونه من قبضة المسلمين بعد هذه المرة: ولكن دل تاريخ الفرنج فيما بعد على أنها عادت إلى حكمهم.

واقول: يظهر أن السياسة قضت على الأمير عبد الرحمن بأن يقبل محالفة غليوم على أن يكون هذا والى برشلونه تابعا لإمارة الاندلس وأن المسلمين بعد أخذها هذه المرة سلموا مقاليدها لحليفهم وأن الصلح بين العرب والفرنج عقد على ذلك، لكن كرلوس أوعز إلى حزب (الدرام) أن يقتلوا غليوم ويستردوا المدينة ونشأ عن هذا فسخ عقد الصلح بين العرب والفرنج سنة ٨٥٠ (٢٣٦) قال ابن الأثير فى حوادث ٢٣٦: «غزا جيش بالاندلس بلاد برشلونة فقتلوا من أهلها فاكثروا واسروا جمّا غفيرا وغنموا وعادوا سالمين».

وفى أثناء ما كانت رحى الحرب دائرة فى إقليم (قوطيّة) كان اسطول الأمير

يجدد غاراته على ولاية (پرفنسا PROVENCE)[١] فنهب وأحرق ضواحى مرسليا الجنوبية ويظهر أنه اكتفى بذلك بدون أن يحتل البلاد التى دخلها، ارتجفت أوروبا من فوز جنود العرب فى إقليم (قوطيّة) ومن نجاح اساطيلهم فى غاراتها على جزائر وشواطئ (الغال) الجنوبية وقد اتسعت دائرة هذه الاساطيل فى تلك الأيام وكثر الخوف من اعتدائها، فاخترق بعضها غير مرة بحر الادرياتيك وبحر الشاك واجترأت إحدى سفائنهم مرة على اجتياز رأس (كورونيه COROGNE)[٢] وشقت عباب المحيط المظلم حتى دخلت جزيرة (أويّة OYE) من برطانيه عند مصب نهر اللوار وهددتها وما تقهقرت إلا من فزع لا يعلم سببه فينتج من ذلك أن مسلمى الاندلس كان لهم السيادة على البحر المتوسط[٣].

ساقتنا حوادث العرب والفرنج إلى سنة ٨٥٠ ولكن نرجع إلى الوراء لنذكر ما فاتنا من الحوادث الأخرى فنقول:

فى سنة ٢٢٩ (٨٤٣) جاء على شواطئ اشبونه أربع وخمسون سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البلطيق وشواطئ النروج يُعرفون عند الاوروبيين بالنورمان NORMANS OU NORMANDS OU NORTHMEN أى رجال الشمال ويعرفون عند العرب بالماجوج[٤]، وكتب التاريخ العربية فى هذا الموضع تحرف اللفظ إلى (مجوس)[٥] فنهبوا البلاد وقتلوا العباد وأحرقوا المدائن فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا ليدفعوا غائلتهم فرأوهم ركبوا السفن بغنائمهم واختفوا ثم نزلوا فى شاطئ (الغرب ALGARVE) ويظهر أنهم لما اجتمعوا عند

(١) بروفنسا ولاية قديمة فى الجنوب الشرقى لفرنسا حاصرتها (اكس AIX).
(٢) فى الشمالى الغربى من اسبانيا.
(٣) رومى ص ٤٧٧ و ٤٧٨ ج ٣.
(٤) جاء فى كتب التفسير أن بعض أحبار اليهود ذكر أن يأجوج ومأجوج فى منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه.
(٥) يبعد أن يكون المراد عبدة النار.

مصب النهر الكبير انقسموا أقساما: قسم توجه إلى أفريقية وقسم تقدم إلى قادس ثم إلى شدونة والقسم الثالث دخل النهر وصعد نحو اشبيلية فى ٨ المحرم سنة ٢٣٠ (٢٥ سبتمبر سنة ٨٤٤) وكانوا ينبهون القرى التى على الشاطئين ويملئون سفنهم بالنهاب، وقد ملئوا سكان الشواطئ رعبًا حتى فرّوا من وجوههم، ولما وصلوا إلى جزيرة قبطيل[١] قابلتهم جنود العرب المجتمعة هناك وحاربتهم فغلبوها ثم نهبوا اشبيلية وكان السكان قد اخلوها وفرّوا إلى قرمونه وتحصنوا فى طليطلة[٢] فلما جاء الماجوج إليهم غلبهم مسلمو هذه المدينة وفى ثانى عشر هذا الشهر علموا أن الأمير أرسل خمس عشرة سفينة تقل جيوشا شجعانا لتصدّهم عن المرور فى النهر، فانسحبوا واختفوا فى المحيط وعادوا إلى شواطئ المغرب وقد أمر عبد الرحمن جنود ماردة وشنترين وقلمرية بالتوجه لمراقبتهم والمحافظة على السواحل، ولكنهم كانوا فعلوا أفاعيلهم قبل أن تجتمع هذه الجنود.

فى هذه الأثناء أخذ عبد الرحمن فى السير وتحت إمرته فرسانه ليساعدوا اشبيلية فلما حضر وشاهد ما اتلفته أيدى هؤلاء البربر المتوحشين بدون أن يقابل منهم أحداً حزن وأمر بإصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف (كذا يؤخذ من كندى ورومى).

وفى تاريخ ابن الأثير أن عسكر الأمير قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم وسير الأمير جيشا آخر وأتاه المدد من كل ناحية فخرج إليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون ينهزمون ثم ثبتوا وهزموا مقاتليهم إلى مراكبهم وقتلوا منهم خمسمائة رجل وأخذوا منهم أربعة مراكب وأحرقوها بعد أن أخذوا ما فيها، ثم خرج المجوس إلى لَبْلَةَ فأصابوا سبيا ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) قسموا ما كان معهم من الغنيمة فحمى المسلمون ودخلوا

(١) هكذا اللفظ فى تاريخ ابن عذارى وفى التواريخ الأفرنجية CABTAL.

(٢) فى معجم ياقوت طليطلة ناحية بالاندلس من أعمال استجة قريبة من قرطبة.

إليهم فى النهر وقتلوا منهم رجلين ثم رحل المجوس فطرقوا شدونه فغنموا أطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن إلى اشبيلية فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبله فأغاروا وسبوا ثم لحقوا باكشونيه ثم مضوا إلى باجه ثم انتقلوا إلى اشبونه ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد. اهـ.

واتقاء بما يطرأ من قبيل هذه الحوادث أمر الأمير بإنشاء سفائن فى قادس وقرطاجنه وطرجونه لتحفظ الشواطئ وناط ذلك بابنه يعقوب وأمر أن ينشأ فى كل نقطة حربية محل للبريد يرأسه قائد ويتبعه فرسان ينقلون أوامر ومراسيم الحكومة بسرعة.

وجاء فى المقرى وابن عذارى أن الأمير بعث فى سنة ٢٣١ عساكره تحت امرة ابنه محمد إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعا فثلموا منه ثلمة ورجعوا.

وجاء فى المقرى أن الأمير اغزى حاجبه عبد الكريم فى العساكر إلى بلاد برشلونه فعاث فى نواحيها واجتاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوخها قتلا واسرا وسبيا وحاصر مدينتها العظمى جرنده وعاث فى نواحيها وقفل[١].

وفى سنة ٢٣٢ أصاب الاندلس جدب عَقَم أرضها عن إنبات القمح والشعير وأيبس الكروم والأشجار المثمرة وأهلك الناس والدواب ظمأ وفوق ذلك البلاء المبين حلّ بأرضها جراد، جردها من الزرع فاشتدت المجاعة وحتى اضطرت عددا عظيما من الاندلسيين أن يهاجروا إلى أفريقية فإن وسق[٢] الحنطة كان يباع

(١) هذه الغزوة هى عين الغزوة التى وقعت عقب دعوة غليوم للأمير عبد الرحمن كما سبق فإن سنة ٢٣١ توافق ٨٤٥ فتنبه.

(٢) الوسق حمل بعير وقيل: ستون صاعا.

فى المغرب بثلاثة دراهم ودام هذا الحال إلى السنة التالية حتى اعفى الأمير الناس من العشور التى كانوا يؤدونها كل سنة وفتح للفقراء أبواب العمل والكسب ليقتاتوا من أجورهم، فقد شغلهم ببناء مساجد ومدارس وقصور وحدائق فى مدائن اسبانيا وببناء رصيف النهر فى قرطبة وبإنشاء حياض ماء مرمرية فوقه للسقاية وبعمل سقائف فوق الرصيف وبوضع أنابيب رصاص ليجرى فيها الماء من الجبال إلى المدن[١]، وغير ذلك من الأعمال النافعة وقد بلغت قرطبة فى عهد عبد الرحمن مبلغا من الحضارة والعظمة لم يعهد من قبل.

وفى سنة ٢٣٤ وجّه الأمير ثلاثمائة سفينة تقل الجنود إلى غزو أهل جزيرة ميورقة لنقضهم العهد واضرارهم بسفن المسلمين التى كانت تمر بهم ففتحوا أكثر جزائرهم[٢].

وفى سنة ٢٣٥ ورد إلى الأمير كتاب من أهل ميورقه ومنورقه يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين فكتب إليهم كتابا منه: (أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم وإصابتهم ما أصابوه منكم من أرزاقكم وأموالكم والمبلغ الذى بلغوه فيكم وما أشفيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكروههم والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ويمنعكم عن العود إلى مثل الذى كنتم عليه وقد أعطيناكم عهد الله وذمته[٣].

وفى سنة ٨٥٠ للميلاد مات (رامير)[٤] ملك استوريا وخلفه ابنه (اردن) ولم يحدث موته انقلابا فى سياسة الصلح الذى كان بين المسلمين ونصارى الشمال.

(١) كندى.
(٢) كندى.
(٣) كندى.
(٤) رومى ويسميه ابن الأثير ردمير.

وفى سنة ٢٣٧ ادعى النبوة رجل من المعلمين بشرق الاندلس وتأول القرآن على غير تأويله فتبعه فريق من الغوغاء وكان من شرائعه النهى عن قص الشعر وتقليم الأظافر فبعث إليه يحيى بن خالد عامل ذلك البلد فأتى به وكان أول ما خاطبه به أن دعاه إلى اتباعه فأمره العامل بالتوبة فامتنع فصلبه[١].

وفى سنة ٢٣٨ توفى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر[٢] فتكون مدة حكمه إحدى وثلاثين سنة قمرية وثلاث أشهر وستة أيام.

ذنابات:

الأولى: يصفه بعض المؤرخين بأنه كان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب الماء إليها، وجعل له مصنعا اتخذه الناس شريعة وزاد فى جامع قرطبة رواقين ومات قبل أن يتمه فاتمه ابنه محمد بعده وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة.

الثانية: ذكر بعضهم أن وزراءه كانوا تسعة رِزق كل واحد منهم ثلاثمائة دينار كل شهر وقضاته أحد عشر وأن عدد أولاده بلغ ٤٥ من الذكور و٤١ من الإناث وأن مال الجباية انتهى فى أيامه إلى ألف ألف فى السنة وكان قبل لا يزيد عن ستمائة

---

(١) عن ابن الأثير وابن عذارى.

(٢) اتفق ابن الأثير وابن خلدون والمقرى وابن عذارى على أن وفاة عبد الرحمن بن الحكم فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ وعين الأخير ليلة الوفاة وزاد المقرى أن مولده بطليطلة فى شعبان سنة ١٧٦ فعلى هذا لم يتم السنة الثانية والستين ويقول كندى ورومى: إنه مات فى آخر يوم من صفر سنة ٢٣٨ (١٩) أغسطس سنة ٨٥٢ وأنه عاش ٦٥ سنة وثلاثة أشهر (يقول كندى و٣ أيام ورومى و٦ أيام) ويقول كندى: إن مدة حكمه ٣١ سنة و٣ أشهر و٦ أيام ويقول رومى: إن هذه المدة تتجاوز ٣١ سنة بقليل وكلامهما هنا لا يلتئم مع ما سبق لهما من أن عبد الرحمن يوم التولية كان ابن ٣١ سنة و٣ أشهر و٦ أيام كما لا يخفى على الحاسب.

ألف[١] وكان يجتمع فى مجلسه العلماء والشعراء ويفضل من بينهم عبد الله بن شمر ويحيى الغزال الذى سافر إلى القسطنطينية واختلط بملوك الروم وعرف عاداتهم وآدابهم.

الثالثة: ممن كان له حظوة وجاه عند الأمير عبد الرحمن الفقيه يحيى بن يحيى الليثى والمغنّى على بن نافع الملقب بزرياب والأميرة طروب ونصر الخصى.

فالفقيه يحيى رجل من الاندلس إلى الشرق وروى الموطّأ عن مالك بن أنس يحكى أنه بينما هو فى مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل: حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له ما لك: مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك فقال: إنما جئت من الاندلس لأنظر إليك وأتعلم من هَديك وعلمك ولم أكن لأنظر الفيل، فأُعجِب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس ـ ولما عاد إلى الاندلس نشر مذهب مالك فى تلك الديار وكان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة وكان لا يلى قاض فى أقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زيدا فى جلالته وكان ممن اتهم بالتهيج فى وقعة الربَض المشهورة ففر إلى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير أمانا وانصرف إلى قرطبة وعاش فى زمن إمارة عبد الرحمن إلى أن مات سنة ٢٣٤.

والمغنى زرياب وفد على الاندلس من الشرق وكان تلميذا لإسحاق الموصلى ببغداد ويحكى أن الرشيد طلب من إسحاق مغنيا غريبا مجيدا للصنعة فذكر له تلميذه هذا وقال: إنه مولى لكم وسمعت له نزعات حسنة ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس وأحدس أن يكون له شأن، فقال الرشيد هذا طلبى فأحضرنيه فأحضره فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أحسن منه ما يحسنه الناس واكثر ما أحسنه لا

(١) هذا لا يخلو من نظر فحقق.

يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلاَّ لك فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه إذن قبلك فأمره بالغناء فأخذ العود وغناه.

يأيها الملك الميمون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة وطار الرشيد طربا وهاج إسحاق من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب بعد الانصراف من مجلس الخليفة وقال: يا على إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها والدنيا فتانة والشركة فى الصناعة عداوة وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى وهذا ما لا أصاحبك عليه فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ـ وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلىّ فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقى عليك ولا ادع اغتيالك باذلا فى ذلك بدنى ومالى فاقض قضاءك ـ فاختار زرياب الرحيل وأعانه إسحاق على ذلك سريعا وراش جناحه فرحل ومضى إلى المغرب ـ وأمَّ أميرَ الأندلس الحكم وكتب إليه يسأله الإذن فى الوصول إليه ويعلمه بمكانه من الصناعة، فسر الحكم بكتابه وأرسل فى طلبه فسار زرياب نحوه بعياله وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدوة فكان معه منصور اليهودى المغنى رسول الحكم إليه فثناه عن ذلك ورغبه فى قصد القائم مقام الحكم وهو عبد الرحمن ولده وكتب إلى هذا بخبر زرياب فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومه عليه وكتب إلى عُمَّاله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيّا من أكبر خصيانه أن يتلقاه ببغال وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلا وانزله فى دار من أحسن الدور وحمل إليها جميع ما تحتاج إليه وبعد ثلاثة أيام استدعاه وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا وأن يجرى على

بنيه الأربعة عشرون دينارا لكل واحد منهم كل شهر وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار منها لكل عيد ألف دينار ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مُدى[١] ثلثاها شعير وثلثها قمح وأقطعه من دور قرطبة وبساتينها وضياعها ما يقوَّم بأربعين ألف دينار.

ثم استدعاه وسمع غناءه فاستهواه واطرح كل غناء سواه وأحبه حبا شديدا وقدمه على جميع المغنين وذاكره فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء فحرك منه بحرا زخر عليه مدّه فأعجب الأمير به وراقه ما أورده وكان زرياب عالما بالنجوم وتقويم البلدان حافظًا لعشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها.

وقد جمع إلى خصاله هذه كثيرا من ضروب الظروف وفنون الأدب ولطف المعاشرة وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يحوه أحد من أهل صناعتة حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه واستحسنه من اطعمته فمن ذلك أنه دخل إلى الاندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جُمَّته مفروقًا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين، فلما عاينوا تحديقه هو وولده ونساؤه لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها إلى آذانهم واسدالها إلى اصداغهم هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه، وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الاسفراج ASPERGE ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله، واخترع لهم بعض ألوان من الأطعمة لا تزال منسوبة إليه ومما أخذوه عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة وايثاره فرش انطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان واختياره سُفَر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة ولبسه كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به وخلف أولادا فخلفه كبيرهم فى صناعته وحظوته.

(١) المدى كقفل مكيال يسع تسعة عشر صاعا وهو غير المد الذى هو ربع صاع.

وأما الأميرة طروب فهى إحدى حظيات الأمير وكان يحبها حبا جما يحكى أنه أغضبها فهجرته ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأمر بسد باب المقصورة من خارجه ببدر المال وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على أن لها جميع ما سدّ به الباب فأجابت وفتحته فانهالت البدر فى بيتها واكبّت على رجل الأمير تقبلها وحازت المال[١].

وأما نصر الخصى فكان اسبانيّا قائما بشئون القصر (على ما يظهر) يحكى أن طروب ارادت أن يخلص مُلك اسبانيا لابنها عبد الله بعد أبيه الأمير عبد الرحمن مع أن ابنه محمدا كان ولى عهده، فأطلعت نصراً على سرها فوعدها بما يشفى فؤادها ونوى أن يسمّ الأمير وولى عهده وطلب من الطبيب أن يدس السمّ فى دواء يطلبه الأمير ويعطيه ألف دينار ففعل، ولكنه أوعز إلى السلطان مع قهرمانة القصر ألا يشرب الدواء فإن نصرا أكرهه على اذابة السمّ فيه وباكر نصر القصر ودخل على سيده يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه وقال له: إن نفسى قد بشعته فاشربه أنت فوجم فأقسم عليه فلم تسعه مخالفته فشربه وركب مسرعا إلى داره فهلك لحينه[٢] سنة ٢٣٦.

٥- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم:

من سنة ٢٣٨ إلى ٢٧٣ (DE 852 A 886)

بعد وفاة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم خلفه ابنه محمد أبو عبد الله، بويع يوم الخميس لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ للهجرة[٣] وكان ابن ثلاثين

(١) المقرى.

(٢) ابن خلدون.

(٣) ابن عذارى ويؤيد هذا ما سبق من أن وفاة عبد الرحمن ابن الحكم كانت ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ ويقول كندى ورومى: أعلنت إمارته فى قرطبة فى اليوم السادس من ربيع الأول ٢٦ أغسطس سنة ٨٥٢.

سنة وأشهر، وكان الناس يأملون فى حكمه مستقبلا سعيدا لما امتاز به من الخلال الحميدة، فقد تحلى منذ نشأته بالعدل والإنسانية والشجاعة مع استعداد فائق وعلم واسع مكتسب[١]، فى الأشهر الأولى من حكمه قام نزاع بين فقهاء قرطبة والحافظ أبى عبد الرحمن بقىّ بن مخلد فإنه كان تلقى فى المشرق مذهب الإمام أحمد بن حنبل على أشهر علمائه، ولما قدم الأندلس علّم فى جامع قرطبة مصنف أبى بكر بن أبى شيبة فى أصول المذهب فقام عليه مدرسو مذهب مالك الذى كان كثير الانتشار فى اسبانيا وشكوا منه إلى الأمير فاستحضرهم وإياه وتناظروا فى حضرته فحكم بأن الفروق فى المذهب الحنبلى لا تخالف روح الشريعة ولا تغاير السنة بل إن فيه أصولا شريفة نافعة لها مساس بحوادث الإنسان فى ذلك الزمان ونهى الأمير خصوم بقىّ عن أن يتعرضوا له وأذن بتعليم مذهبه فمن ذلك الوقت أخذت تتسع دائرة مذهب أحمد بن حنبل[٢].

فى سنة ولايته ثار عليه أهل طليطلة وحبسوا العامل عندهم حتى أطلقت رهائنهم من قرطبة فاطلقوه وفى السنة التالية (٢٣٩) بعث العساكر مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح وكان أهل طليطلة خربوا سورها وقتلوا كثيراً من أهلها فرم السور وأصلح حال القلعة ورد إليها من هجرها وتقدم إلى طليطلة فعاث فى نواحيها

(١) كندى.

(٢) كندى وروى وجاء فى نفح الطيب (ج٢ ص٥٨٩) ما ملخصه:
ارتحل من الأندلس إلى المشرق بقى بن مخلد أبو عبد الله القرطبى وأخذ العلم عن كبار العلماء وعنى بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وكان إماما حافظا صادقا قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتى بالأثر قال ابن حزم: إنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره ابن جرير ولا غيره وكان محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقى بن مخلد الاندلس بمصنف ابن أبى شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأى ما فيه من الخلاف واستبشعوه وقام جماعة من العامة عليه ومنعته من قراءته فاستحضره الأمير وإياهم وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى أتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا لا تستغنى عنه خزانتنا فانظر فى نسخه لنا وقال لبقى انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم عن أن يتعرضوا له ـ ولد بقى فى رمضان سنة ٢٠١ وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦هـ.

وسير الأمير جيشا[١] آخر إلى طليطلة فلما قاربها خرجت عليه الجنود من المكامن فانهزم وأُصيب أكثر من فيه فسار الأمير بنفسه فى المحرم سنة ٢٤٠ فى جيوشه إلى طليطلة فاستمد أهلها ملك جليقية وملك البشكنس فأمداهم بجيوش كثيرة.

فلما بلغ الأمير ذلك وكان قد قارب طليطلة أعمل الحيلة فأكمن لهم الجيوش فى وادى سليط وتقدم إليهم فى عدد قليل من الجند فاعلم أهل طليطلة القرنج بقلة عدد المسلمين فسارعوا إلى قتالهم وطمعوا فيهم فلما تراءى الجمعان وانتشب القتال خرج الكمناء من كل جانب وأوقعوا باعدائهم حتى بلغ عدد القتلى من الفرنج والطليطليين عشرين ألفا.

وفى سنة ٢٤١ أكثر الأمير من الرجال بقلعة رباح ليقفوا على أهل طليطلة[٢] وبعث الجيوش مع موسى صاحب تطيله[٣] فعاثوا فى نواحى البة والقلاع وفتحوا بعض حصونها وعادوا[٤].

وفى سنة ٢٤٢ بعث جيشًا إلى برشلونه فدخلها وحارب قلاعها وجاوزها إلى ما وراء اعمالها فغنم كثيرا وفتح حصن طرّاجة وهو من آخر حصون برشلونه[٥].

وفى سنة ٢٤٣ خرج أهل طليطلة يجمعهم إلى طلبيرة وعليها مسعود بن عبد الله العريف فقاتلهم حتى هزمهم وقتل أكثرهم وحمل إلى قرطبة سبعمائة رأس[٦].

وفى سنة ٢٤٤ خرج الأمير بنفسه إلى طليطلة فكان للطليطليين واقعة هائلة

---

(١) يؤخذ من ابن عذارى أن قائدى هذا الجيش قاسم بن العباس وتمام بن ألبى العطاف صاحب الخيل وقائد جيش طليطلة (شندلة) وأن هذه الوقعة كانت فى شوال.

(٢) ابن الأثير وفى ابن عذارى أن الأمير شحن قلعة رباح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان وترك فيها عاملا حرث بن يزيع.

(٣) ابن خلدون.

(٤) ابن الأثير.

(٥) ابن الأثير وفى ابن عذارى أن الأمير كتب إلى موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول إلى برشلونه فغزا إليها واحتل بها وافتتح حصن طراجة وهو من آخر احواز برشلونه.

(٦) ابن الأثير.

على قنطرة نهر تاجه إذ اجتمعوا عليها وكانت قد أخلّت ولم يشعروا فسقطت بهم فغرقوا فى النهر عن آخرهم[١].

وفى سنة ٢٤٥ دعا أهل طليطلة الأمير إلى الأمان فعقده لهم[٢] كذا يؤخذ من التواريخ العربية.

ويؤخذ من دوزى أن تمسك السلطان محمد بدينه كان يدفعه إلى اضطهاد نصارى قرطبة وأنه لما بلغ أهل طليطلة نبأ هذا الاضطهاد[٣] تأهبوا للقتال تحت إمرة (شندله SINDOLA) ولخوفهم على حياة رهائنهم فى قرطبة قبضوا على المحافظ وأعلموا السلطان (أنه إذا رغب فى الابقاء على حياة المحافظ فعليه أن يرد إليهم الرهائن) ففعل وهم اطلَقوا سبيل المحافظ، ولكن شهرت الحرب وحمل الخوف من الطليطليين حامية قلعة رباح على إخلائها فجاءوا إليها وهدموا أسوارها لكن السلطان بعث بالجنود فرمّوا الأسوار (٨٥٣) ثم أمر بتسيير قائدين إلى طليطلة لكن الطليطليين بعد أن مروا من مضايق (جبال مرنه SIERRAMAR-NA) للقاء عدوهم اسرعوا فى الهجوم عليه بالقرب من (اندوچر ANDUJAR) فهزموه واستولوا على معسكره ـ قرب هذه الهزيمة من اندوچر هدد قرطبة فجمع الأمير جنوده وقادهم بنفسه إلى طليطلة فى يونيو سنة ٨٥٤ فبعث شندله يستنجد بملك ليون أرْدن الأول فأمدهم بمدد عظيم تحت إمرة (غثون كند بيرزو GATON CONTE DU BEIRZO) فنزع هذا المدد من محمد أمل الفوز فأكمن معظم جيشه خلف الصخور التى يجرى بعينها نهر سليط وسار إلى المدينة فى عدد قليل ووجه

---

(١) يقول دوزى بعد أن شغل السلطان القنطرة بجيوشه أخذ مهندسوه يخلون دعائمها بدون أن يراهم الطليطليون فلما كاد المهندسون ينتهون من أعمالهم أمر عساكره أن يتقهقروا عنها فاقتفى آثارهم عساكر طليطلة فلما حلوا فوقها انهارت بهم فى الحال فغرقوا فى نهر تاجه.

(٢) ابن عذارى.

(٣) لم أر فى التواريخ العربية ولا فى كندى ولا فى رومى أثرا لاضطهاد الأمير نصارى قرطبة فمن اين جاء دوزى نبأ هذا الاضطهاد ومن التناقض مدح كندى الأمير محمدا وذم دوزى إياه.

آلاته الحربية نحو جدرانها، فلما رأى الطليطيون قلة العدد الهاجم دعوا غثون[١] إلى الخروج فخرج مسرعا يقود جيشه وجيش الطليطليين وهجم على جند محمد فأخذ الجند فى الفرار جارا وراءه اعداءه نحو الكمين حتى ظهرت عليهم الجنود الكامنة وأبادت معظمهم وقطعت من رءوس القتلى ثمانية آلاف ووضعتها كرمة وصعدت عليها. اهـ.

ويؤخذ من رومى وكندى أن الأمير محمدا كان ذا حمية عظيمة فى الدين لكنها ما كانت تطفئ منه كل نور وكل تسامح وقد دفعته هذه الحمية فى صدر ملكه إلى نشر الإسلام فى حدود اسبانيا كى يصد عن مملكته هجمات أهل الحدود فأمر ولاة ماردة[٢] وسرقسطة بجمع الجنود وغزو بلاد الفرنك ونصارى جليقية فاجتاز المسلمون جبال البرانس الشرقية وتوغلوا فى البلاد إلى إقليم نربونة وغنموا غنائم واسعة واسروا أسرى كثيرة وفرقوا شمل السكان شذر مذر لكنهم لما حاربوا نصارى جليقية كانت الحرب سجالا بين الفريقين وآل الأمر إلى أن هزم ملك استوريا (اردن) الوالى موسى بن زياد ZEIAD بالقرب من القلعة البيضاء حتى أخذها منه[٣]، لما جاء نبأ هزيمة المسلمين واستيلاء النصارى على القلعة البيضاء إلى قرطبة كان له وقع سيئ لدى الدولة الأموية واتخذ أعداء موسى هزيمته فرصة للوشاية فيه لدى الأمير واتهامه بالارتشاء فعزله من ولاية سرقسطة[٤] وعزل ابنه لوبيا[٥] من ولاية طليطلة.

(١) فى ابن عذارى أن غثون أخو اردن بن أذفونش صاحب جليقية.

(٢) لعلها لاردة فإن هذه هى القريبة من سرقسطة.

(٣) يقول رومى: إن موسى كان قوطيا واسلم طمعا فى الترقى فقطع فى طريقه شوطا بعيدا فى عهد الأمير السابق فلذلك كثر اعداؤه ولما رأوا كدر الأمير من سقوط القلعة اتهموا موسى بالخيانة ووشوا به لديه قائلين فيه «ذمى مغلوب ابن نصارى خدعه ملك النصارى وحالفه ورشاه» وكان العرب يطلقون اسم الذمى على كل من كان من أصل أجنبى.

(٤) يؤخذ من كندى ورومى أن موسى كان والى سرقسطة وأن اسمه موسى ابن زياد وابن خلدون يقول: إنه كان والى تطيلة واسمه موسى بن موسى.

(٥) كذا يسميه رومى هنا ويسميه فى الآتى لوبوس.

نشأ من هذا العزل أن حالف موسى وابنه نصارى استوريا أو جليقية ونصارى نفارة والبشكنس وكذا حالفا بعض العرب على أن يحفظوا استقلالهم ورفعا لواء العصيان ودخلت المدائن سرقسطة وتطيله ووشقه وطليطلة فى حزبهما، ومع هذا لم يدخل فى محالفتهما ملوك الفرنك الذين هم خلف جبال البرانس فأخذ موسى يوجه جيوشه لقتالهم فاجتازوا الجبال وأغاروا على أقاليم الغال وأخذ ابنه (لوپوس) يرتب معدات الدفاع عن طليطلة، وقد زحف عليها الأمير محمد مدبرا مكيدة معروفة ولكنه نجح بها، أخفى جلّ جيشه فى غابة كثيفة مظلمة ليست بعيدة عن طليطلة وأقبل على المدينة فى قليل من الرجلان والفرسان على مرأى من أهلها فعاث فى بريتها التى على نهر تاجة الأيسر فواليها ما ظن فى القادمين إلا طليعة جيش بعيد فأراد أن ينتهز الفرصة ويضربها ضربة تشل يد القوة المنتظرة فخرج إليها فى جيش كاف لأن يفتك بها فانهزمت أمامه حتى قادته إلى وادى سليط وهو وادى الكمين فانقض فرسان قرطبة وهم تحت إمرة هشام بن عبد العزيز حاجب الأمير على الطليطليين من كل جانب وفتكوا بهم حتى غطت أشلاء القتلى ميدان القتال وقد بلغ عددهم من النصارى ثمانية آلاف ومن المسلمين سبعة آلاف وما كانت عاقبة هذا الفوز أن خضعت طليطلة بل إن لوپوس ومن أمكنه الفرار دخلوا المدينة ورفضوا الصلح مع أن الأمير وعدهم بالعفو إذا سلموا المدينة بدون شرط، ولما رأى أن حصارها يطول عاد إلى قرطبة سنة ٢٤٠ للهجرة وترك جيشا محاصرا تحت إمرة ابنه المنذر ولكونه شابا ترك معه قائدين وهما: عبد الملك بن عبد الله أبو مروان، وهشام بن عبد العزيز وقد ابتدأ حصار المدينة من آخر سنة ٨٥٤ واستمر إلى السنة التالية.

وفى سنة ٨٥٥ أرسل موسى جنودا كثيرة تعزز ابنه المحصور فبهذا صار الحصار غير ممكن الاستمرار فرفعه ابن الأمير فى الأشهر الأولى من هذه السنة

وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام توجهت إلى قلعة رباح وطلبيرة وزورته ZURITA مواضع قوية تكتنف طليطلة، ومنها كانوا يناوشون المدينة ولكن لوبوس كان يدفع هجماتهم وقد اجتهد فى استرضاء اردن فنجح وحالفه إلا أن مساعدته إياه لم تغن شيئا فقد اضطر أن يسلم المدينة سنة ٨٥٩ وقد حضر الأمير محمد نفسه.

وأما موسى فقد استفحل أمره وامتدت سلطته على أرض واسعة تتكون من هضبة اسبانيا المتوسطة ومن وادى العذارى وريورة RIOJA وارجون ARGON وكانت تتاخم من الشرق لاملاك الفرنك فى جبال البرانس، ومن الجنوب والغرب لاملاك المسلمين الباقين على طاعة الأمير الأموى، ومن الشمال لاودية النفريين والبشكنس وليزيد فى اتساع ملكه رغب أن يتحد مع النفريين فزوج ابنته لمن يعدّونه رئيسا عليهم وكان يسمى (غرسينوس) أو (غرسية بلغة اسبانيا الجديدة) فاحتدم ملك استوريا غيظا من هذا الاتحاد الذى كان عقب أن شقوا عصا طاعته وأعلنوا استقلالهم فوجه جيشه إلى مقاتلتهم فقتل منهم عشرة آلاف من بينهم (غرسية) وهزم الباقين وجرح موسى ثلاث مرات ولكنه لم يمت بل فرّ إلى اسبانيا الشرقية حيث يرأس ولده إسماعيل سرقسطة وولده (فرتون) تطيلة وحفظ استقلاله بدون تظاهر إلى سنة ٨٧٠، فقد مات فيها حين حاصر المنذر سرقسطة كما سيأتى ـ من مقارنة الحوادث المذكورة فى التواريخ العربية فى هذا الموضع بما يقابلها فى التواريخ الافرنجية نرى مغايرة بينهما فمن الأولى لا يؤخذ أن موسى خرج عن طاعة الدولة الأمويّة كما ذكر فى الثانية بل أن حروبه نحو الشمال والشرق كانت بأمر الأمير محمد ولا يؤخذ منها أيضا أن والى طليطلة كان ابن موسى كما فى كندى ورومى.

بينما الأمير يطفئ نار الثورة (٢٤٥هـ) فى طليطلة ويخضعها لسلطان قرطبة إذا الماجوج (المجوس) اعادوا الكرة على شواطئ اسبانيا فأغاروا أولا على سواحل

جليقية GALICE[١] ثم مضوا فى ستين مركبا[٢] إلى شواطئ الاندلس فنزلوها وعاثوا فى كوررية وقَرْطَمة CARTAMA ومالقة ورندة، وما اجترءوا على التوغل فى داخل البلاد ولكنهم أحرقوا المدائن المجاورة للبحر وهدموا كثيراً من المبانى التى أقامها الامراء المتأخرون على الشواطئ لا سيما القلاع التى كانت مَعَدَّة لمراقبة الطوارئ الخارجية وخربوا جامع الجزيرة الخضراء الذى كان يسمى مسجد الرايات (لأن طارقًا جمع فيه زمن الفتح رايات القوم للرأى) فأرسل الأمير فرسانه ليدفعوا غائلة الماجوج فلما رأوهم أقلعوا ومضوا إلى شواطئ أفريقية فأغاروا على مدينة ناشور NACHOR[٣] ثم عادوا إلى ساحل تدمير وانتهوا إلى حصن اوريوله[٤] ثم رحلوا إلى جزائر ميورقة ومنورقة وفُرْمَترة FORMENTERA فخربوها[٥] ثم ساروا إلى سواحل أفرنجة فشتوا بها وعاثوا فيها واصابوا الذرارى والأموال[٦] وبلغوا بنبلونة وأسروا صاحبها غرسيه وفدى نفسه بسبعين ألف دينار، ثم انصرفوا فلقيهم مراكب الأمير فقاتلوهم وغنموا مركبين واستشهد جماعة من المسلمين[٧] ثم أخذوا طريق العودة إلى اسكندناوة ومراكبهم مثقلة بالغنائم الواسعة سنة ٨٦٠ (٢٤٦ للهجرة)[٨].

---

(١) رومى.

(٢) فى تاريخ ابن عذارى أن مراكبهم اثنان وخمسون وإنهم وجدوا البحر محروسا ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط أفرنجة إلى حائط جليقية فى الغرب وإن هذه تلاقت بمركبين من مراكب المجوس فى بعض كورياجه فأخذتهما بما فيهما من الذهب والفضة والسبى والعدة.

(٣) رومى.

(٤) ابن عذارى.

(٥) رومى.

(٦) ابن عذارى.

(٧) ابن خلدون وقوله «واسروا صاحبها غرسية» لا يلتئم مع ما سبق من أن غرسية قتل فى قتال الاستوريين فلعل المراد أنهم اسروا ابن غرسية فقد تشهر الابناء باسم الأب.

(٨) كندى ورومى.

يقول ابن عذارى إنهم فقدوا من مراكبهم أكثر من أربعين وأن مراكب الأمير أصابت منها مركبين بريف شذونة فيهما أموال عظيمة.

إن انتصار اردن على موسى جرأه على الهجوم على المسلمين فى جنوب نهر دويره فهزم والى الحدود زيد بن قاسم واستولى على عدة مدن وحصون منها: كوريا وسلمنقة (٢٤٦) وقتل رجال هاتين المدينتين ولم يبق إلا على النساء والأطفال وقد ساقهم إلى استوريا.

فزع الأمير محمد من أخذ كوريا وسلمنقة فبعث ابنه المنذر يقود جيشًا عرمرمًا ليردّ هاتين المدينتين فسار على شواطئ النهر[١] حتى التقى باعدائه وقهرهم وقتل منهم عددًا عظيمًا وفرّق شمل الباقين وردّ المدن والحصون المسلوبة، ثم حوّل جيشه إلى الشمال الشرقى فعبر نهر الابرة ودخل نفارة حتى بلغ أرض بنبلونة فأتلف ثمارها وحاصلاتها وافتتح ثلاثة حصون منها حصن قشتيل وأصاب فيه بطلا صنديدًا يسمى فرتون بن غرسيه[٢] فساقه إلى قرطبة فمكث فيها اسيرًا ٢٠ سنة ثم اطلقه الأمير ليرحل إلى بلده فأقام مختارًا فى قرطبة إلى أن بلغ ١٢٦ سنة[٣].

وفى سنة ٢٤٩ (٨٦٣ ـ ٨٦٤) أغار نصارى جليقية على بلاد المسلمين فنهبوا واتلفوا مزارعها واسروا رجالها فأمر محمد قواده وولاته بجمع الجيوش للجهاد فخرج بهم وانضم إليهم فرسان ماردة واتجه إلى جليقية ودخل مدينة (سنكتياك أوسنت ياقب SANCTYA)[٤]، فما استطاع الجلالقة أن يثبتوا على مقاومته بل

(١) يقول كندى ورومى إن المنذر قسم جيشه إلى خمسة أقسام ـ المقدمة والجناحين (الميمنة والميسرة) والقلب والساقة أى المؤخرة ولذا يعبر عن مثل هذا الجيش بالخميس.

(٢) فى هامش رومى ما نصه «يقرأ فى مورفى أن محمدا فى سنة ٢٤٧ (٨٦١) أغار على أرض بنبلونة فاخضع قسما عظيما من البلاد وأخذ عدة قلاع وحبس فرتون أخا الملك (أى ملك) وبقى هذا أسيرا فى قرطبة نحو ٢٠ سنة.

(٣) رومى.

(٤) فى هامش رومى أن هذه اللفظة منحوتة من سنكتوس يعقوبوس ومن ذلك أخذ الاسبانيون (سنتياغو) وفى معجم ياقوت سنت ياقب بضم القاف قلعة حصينة بالاندلس. اهـ وربما مدوا حركة القاف فقالوا ياقوب كما فى نزهة المشتاق.

تقهقروا والتجأوا إلى القلاع القائمة على الصخور المنيعة فرجع الأمير من طريق (طلبيرة)[١] وأرسل فرسان ماردة من طريق سلمنقة وواصل سيره مع فرسان قرطبة متجهًا إلى طليطلة[٢].

وعلى حدود الفرنك فى بلاد ارجون العليا قامت ثورة هائلة يقود زمامها شقى يعرف بحفصون[٣] نشأ هذا الشقى فى إقليم ريّة من بلاد الأندلس وكان يعيش من كسب يديه، ولما أعياه الفقر هجر إقليمه ورحل إلى ترجيلة[٤] TORDJIELLA مؤمّلا أن يصادف متسعًا من الرزق فلم يجز طريقًا للكسب إلا أن اختلط هو وفئة من الأشرار وعاثوا فى الأرض فسادًا وجعلوا مهنتهم السرقة وقطع الطريق وكثيراً ما قاوموا الكشّاف الذين كانوا يقتفون آثارهم ليبطشوا بهم حتى شهر أمرهم واستولوا على قلعة بيشتر ومع هذا فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤) طرد حفصون وعصابته من الأندلس ففروا إلى حدود الفرنك فى الأودية المتوسطة بين جبال البرانس وكان يسكنها أفارقة أغلبهم يهود فانزلوه فى حصن من حصونهم يعرف بروطة اليهود[٥]، وكان هذا الحصن عبارة عن قصر منيع على قمة جبل صخرى يكتنفه نهر ولما بلغ نصارى هذه الجبال شهرة حفصون ونجاحه فى سطواته استرضوه وعاهدوه على شق عصا طاعة الأمير.

انقضّ جموع حفصون من الجبال كالسيول الجارفة مغيرين على بلاد اسبانيا

---

(١) رومى - وفى كتدى من طريق سمورة.

(٢) بعض المؤرخين يذكر هذه الحادثة فى حوادث سنة ٢٤٧ «٨٦١- ٨٦٢» وبعضهم يذكرها فى سنة ٢٤٩ «٨٦٣- ٨٦٤».

(٣) رومى - فى كتدى أنه يسمى عمر بن حفص ويعرف بابن حفصون.

(٤) يقول ياقوت أنها مدينة بالاندلس من أعمال ماردة بينها وبين قرطبة ستة أيام غربا وبينها وبين سمورة من بلاد الفرنج ستة أيام ملكها الفرنج سنة ٥٦٠.

(٥) رومى، قال ياقوت (روطة حصن من أعمال سرقسطة بالاندلس وهو حصين جدا على وادى شلون.

حتى بلغوا بَرْبشتر[١] BARBASTER ووشقة وفراجة مفسدين المزارع مستفزين الأهلين على نبذ طاعة ولاتهم مخربين مدائن وقرى من يأبى الانضمام إليهم محتلين قلاع البلاد إلى أن وصلوا مقاطعة لاردة فانضم إليهم قائدهم المسمى عبد الملك وسلمها إليهم وتبعه قادة القلاع الأخرى وغيرهم من المسلمين واليهود والنصارى الناقمين من الأمير وامتد لهيب الثورة فى زمن قريب على شاطئ نهر ابرة الأيسر.

كان فى استطاعة والى سرقسطة أن يرد هجمات العصاة ولكن عزله الأمير وقتئذ وبقى منتظرا من يخلفه فاغضى عنهم وتركهم يعيثون فى الأرض كى يعظم الخطر.

لما استفدح الأمير محمد أمرهم كتب إلى ولاته يأمرهم بحشد الجنود وذهب بنفسه إلى طليطلة يقود جيشا كثيفا وعهد إلى ابنه المنذر بمراقبة حدود جليقية وفى الوقت عينه اجتمع جنود بلنسية ومرسية وتوجهوا تحت قيادة زيد بن قاسم حفيد الأمير إلى نهر ابرة ليجتمعوا هم وجيش قرطبة على شاطئ النهر ويتجهوا إلى مقر حفصون ويستردوا منه الحصون التى استولى عليها.

تحقق حفصون أنه لا يقوى على دفع قوى الأمير العظيمة وأنها ستكون الضربة القاضية عليه لا محالة فعمد إلى المكر والخداع وأرسل إليه رسالة يظهر فيها خضوعه ويقسم بإله السموات والأرضين أن كل ما فعله لم يكن إلا خديعة للمشركين حتى يلتبس عليهم الأمر إذ ردّ جيوشه نحوهم وأنه إذ ساعده الأمير بجيوش بلنسية ومُرسية المتجهة لقتاله فاجأ بلاد الفرنج التى فى جنوب نهر شيقر SEGRE ودمرها وأنه لم يزل مسلما صادقا مخلصا.

خدع الأمير واعتقد صدق رسالة حفصون وما هى إلا زور وبهتان ووعده

(١) قال ياقوت بربشتر مدينة عظيمة فى شرقى الاندلس من أعمال بريطانية وقد صارت للروم فى صدر سنة ٤٥٢ وبريطانية مدينة كبيرة بالاندلس أيضا يتصل عملها بعمل لاردة وهى فى شرقى الأندلس.

بحكومة ولايتى وشقة وسرقسطة إذ أخضع هذه البلاد لسلطان قرطبة، وعندئذ أرسل جيشه إلى جليقية لينضم إلى جيش ابنه المنذر وأمر حفيده أن يقود جنوده ويساعد حفصون على قتال الفرنج وعاد هو إلى قرطبة.

اجتمع جيش زيد وجيش حفصون فى وادى «الكَنت»[١] وقابل الثانى الأول بالحفاوة والإجلال كأنهما صديقان، ولكن لما خيّم الظلام ومالت عساكر بلنسية ومرسية إلى الراحة ولم يأخذوا حذرهم انقضّ عليهم عساكر حفصون وعبد الملك والى لاردة وفتكوا بأغلبهم ولم ينج إلا القليل، وقد قتل زيد بعد أن دافع دفاع الأبطال وكان شابا يبلغ ثمانى عشرة سنة «٢٥٢هـ ٨٦٦م».

لما بلغ الأمير نبأ هذه الكارثة هلع هلعا شديدا ودعا قواده فى الحال إلى حرب مأيمة[٢] ينتقم فيها من العاصى الخائن حفصون واستقدم ابنه المنذر من حدود جليقية ليأخذ بقياد هذه الحرب فقاد عساكره وانضم إليه غيرهم وقلوب الكل تغلى كالمراجل ماؤها الغيظ وحب الانتقام إلى أودية العصاة بين صخور روطة اليهود فرجال حفصون وعبد الملك قاوموا بشجاعة هجوم عساكر المنذر لكن لم تغن مقاومتهم ولا مناعة حصونهم شيئا فقد انتصر جيش قرطبة عليهم وألجأ فى اليوم الأول عبد الملك مجروحا ومائة رجل من شجعانه إلى هذه الروطة المنيعة، وفى اليوم الثانى أحدق المنذر بها من جميع الجهات هو وجنوده وقد أحرق صدورهم غليل الانتقام حتى قهروا قلاعها وجاسوا خلالها، وقد دافع عبد الملك دفاع المستميت إلى أن سقط مغطى بدمائه فقطع المنذر رأسه وارسله إلى قرطبة.

وقد أدى سقوط روطة اليهود إلى خضوع لاردة وحصون أخرى والتجأ حفصون إلى ركن منيع من اركان جبال البرانس بعد أن فرق أمواله على احبابه

---

(١) كذا فى كندى.

(٢) أى تجعل النساء أيامى.

ووعدهم بالعودة إليهم إذا جاد الزمان، وعاد المنذر إلى قرطبة فاستقبل فيها استقبالا باهرا ومنح الأمير شبان الجيش عطايا فاخرة من الأسلحة والملابس والخيل وكان اليوم يوم عيد عند الأهلين سنة ٨٦٦ (٢٥٢).

فى السنة التى انتصر فيها محمد على حفصون (٨٦٦) مات (ارْدُن) بعد أن حكم ما ينيف عن ١٦ سنة وخلفه ابنه (اذفنش) وهو ابن ١٨ سنة فحكم ٤٥ سنة كذا فى رومى وفى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٥٤ أن أردن بن ردمير صاحب جليقية مات وولى مكانه اذفونش وهو ابن اثنتى عشرة سنة ولا يخفى ما فى الروايتين من المغايرة فى تاريخ الوفاة، وفى عمر الملك الجديد وفى ابن الأثير فى حوادث هذه السنة أيضا أن أهل ماردة عاودوا الخلاف على محمد صاحب الاندلس فسار إليهم وحصرهم وضيق عليهم فانقادوا فنقلهم وأموالهم إلى قرطبة وهدم سور ماردة، وفى تاريخ ابن عذارى أنه نقل فرسانهم عبد الرحمن ابن مروان وابن شاكر ومكحولا وغيرهم بعيالهم إلى قرطبة وولى عليها سعيد بن عباس القرشى وأمر بهدم سورها.

وفى سنة ٨٦٨ حاصر بنبلونة عاصمة نفارة سَرِيّة من المسلمين يقودها إسحاق ابن إبراهيم العقيلى وزيد بن رسّم حتى استولت على بعض ابراجها لكنها لما رأت إقبال كثير من جنود الفرنك لانقاذها اضطرت إلى تركها والانسحاب إلى نهر ابرة وكان الحامل على إرسال السريَّة لحصار بنبلونة حب الانتقام من واليها ابن غرسية صهر موسى، فإنه كان يساعد رؤساء اسبانيا الشرقية الخارجين عن طاعة الأمير.

وفى سنة ٨٦٩ جمع الأمير محمد جنود الأندلس ووجهها تحت قيادة ابنه المنذر إلى سرقسطة فإن واليها موسى كان يحفظها مستقلة عن قرطبة فلما جاءها المنذر وقد أغلق الوالى أبوابها حاصرها ٢٥ يومًا، وحرصًا على الوقت من أن يضيع سدى دخل نفارة ونهب أرضها وكسح قطعانها وعاد إلى حصار سرقسطة وبقى فى اسبانيا الشرقية إلى سنة ٢٥٧ (٨٧٠).

وفيها مات موسى فألقت المدينة مقاليدها إلى المنذر ـ ومع موت موسى وفتح سرقسطة لم تخشع طليطلة بل ثارت فى هذه السنة وانتخبت عبد الله بن لبّ بن موسى واليًا عليها وكان قد فارقها منذ سقوطها سنة ٨٥٩ واستوطن استوريا وكان قائداً شجاعا خبيرا بتصاريف الحروب ـ لما علم محمد بعصيان طليطلة جمع جنود الأندلس وقادهم إليها وكان أهلوها متأهبين للمقاومة والدفاع عن أنفسهم وهم فيها، ولكن رئيسهم لما علم كثرة جنود قرطبة لم يرد أن يجعل المدينة عرضة للخطر بالبقاء بين حياطها فأمر قواده بالخروج إلى ضاحية المدينة ثم بعث رسلا إلى أهليها يشيرون عليهم بالخضوع إلى الأمير، فما كان من العامة إلاّ أن أرادوا الفتك بالمبعوثين لكنهم تشاوروا فى الأمر واتفقوا أخيراً أن يسلموا المدينة على شرط أن يتجاوز الأمير عن الماضى ولا يبحث فيه (٨٧١) بعد أن أقام الأمير بعض أيام فى طليطلة يوطّد دعائم السلام فيها عاد إلى قرطبة فقويل بفرح عظيم.

وفى سنة ٢٥٩ (من نوفمبر سنة ٨٧٢ إلى أكتوبر سنة ٨٧٣) أغار المنذر على أرض جليقية وقاتل أهلها، والدهر تارة له وطوراً عليه فعلى ممرّ نهر سهجون المتجه إلى نهر دويره كانت بينهما وقعة دموية قتل فيها كثير من فرسانه الأبطال ومع ذلك كانت خسارة الجلالقة فادحة جدّا حتى إنهم قضوا أكثر من أحد عشر يومًا فى دفن جثث موتاهم ـ وبقى المنذر على الحدود طول سنته يأتى بأعمال حربية غريبة غير مفترّ فى أغلب أيّامه عن مناوشة أعدائه الشجعان الذين كانوا يصدّون هجماته العنيفة ـ وفى آخر هذه السنة رجع إلى لوزيتانيا.

وفى سنة ٢٦٠ (٨٧٤) حلّ بأرض اسبانيا جدب شديد ولم يكن قاصراً عليها بل عمّ أفريقية ومصر والشام وجزيرة العرب حتى أن مكة أم القرى هاجموا أهلوها ولم يبق خادم فى الكعبة فأغلقت[1]، جفّت المنابع والغدران فلم تأت الأرض

(١) رومى.

بثمراتها فعمّت المجاعة وانتشرت الأمراض وكثر الموت وكان هذا الجدب أفظع من جدب سنة ٢٤٤.

وفى سنة ٢٦١ جمع ابن مروان رجاله وهرب بهم من قرطبة وقصد قلعة الحنش فى جنوب ماردة فملكها وامتنع بها فغزاه السلطان محمد وحصره ثلاثة أشهر حتى اضطر إلى أن يأكل لحم الخيل ويطلب الأمان ويسلم المدينة، فآمنه السلطان وأباح له أن يسكن بطليوس فاستوطنها، ولم يرجع عن عصيانه فقد ضمّ عصابته إلى عصابة أخرى يقود زمامها من يسمى (سعدون) ودعا إلى جيشه كل من كان على شاكلته من مولدى ماردة وغيرها، ودعا مواطنيه إلى دين جديد وَسَط بين الإسلام والنصرانية وحالف أذفونش الثالث ملك (ليون)[١] وهو بالطبع حليف كل من يثور على السلطان وأخذ يعيث فى البلاد[٢].

فأرسل إليه السلطان جيشا تحت قيادة وزيره هاشم سنة ٢٦٢ فلما سمع الجليقى خبر هذا الجيش أرسل سعدون إلى حليفه أذفونش يطلب منه مددا ولم ينتظر فى بطليوس بل توجه إلى حصن (كركى)[٣] وانضم إليه أهل ماردة، فجاء هاشم وعسكر بالقرب من هذا الحصن واحتل أحد ضباطه حصن مت شلوط وكان سعدون قد اقترب منه بالمدد وأشاع أنه فى قلة فكتب الضابط إلى هاشم يخبره بقلة المدد بناء على الإشاعة الكاذبة، فقد كان غرض سعدون منها التغرير فرأى هاشم أن قد سنحت الفرصة فى سعدون فبادر بالخروج فى خيل قليلة لمقابلته فتركه سعدون يوغل فى البلاد حتى دخل مضيقا كان فيه اعداؤه مختبئين خلف الصخور، فهاجموه على غرة وكانت ملحمة هائلة أصيب فيها هاشم بعدة جروح وقتل كثير من فرسانه وأسر وسيق إلى ابن مروان فأكرمه وأحسن إليه

(١) لهذه المحالفة لقب ابن مروان بالجليقى.

(٢) دوزى.

(٣) يقول بعض المؤرخين (كركر) والصحيح الأول قال ياقوت (كركى) بالتحريك اسم حصن من أعمال «أوريط» بالاندلس له ولاية وقرى ـ راجع هامش دوزى ج٢ ص١٨٥.

وأرسله إلى ملك ليون سنة ٢٦٣ فطلب فيه فدية عظيمة ـ وبعد سنتين أطلق سبيله وقد دفع السلطان عنه بعض الفدية وترك هاشم أخويه وابنه وابن أخيه رهائن على باقى الفدية كذا يؤخذ من دوزى وابن عذارى.

لما علم السلطان بأسر وزيره هاشم أغزى ابنه المنذر جليقية سنة ٢٦٣ (٨٧٦- ٨٧٧) وجعل طريقه على ماردة فاحتل قائده الوليد بن غانم بطليوس بعد أن أجلى عنها ابن مروان وألجأه إلى بلاد العدو وغنم المنذر غنائم واسعة وأسر كثيراً من أعدائه عقب قتال صعب المراس فقد فيه كثيرا من جنوده، منهم يحيى ابن الحجاج وكان فارسا شجاعا مشهورا بسياحاته إلى الشرق، كذا يؤخذ من ابن عذارى وكندى، ويؤخذ من رومى أن أذفونش فى هذه السنة صد هجمات المنذر واستولى على حصون ومدن أجلى عنها المسلمين واسكنها قومه النصارى وأنه ما زال يصد هجماته حتى ألجأه إلى حدود لوزيتانيا الجنوبية.

قال ابن خلدون انتقض على الأمير محمد عبد الرحمن بن مروان الجليقى فيمن معه من المولين وساروا إلى التخم ووصل يده باذفونش ملك جليقة فسار إليه الوزير هاشم فى عساكر الأندلس سنة ٢٦٣ فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم فى أسره ثم وقعت المراودة فى الصلح على أن ينزل عبد الرحمن بطليوس ويطلق الوزير هاشما فتم ذلك سنة ٢٦٥، ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها واطلق هامشا بعد سنتين ونصف من أسره ثم تغير أذفونش لابن مروان ففارقه وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة انطانية بجهات ماردة وهى خراب فحصنها وملك ماوليها من بلاد (ليون) وغيرها من بلاد الجلالقة واستضافها إلى بطليوس. اهـ.

فى هذه الأثناء ثار الخائن عمر بن حفصون المستظل فى حماية نصارى الفرنك وبمساعدتهم استولى على عدة قلاع منيعة على نهر شيقر SEGRE (كذا يؤخذ من كندى ورومى).

وفى سنة ٢٦٤ بعث الأمير محمد ابنه المنذر ثانية إلى بلد بنبلونة فمر بسرقسطة وقاتل أهلها ثم تقدم إلى تطيلة وعاث فى نواحيها وخرّب بلاد بنى موسى، ثم مضى لوجهه إلى بنبونة فدوخها ورجع، كذا فى تاريخ ابن خلدون نقلا عن ابن الأثير.

عاد المنذر إلى جليقية وصرف سنة ٢٦٥ كلها (من سبتمبر سنة ٨٧٨ إلى أغسطس سنة ٨٧٩ فى الحدود بين نهر دويرة والجبال ومعه جيوش ماردة وطليطلة وحاصر مدينة (سمّورة) التى كان أخذها أذفونش فى إحدى الغزوات السابقات ـ كادت المدينة تسقط فى يد المنذر لولا أنه علم بمجىء أذفونش يقود جيشًا كثيفًا لانقاذها فأسرع يتأهب لمحاربته.

فى هذا الموضع تختلف روايات المؤرخين فى حوادث وأذفونش والذى يفهم من مجموعها، أن جيشى المنذر وأذفونش بقيا على الحدود إلى سنة ٢٦٧ يصدّ كلاهما هجمات الآخر.

وإنه فى شوال هذه السنة (مايو سنة ٨٨١) زلزلت الأرض زلزالاً هائلا هدم المنازل والقصور الجميلة ودَكّ الجبال وحطّم الصخور وانشقت الأرض وابتلعت قرى وروابى وجَذَر البحرُ من شاطئ ومَدَّ من آخر وازدردت المياه الجَزر وطغت على الأعالى وفرّ الناس من المدن إلى الصحارى وانسلت الطيور من أوكارها إلى السماء وهبّت الوحوش مذعورة من أرباضها إلى الخلاء.

هذا الزلزال سبقه خسوف القمر فى سنة ٢٦٦ أو فى التى قبلها وكانت هذه الحوادث تؤثر فىّ عقول العامة وتفزعهم وتجعلهم يتطيرون من حكومة الأمير محمد، حتى إن عساكر المنذر كانوا يمتنعون من القتال وهذا كان يقشع عن عقولهم سحب هذه الأوهام ويقنعهم بأن الخسوف والزلزال من حوادث الطبيعة التى لا علاقة لها بعمل الإنسان وليست خاصة بالمسلمين بل تعم النصارى وتشمل الإنسان والحيوان.

عـقب الزلزلة كانت مـهـادنة بين الفريقـين ثلاث سنين، يؤخـذ من رومى (أن مجيء أذفـونش صرف المنذر سنة ٢٦٥ عن حصـار (سمّورة) وأنه وقعت بينهـما واقعة فى مكان يسمى (بُلْفُرَرْيا POLVORARIA) على نهر (أرْبِكوس URBICUS) وأنه عقب هذه الواقـعة كانت الهـدنة بين المسلمين والنصـارى ثلاث سنين وكان الواسطة فيها القائد أبا الوليـد، وأنه عند فراغ الهدنة يوم ٢٢ شوال سنة ٢٦٥ (كذا) (٢٥ مايو سنة ٨٨١) زلزلت الأرض زلزالها.

وأقول: من الحسـاب يتبين أن مايو سنة ٨٨١ يقابل شـوال سنة ٢٦٧ فيظهر أن رقم ٥ فى كلام رومى محرف عن ٧ فى السنة العربية وبهذا التصحيح يتحد كندى ورومى والتواريخ العـربية فى أن حادثة الزلـزلة وقعت سنة ٢٦٧ للهجـرة ـ ويذكر كندى المهـادنة بعد الزلزلة لا قبلها وأنهـا كانت بناء على رضا الملك مـحمد وأن الملك أذفونش أرسل سفـراء إلى قرطبة يصحبهم فـرسان من جيش المنذر لأجل عقد الهدنة.

وفى تواريخ ابن الأثيـر وابن خلدون وابن عذارى أن الأمـير مـحمـداً أمر فى سنة ٢٦٦ بانشاء مراكب فى نهر قرطبة ليدخل بهـا إلى البحر المحيط ويأتى جليقية من ورائهـا فلما فـرغت وكملت برجـالها وعـدّتها توجـه بها إلى البـحر الرعـيطى المعروف بابن مغيث فأصابها الريح وتقطعت فلم يسلم منها إلا القليل.

وفى هذا دلالة على أنه لم يكـن مهـادنة فى السنة التى تلتـها سـنة الزلزلة كمـا يقول رومى.

وفى سنة ٢٦٧ ثار عمر بن حفـصون بحصن بُبَشْتَرْ من جبال مـالقة فزحف إليه عامـر عامل تلك الناحيـة لكنه انهزم واسلم قبـته فاخذهـا ابن حفصون وقـوى أمره وهو أول رواق ضربـة فاستكن إليه أهل الشر، وعـزل الأمير عامرا مـن كورة ريّة وولاها عبد العزيز بن عباس فصالحه عمر فطلب العامل كل من له أثر فى مساعدة ابن حفصون فأهلكه وفيهم من أبعده فاستقام أمر الناحية.

يؤخذ من تواريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن عذارى أن هذه الثورة أول خلاف عمر بن حفصون على إمارة الاندلس ولم يذكروا عصيانا لأبيه حفصون مع أن رومى وكندى ينسبان إلى حفصون تارة وإلى عمر بن حفصون تارة أخرى، ثورات قبل سنة ٢٦٧ فى إقليم (ريّة) وفى شمال نهر (ابره) راجع ما سبق فى حوادث سنة ٢٤٩ وما بعدها، ويؤخذ من دوزى أنه كان يوجد فى دسكرة قريبة من حصن (أوت) (يقال له اليوم زناتة YZNATE) على شمال مالقة الشرقى زارع يسمى حفصًا من سلالة شريفة فإن جده الخامس المسمى (أذفونش) القوطى كان يلقب بـ (الكونت) قد ألجأت تقلبات الدهر جدَّه حفصًا فى عهد الحكم إلى أن يهاجر من (رنده) ويستوطن بالقرب من الحصن المذكور وأن يظهر الإسلام ويخفى فى قلبه النصرانية دين أسلافه ـ جمع حفص ثروة من كسبه واقتصاده وكان جيرانه الأقل منه غنى يحترمونه ويبجلونه حتى كانوا يسمونه حفصون بزيادة واو ونون على اسمه علامة على تشريفهم إياه.

ولم يكن ما يكدر صفو عيشه إلا سوء سلوك ابنه عمر حتى إن هذا فى يوم شاجر أحد الجيران بدون سبب معقول ورماه على الأرض قتيلا، فاضطر حفصون أن يهاجر بابنه من الدسكرة خوفًا عليه من القتل ويستوطن جبال رندة فى سفح جبل (بُشتَر) أثرت المعيشة بين الجبال والغابات والمضايق غير المطروقة فى طباع الشاب عمر، فدفعه شقاء العيش إلى أن صار لصًا قاطع طريق وأوقعه اعتداؤه بين أيدى الحكومة فجلده والى المقاطعة، ولما يئس والده من تثقيفه وأعيته الحيل فى أمره طرده من منزله ـ ولما لم يجد عمر ما يعيش به فى اسبانيا جاز البحر قاصدًا أفريقية حتى وصل (تاهرت) ودخل صانعًا عند خياط يعرفه قليلا لأنه ولد فى كورة ريّة.

دخل شيخ هرم دكان الخياط وأوحى إلى عمر أن يترك الإبرة ويأخذ السيف ويرجع إلى بلده فإنه سيكون خصما لدودا للامويين وسيحكم أمّة عظيمة، وقع كلام الشيخ الهرم فى فؤاد الشابّ عمر كوحى الهى، فرجع فى الحال إلى اسبانيا

ولم يجرؤ على مقابلة أبيه بل قابل عمّه وقصّ عليه حديث هرم تاهرت فشجعه على أن يثور ووعده أن يساعده بما يستطيع، جمع أربعين شابا من رستاقه وعرض عليهم أن يكونوا حزبا لابن أخيه وتحت إمرته فقبلوا جميعا فأسكنهم عمر معه فى جبل بُبَشْتر سنة ٨٨٠ أو سنة ٨٨١ وأخذوا يقطعون الطريق ويخطفون البهائم ويفرضون ضرائب فادحة على المزارع المنفردة.

استفحل أمر عصابة عمر وتفاقم شرّها وكانت تهاجم المدن فهاجمها والى ريّة بكل جنوده ولكنه كسر وانهزم وترك خيمته العظيمة للعصاة فنسب السلطان هذه الكسرة إلى عدم أهليّة الوالى فعزله وولى مكانه غيره فهادن الوالى الجديد حامية بُبَشْتر.

وبعد سنتين أو ثلاث استنزلها هاشم أول الوزراء من حصنها وقادها إلى قرطبة فلما رأى السلطان فى ابن حفصون ضابطا شهما وفى رجاله جنودا أبطالا رحب بهم وعرض عليهم أن ينتظموا فى جيشه فلم يسعهم إلا القبول.

وفى صيف سنة ٨٨٣ لما توجه هاشم لقتال محمد بن لب رئيس بنى موسى وأذفونش ملك ليون رافقه عمر وقام بأعمال استمالته إليه ودعته إلى شكره، ولكن لما عاد عمر إلى قرطبة اشتكى من ابن غانم محافظ المدينة فإن هذا كان يكره هاشما ولذا أساء معاملة عمر فهرب ورجاله إلى حصنهم المنيع سنة ٨٨٤.

لما عقدت الهدنة بين المنذر وأذفونش سنة ٢٦٧ خاف ابن حفصون من أن يهاجمه المنذر فطلب من الفرنك ومن سكان جبال (البُرْتات) أن يمدّوه بما استطاعوا من الجنود، فاجتمع لديه أقوام لا يحصون عددا فأخذوا يتدفقون كالسيول من الجبال إلى البلاد حتى بلغوا شواطئ نهر (ابرة) فقابلهم واليا سرقسطة ووشقة عند تطيلة فانهزما وطلبا المساعدة من قرطبة فجمع الملك محمد قواه من فرسان ورُجْلان ورتب جيشا عظيما جعل فى مقدمته ابنه المنذر وفى الميمنة ابن عبد الرءوف وفى الميسرة ابن رستم وفى الساقة ابنه أبا زيد والى شدونة وجعل

نفسه فى القلب[١]، ولما اكتملت معدات القتال جد هذا الخميس فى المسير نحو الأعداء وهؤلاء لما رأوا تلك القوة الكبيرة قد اقتربت منهم فزعوا وتقهقروا مسرعين إلى حصونهم ولكن حميّة المسلمين سهلت لهم اقتحام الجبال فكانت لديهم كالسهول فى المسير فاقتفوا آثار أعدائهم عاقدين النية على القتال مهما كانت الصعوبات، ففى صباح يوم اكتشف المنذر معسكر الفرنك على مقربة منه وهؤلاء وجدوا أن لا سبيل إلى النجاة ولا مناص من العراك فالتقى الجمعان واقتتلا قتال الهالكين وحفظ كلاهما مركزه معظم اليوم، لكن أمكن جيش قرطبة أن يهزم جيش النفاريين وقد قتل ملكهم غرسية[٢] وفرسانه وجرح عمر بن حفصون جروحا بليغة وغطّت اشلاء قتلاهم الدامية ساحة الوغى.

وكانت هذه المعركة فى صيف سنة ٢٦٩ وتعرف بمعركة (ايبار Aybar) لأنها كانت فى واد يعرف بذلك على بعض فراسخ من بنبونة، بقى الأمير المنذر على الحدود إلى فصل الشتاء وعاد الملك محمد إلى قرطبة وكان يوم دخوله فيها يوم عيد عند الأهلين كذا يؤخذ من كندى ورومى.

لم تكن واقعة (ايبار) حاسمةً الخلاف فى أسبانيا الشرقية فإن ابن حفصون وقد انسحب من المعركة إلى طود الجنوب مصابا بجروح بليغة تؤدى إلى هلاكه[٣] لكنَّ حزبَه ما زال باقيا وبنى موسى يحكمون على شواطئ نهر (ابرة) فاسماعيل ابن موسى فى سرقسطة وأخوه فرتون بن موسى فى تطيلة وكانا صديقين لاذفونش ملك استوريا، لهذا بقى المنذر فى الحدود يتعقب العصاة ويخمد نيران ثوراتهم فحاصر سرقسطة وتطيلة وصالح حفيد موسى المسمّى محمد بن لب بن موسى وكان هذا على غير وفاق مع عمّيه إسماعيل وفرتون، وبهذه المصالحة تمكن المنذر من أن يهاجم بلاد استوريا من جنوبها الشرقى فإن ابن لب ساعده

(١) رومى ص ٤٠ ج ٤.

(٢) ابن بنت موسى وكان قتله فى السنة الثانية من ملكه.

(٣) قيل: إنه مات فى سنة ٨٨٣ لكن سيأتى أن عمر بن حفصون يموت فى عهد الناصر.

بالخيل والرجال وقد عاد الجيش الإسلامى إلى قرطبة فى سبتمبر وكان قد غادرها فى مارس سنة ٨٨٢ كذا يفهم من رومى[١].

ويؤخذ من ابن الأثير وابن خلدون وابن عذارى أن الأمير محمدا بعث ابنه المنذر سنة ٢٦٨ لقتال أهل الخلاف فقصد سرقسطة وحاصرها وعاث فى نواحيها وفتح حصن روطة وأخذ منه عبد الواحد الروطى وكان أشجع أهل زمانه ثم تقدم إلى دير بروجة[٢] وفيه محمد بن لب بن موسى وقصد مدينة لاردة وقرطاجنّة وكان فيها إسماعيل بن موسى فحاربه فاذعن إسماعيل بالطاعة وأعطى رهائنه ثم تقدم إلى الَبه والقلاع وفتح حصونا ورجع.

هذه الغزوة هى التى كان فيها واقعة (ايبار) لكن يظهر أنها بُدئت سنة ٢٦٨ وانتهت فى سنة ٢٦٩ للهجرة وكانت كلها فى سنة ٨٨٢ للميلاد ولا يخفى ما فى الروايتين الأفرنجية والعربية من المغايرة:

فالأولى: تذكر أن محمدا سار بنفسه فى هذه الغزوة، وأن إسماعيل بن موسى كان فى سرقسطة، وأخاه فرتون بن موسى فى تطيلة، وأن المنذر حاصرها بدون كبير جدوى ـ ولا تُعيّن مدينة ابن لب.

والثانية: تذكر أن محمدا سير ابنه المنذر فيها، وأن إسماعيل كان فى قرطاجنّة وأنه أذعن بالطاعة للمنذر وأعطاه رهائنه، وأن ابن لب كان فى دير (تروجة) أو (بروجة)[٣].

---

(١) ولم يعين رومى مدينة ابن لب لكنه قال عند افتتاحه سرقسطة أخذ عمه إسماعيل بن موسى وابن عمه إسماعيل بن فرتون أسيرين فى معركة فى موضع جبلى على خمسة أميال من المدينة وقادهما إلى حصن (بكاريا Beccaria) المختص به وانظر أين هذا الحصن.

(٢) كذا فى ابن خلدون بالباء الموحدة وفى ابن الأثير بالتاء المثناة فوق ولعل الأول يقصد (برچة) على شمال نهر (ابرة) والثانى (ترجونة) على البحر المتوسط فحرر

(٣) ترجونة أو برچة ـ انظر الهامش السابق والرواية الآتية عن غالب ابن حفصون والظاهر أن كلمة (قرطاجنة) مقحمة فإنها ليست من الثغر الأقصى الذى كانت فيه الغزوة بل هى فى الشرق نحو الجنوب كما يرى ذلك فى المصور (الخريطة) وأن ابن الأثير يقصد أن إسماعيل كان فى لاردة.

والذى يستخلص من الروايتين مع مراعاة وضع البلاد الجغرافى أن المنذر سار فى سنة ٨٨٢ إلى الثغر الأعلى لأخضاع أهل الخلاف فأخضع بنى موسى على شواطئ نهر (إبرة) ثم حارب النفاريّين وكسرهم بعد أن قتل ملكهم (غرسية) ابن بنت موسى وجرح عمر بن حفصون ثم هاجم بلاد استوريا من هذه الجهة وقد ساعده حليفه محمد بن لب بن موسى بخيله ورجله، ثم عاد إلى قرطبة فى سبتمبر سنة ٨٨٢.

ويؤخذ من رومى أن ابن لب بعد أن فتح سرقسطة وتطيلة فى شتاء سنة ٨٨٢ وأخذهما من عمّيه رأى نفسه أميرا على إمارة عظيمة على نهر (ابرة) الأعلى فحدثته نفسه بالاستقلال فجاهر بعصيان قرطبة، وبذلك عادى ملك استوريا وملك قرطبة معا، فالأول أمر بعض قادته أن يقاتلوه فكان بينه وبينهم وقعات ادّته إلى طلب الصلح من أذفونش ـ وفى ربيع ٨٨٣ حاصر جيش المنذر وأبى الوليد سرقسطة فتحها بعد يومين وعاث فيها وفى ضواحيها وفى جميع بلاد بنى غازى أى بنى موسى بن زياد ثم جاس خلال استوريا حتى دخل حدود (ليون Léon) فى شهر أغسطس سنة ٨٨٣ وفعل فى البلاد ما فعله فى المرة السابقة ولكنه اضطر أخيرا إلى مغادرتها راجعا إلى (قسطيلة Castille) وهناك بقى القائد أبو الوليد يخابر ملك استوريا فى الصلح حتى إن هذا أرسل فى شهر سبتمبر سنة ٨٨٣ إلى ملك قرطبة رسولا اسمه (دلقديوس Dulcidius) وكان قسّ كنيسة طليطلة ليخابره فى شروط الصلح، ويظهر أنه ما تم الاتفاق عليها إلا فى ديسمبر هذه السنة وأن من هذه الشروط أن يكونّ الفاصل بين المملكتين نهر دورو وبهذا دخلت المدن التى على شماله ومنها مدينة (سمورة) فى مملكة استوريا، وقد استمر الصلح بين الامتين زمنا فلم يقع بينهما حرب فى المدة الباقية من حكم محمد وهى نحو سنتين ونصف ولا فى مدة حكم ابنيه المنذر وعبد الله وقد حكم الأول نحو سنتين والثانى إلى سنة ٩١٢.

وفى سنة ٢٧٠ (٨٨٣) أى السنة التى تم فيها الصلح دعا الملك محمدا أمراء أسرته ووزراءه وبطانته وولاة الأقاليم إلى قرطبة وأعلن فى مجلسهم ولاية العهد لابنه المنذر وأنه هو الذى يحمل تاج الملك بعد وفاته وقد حلفوا له جميعا يمين الطاعة.

يروى أن عمر بن حفصون مات من جروحه فى سنة ٨٨٣ فجدّد ابنه غالب Calib عهد أبيه مع سكان جبال الفرنك، وقد حرّكهم حبّ الانتقام إلى الأخذ بالثأر فنزلوا معه من الجبال التى خلف (جاقة) حيث كانت أمنع حصن لابن حفصون إلى أرض (برچة Borja) وهناك شنّوا الغارة على شاطئ نهر إبرة منادين بأن غالب بن حفصون هو ملك هذه البلاد، لما بلغ قرطبة نبأ هذا العاصى وأتباعه أمر الأمير المنذر الوليد بن عبد الحميد بجمع فرسان طليطلة وقادهم إلى مثار العصيان متخذا طريق (بلنسية) لأن لهيب الثورة امتد على طول شاطئ نهر ابرة كله، لما علم العصاة بمجيء الأمير لجأوا إلى جبالهم، عسكر الأمير فى طرطوشة وجعلها مركز أعماله الحربية وسيّر ابن عبد الحميد ليدافع عن التخوم ويراقب حركات الثائرين فقاتلهم أثناء هذه السنة والسنة التالية ٢٧١ (٨٨٤- ٨٨٥) وفاز عليهم واسترد منهم الحصون التى على نهر شيقر ونهر (سنقه) والتى على الأنهار المتجهة نحو نهر ابرة، لكنه فى آخر سنة ٢٧٢ (مايو أو يونيه سنة ٨٨٦) أثناء ما كان يقتفى أثر عصابات مهزومة من نصارى الفرنك لم يأخذ الحيطة فوقع فى كمين وأصبح جيش المسلمين محصورا فى واد ضيق عند حصن (شيرس Xeriz)[١].

وقد جرح القائد ووقع هو وكثير من رجاله أسرى فى أيدى العدوّ والباقون من الجيش انهزموا والتجأوا إلى المدن المجاورة.

---

(١) قال ياقوت شيرس حصن حصين ومعقل مكين من أعمال تاكرنا لكن سياق الكلام يدل على أن هذا الحصن فى الشمال فحرر.

لما بلغ المنذر نبأ هذه الواقعة حزن كثيرا وأرسل رسلا يفدون ابن عبد الحميد فقدوه بمال كثير، كذا يؤخذ من كندى ورومى.

فى التواريخ العربية السابقة أن عمر بن حفصون لم يمت إلا فى سنة ٣٠٦ فى عهد عبد الرحمن الناصر ولم يذكر فيها ابنه غالب ولا الوليد بن عبد الحميد وأسره عند حصن شيرس، ويؤخذ منها أن هاشم بن عبد العزيز غزا سنة ٢٧٠ كورة (ريّة) واستنزل عمر بن حفصون من جبل (بُبَشْتَر)[١] وقدم به إلى قرطبة فأكرمه الإمام، وأن هاشم بن عبد العزيز سار سنة ٢٧١ إلى سرقسطة وفيها محمد ابن لب بن موسى فملكها وأخرج منها محمدا فصالحه وأطاع وكان فى عسكره عمر بن حفصون فلما عادوا إلى قرطبة هرب عمر وقصد ببشتر مخالفا.

وفى سنة ٢٧٢ سار هاشم إلى ابن مروان الجليقى وحاصره بحصن منت مولُس[٢] ثم رجع عنه فأغار ابن مروان على اشبيلية ثم نزل منت شلوط أو سليط Salud فامتنع فيه وصالح عليه الأمير واستقام على طاعته إلى أن مات[٣]، وفى يونيو سنة ٨٨٦ سار المنذر ليهاجم صاحب الحامة فإنه كان قد حالف ابن حفصون فاسرع هذا إلى مساعدة حليفه فحصرهما المنذر فى الحامة مدة شهرين إلى أن كادت تنفد أقوات المدينة فعزم المحصورون على الخروج من المدينة واقتحام جيش قرطبة، فنالت عمر جراح وشلّت يده وبعد أن فقد كثيرا من رجاله التجأ إلى حصنه، بينما المنذر مسرور بانتصاره إذ جاءه نبأ وفاة والده ليلة الخميس الثامن والعشرين من صفر سنة ٢٧٣[٤] (٤ أغسطس سنة ٨٨٦)[٥] لنحو خمس وثلاثين

(١) قال ياقوت بيشتر حصن منفرد بالامتناع من أعمال (رية) بالاندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخا وربما اشبعوا الباء الثانية فقالوا بياشتر.

(٢) قال ياقوت (مولس) بالسين المهملة فى آخره حصن من إقليم من أعمال طليطلة وفى ابن خلدون مولن بالنون فى آخره ويظهر أنه محرف عن مولس.

(٣) ابن خلدون.

(٤) صفر هذه السنة ٢٩ يوما فقط.

(٥) يقول ابن عذارى إنه كان مع المنذر فى هذه الغزاه القائد محمد بن جهوروان صاحب الحامة هو حارث بن حمدون من بنى رفاعة.

سنة من إمارته فاسرع المنذر فى العودة إلى قرطبة، قال ابن عذارى: كان الأمير محمد فصيحا بليغا عظيم الأناة يؤثر الحق وأهله لا يسمع من ياغ ولا يلتفت إلى قول زائغ، وكان عاقلا على أخلاق جميلة ومكارم حميدة وذا بديهة وروية وكان أعلم الناس بالحساب وفيا لمواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم لا يكدح عنده كادح فى شىء عن أحدهم فَيَسْمعه أو يُسْمعه، وكان محبوبا فى جميع البلدان وكان محمد بن أفلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار بسجلماسة وكان فرذلند ملك افرنجة يسترجح عقله فيهاديه.

٦- المنذر بن محمد (٢٧٣- ٢٧٥هـ):

ولى إمارة الأندلس بعد وفاة أبيه محمد وكان ابن أربع وأربعين سنة فقد ولدته أمه (أيّل)[١] سنة ٢٢٩ للهجرة (٨٤٤ للميلاد) وبايعوه يوم الأحد لليلتين[٢] خلتا من ربيع الأول سنة ٢٧٣ (٧ أغسطس سنة ٨٨٦) وكنوه بأبى الحكم ولم تطل مدته بل أقام فى الملك نحو سنتين، فيهما قتل وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز فى شوال سنة ٢٧٣ وقاتل ابن حفصون وأشياعه ومات وهو محاصره فى صفر سنة ٢٧٥ وقد اختلف المؤرخون فى حوادث المنذر فمنهم من قال: إن قتاله لابن حفصون وأشياعه كان فى الجنوب وأن هذا خدعه وأخذ منه مائة بغل فى أول حصاره لقلعته وأن المنذر مات أثناء حصاره الأخير لهذه القلعة وهى حصن بُبَشتر ومنهم من قال: إن القتال كان فى الشمال وأن ابن حفصون خدع هاشما وهو يحاصره فى طليطلة وأخذ منه البغال وأن المنذر قتل وهو يقاتل أحزاب ابن حفصون فى قلاعهم على شواطئ نهر التاجة وأخوه عبد الله يحاصر طليطلة.

ولتفصيل هذا الإجمال نستخلص من كلام المؤرخين ما يأتى:

---

(١) كذا ذكر ابن عذارى اسم أمه وأيل كسيد الوعل أو الأروى، والجمع: أيايل.

(٢) قال ابن الأثير بويع له بعد موت أبيه بثلاث ليال. اهـ. أى بليلة الجمعة من صفر وليلتى السبت والأحد من ربيع الأول.

قال ابن خلدون ولى بعد محمد ابنه المنذر فقتل لأول ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وسار فى العساكر لحصار ابن حفصون فحاصره بحصن بُبَشتر سنة أربع وسبعين وافتتح جميع قلاعه وحصونه، وكان منها ريّة وهى مالقة وقبض على واليها من قِبله عيشون فقتله ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فأجابه وأفرج عنه فنكث فرجع لحصاره وصالح ثم نكث مرتين، فأقام المنذر على حصاره وهلك سنة ٢٧٥ لسنتين من إمارته فولى مكانه أخوه عبد الله وقفل بالعساكر إلى قرطبة وقد اضطربت نواحى الأندلس بالثوّار فقلّ الخراج لامتناع أهل النواحى من الاداء وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار: مائة ألف منها للجيوش، ومائة ألف للنفقة فى النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفرا فانفقوا الوفر فى تلك السنين.

ويؤخذ من ابن عذارى أن أهل قرطبة كانوا يسعون فى هاشم لدى المنذر ويؤوّلون كلامه للإيقاع به حتى إنه لما أنشد عند مواراة الأمير محمد:

أعَزّى يا محمد عنك نفسى
أمين الله ذا المنن الجسام
فهلاّ مات قوم لم يموتوا
ودوفع عنك لى كاس الحمام

تأولوا أنه يريد بقوله «قوم لم يموتوا» المنذر وما زالت تدب بينهما عقارب السعاية حتى أمر المنذر بسجن هاشم وكتب هذا إلى جاريته وهو فى السجن:

وانى عدانى أن أزورك مُطبِق
وباب منيع بالحديد مضبَّب
فإن تعجبى يا عاج مما أصابنى
ففى ريب هذا الدهر ما يتعجّب

تركت رشاد الامر إذ كنت قادرا
عليه فلاقيت الذى كنت أرهب
وكم قائل انج ويحك سالما
ففى الأرض عنهم مستراد ومذهب
فقلت له إن الفرار مذلة
ونفسى على الاسواء أحلى وأطيب
سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى
وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتا بى فإنه
سينهل فى كأسى وشيكا ويشرب

ثم بعث فيه الأمير ليلا فقتله ونهب ماله وسجن أولاده وألزمهم غرم مائتى ألف دينار فلم يزالوا فى السجن والغرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله فاطلقهم وردّ إليهم ضياعهم.

وفى سنة ٢٧٣ كانت الوقعة على أهل طليطلة وكانوا قد جيّشوا البربر المنفيين من ترحيله فقتل منهم ألوف.

وفى سنة ٢٧٤ خرج الأمير المنذر بجيوشه إلى عمر بن حفصون فافتتح حصونه بريّة... وحاصر أرجُدونة إلى أن نبذوا طاعة رئيسهم عيشون واسلموه إلى الأمير المنذر فدخلها وافتتح حصون بنى مطروح بجبل باغه وأسر منهم اثنين وعشرين رجلا وأرسل الأسرى إلى قرطبة فصلبوا جميعا وصلب مع عيشون فى الخشبة خنزير وكلب لأنه كان يقول: إذا ظفر بى فليصلبنى وليصلب عن يمينى خنزيرا وعن يسارى كلبا، ثم حاصر المنذر ابن حفصون وأخذ بمخنقه وسدّ افواه طرقه فأعمل الفكر فى الخديعة والمكر وأظهر الإنابة إلى طاعة الأمير على أن يكون عنده من خاصّة جنده وقطّان قرطبة بأهله وولده وأن يلحق ابناءه بمواليه

فأجابه الأمير إلى ما طلب... فسأله مائة بغل يجعل عليها جملة متاعه وعياله فأمر الأمير أن تقاد إليه البغال ومعها عشرة عرفاء ومائة وخمسون فارسا اكراما فأرسلها ابن حفصون إلى بُبُشْتر، لكن لما انفضّ جمع ذلك المعسكر ودخل الليل هرب عمر ابن حفصون إلى قلعته فلقى العرفاء فناصبهم القتال وأخذ منهم البغال وعاد إلى سيرته الأولى فاقسم الأمير المنذر أن يقصده ويحلّ عليه ولا يقبل منه أو يلقى بيده إليه، فجمع جنوده وأحدق بقلعة بيشتر ثلاثة وأربعين يوما حتى يئس ابن حفصون لكن أصابت المنذر علّة اكذبت نفسه وكدّرت أنسه فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب منابه، فلما حضره أسلم روحه إلى بارئه وعاد عبد الله بالعساكر إلى قرطبة ومعهم جمل يحمل المنذر فدفن مع أجداده وكانت وفاته منتصف شهر صفر من سنة ٢٧٥ وهو ابن ست وأربعين سنة وملك نحو سنتين.

ويؤخذ من دوزى ما تعريبه مع تصرف أن المنذر بعد أن عاد من الحامة إلى قرطبة لوفاة أبيه محمد اغتنم عمر بن حفصون من هذه الحادثة توسيع سلطانه فدعا أصحاب الحصون (التى بينه وبين الساحل) إلى أن يتبعوه فأطاعوه ورضوا به جميعا أن يكون ملكا عليهم، ومن ذلك الحين صار الملك الحقيقى للجنوب ومع هذا وجد فى السلطان الصاعد على كرسى الملك قرنا شهما يحول بينه وبين ما يشتهى يقول عنه الأمويون: لو عاش سنة زائدة لاضطر عصاة الجنوب إلى القاء السلاح فقد قاومت جنوده العصاة مقاومة شديدة حتى إن أقاليم قبرة وإلبيرة وجيّان صارت ميادين حروب دموية يتعاقب فيها النصر والخذلان، ففى ربيع سنة ٨٨٨ للميلاد سار المنذر بنفسه نحو الثائرين واستولى على بعض الحصون وعاث فى ضواحى بُبشتر وحاصر أرْشذونة[1] وفيها عيشون وكان شديد البأس يثق بشجاعته

(١) وفى ابن عذارى أرجذونة قال ياقوت: أرشذونة مدينة بالاندلس معدودة فى أعمال رية قبلى قرطبة بينهما عشرون فرسخا وقال أرجذونة: مدينة بالاندلس قال ابن حوقل: رية كورة عظيمة مدينتها أرجذونة فيها كان عمرو بن حفصون الخارج على بنى أمية. اهـ. فهل مدينتان أو مدينة واحدة تسمى أرجذونة أو أرشذونة.

فى القتال لا يقوى أحد على منازلته حتى كان يقول: إذا ظفر بى السلطان فليصلبنى وليصلب على يمينى خنزيرا وعلى يسارى كلبا ـ فاته أن السلطان عنده وسيلة للقبض عليه أقوى من قوة السلاح فقد دسّ إليه بعض أهل المدينة بأن يحتالوا فى أخذه فوعدوه بأن يسلّموه إليه حيّا ففى يوم دخل عيشون مسكن أحدهم وهو أعزل فكلبوه بالحديد وسلّموه إلى السلطان فصلبه بالطّريقة التى رسمها لنفسه وبعدئذ سلمت أُرشذونة، ثم ظفر السلطان ببنى مطروح الثلاثة وفتح حصونهم بجبل باغة وأسر معهم تسعة عشر من عمّالهم وصلب الاثنين والعشرين فى قرطبة، وبعد ذلك حاصر بيشتر حتى ضاق ابن حفصون ذرعا من الحصار ولم يجد وسيلة إلى الخلاص إلا الخداع فعرض الصلح على المنذر قائلا له: أسكن قرطبة أنا وأهلى وأكون أحد قوّاد جيشك وأبنائى مواليك، غرّ المنذر هذا الكلام وأحضر من قرطبة القاضى والعلماء ليحرروا عقد الصلح، كما عرض ابن حفصون ففعلوا ـ وبعدئذ حضر ابن حفصون إلى السلطان والتمس منه أن يبعث إلى بُيشتر بمائة بغل ليحمل عليها أثقاله إلى قرطبة فأرسل إلى قلعته ما طلب ومائة وخمسين فارسا وعشرة حرّاس من الضباط ورحل الجيش المحاصر إلى قرطبة لكن ابن حفصون ترقب جنان الظلام وغفلة الاحراس وفرّ إلى حصنه وتبعه جنده وهجم على الحراس وانتزع البغال منهم ـ كاد المنذر يتميز من الغيظ من فعلة ابن حفصون فاقسم أن يعود إلى حصار قلعته ويأخذ بخناقه ولكن حال الموت دون أن يَبَرَّ بقسمه فقد اختطفته يد المنون أثناء الحصار فى ٢٩ يونيو سنة ٨٨٨ (منتصف صفر سنة ٢٧٥).

ويؤخذ من رومى وكندى ما تعريبه مع تصرف أن المنذر لما جاء من المريّة إلى قرطبة لأخذ البيعة دخل بملابس السفر فى البهو المعدّ للاحتفال بجنازة أبيه فقام الحاجب هاشم بن عبد العزيز وأخذ يقرأ كتاب تولية المنذر كالعادة حتى وصل إلى ذكر محمد فحزن عليه وفاضت عبراته وعلا نحيبه وعقد لسانه وكاد

الحضـور لا يسمعـون صوته حتى اضطروه إلـى إعادة ما قرأ وقـد نظر المنذر إلى ذلك بعـين الغضب والسـخط ولمـا جيء بالنعش إلى القـبر هلع هاشم هلعـا غيـر مزلوف حتى خلع رداءه ونزع عمامته وصاح يندب محمدا قائلا: «وامحمداه ليتنى كنت معك فإنى سأسقى كأس الحمـام من أجلك» فَأحْفَظَ هذا الأميرَ الجديد ومع ذلك بقى هاشم فى حجابته ولكنه يئس من سعادة مستقبله.

فى هذه الأثناء اسـتولى غـالب بن حفـصون على اسـبانيـا الشرقـية وآلت إلـيه سـرقسطة ووشـقه وبواسطة الجـبليين امـتـدت سلطته على جـميع الأرضـين التى يسقيهـا نهر (ابرة) من الشاطئين ما عدا طرطوشة وعندئذ جـمع عشرة آلاف فارس فوق ما عنـده من المشاة وسار بهم إلى طليطلة، حـتى دخلها وقد ساعـده نصاراها ونادوا به ملكا عليهم ثم ملك قلاع نهـر التاجه وأقام حرّاسا عليـها يهددون سلطان الأمـير، فـأرسل المنذر جيـشـا تحت إمرة هاشم (الذى يـكرهه باطنا من جَرّاء مـا ذكرناه سابقا) فاسرع الخطى حتى بلغ تخوم طليطلة وحاصرها بشدة.

رأى غالب أنه لا يقوى على الجيش المحـاصر فطلب مددا من حلفائه ولأجل أن يوجد زمنا كافيا لمجيء المدد إليه عمد إلى الخديعة فعرض على هاشم الصلح بأنه يسلمه المدينة وينسـحب إلى أسبانيا الشرقـية، غير أنه يحتاج إلى بغـال ليحمل عليها جرحاه وأقواته التى فى مخازن طليطلة وأنه ما جاءها إلا مخدوعا من نصاراها وأشرار مسلميها فاعـتقد هاشم صدق هذا القول وتوسط لدى المنذر فى أن يمنح ابن حفصون ما طلب ناظرا إلى أن فى هذا الاتفـاق حسم حرب أهليّة دمويّة طويلة مرتاب فى عـاقبتهًا ـ فـردّ عليه[1] الملك يحـذّره خداع الثعـلب الماكر غـالب بن حفصون ـ ومع هذا التحذير ما زال هاشم ظانّا صدق غالب فكتب إلى الملك ينبئه أن ليس فى الأمر كبـير خطر وأن الثائر إذا أخذ البغال وحـمّلها وأبى تسليم المدينة حاربناه وإذا سلّمها أمنّا شر حرب خسائرها فادحة وإن كتب لنا النصر.

(١) من كلام كندى وهو يعبر عن امراء بنى أمية فى الاندلس بالملوك.

وبعدئذ أعطى هاشم غالبا دوابّ الحمل التى طلبها فأخرج قسما عظيما من جيشه من طليطلة وأخفى باقى الجيش فيها ـ وحمّل البغال بالجرحى والذخائر موهما أنه وأتباعه تاركون المدينة حسب الاتفاق وقد احتلها فى الحال بعض جنود الاندلس تحت إمرة وال مخلص للامويين ـ حينئذ عاد هاشم وجيشه إلى قرطبة وهنّأ الأمير بما تمّ وما درى أن هذا ما كان إلا خداعا من ابن حفصون فإنه بمجرّد ما علم برحيل عساكر قرطبة وبقرب مجيء النجدة من حلفائه الجبليين أشعل نار الحرب وتمكن من دخول طليطلة بواسطة أهلها وجنوده المختبئين وآل الأمر إلى أن استولى بسهولة على القلاع التى على شاطئ نهر التاجة الإيسر وبذلك امتدت سلطته على اسبانيا الوسطى.

جاءت الرسائل تنبئ الملك بحركات ابن حفصون هذه فأخذها هاشم من حامليها وكان خارجا من منزله مع ابنه عمر وفضّها وقرأها، لما علم المنذر بالأمر امتلأ غضبا وسخطا على هاشم وأرسل إليه كوكبة من الخيل تجيء به فدخل رسول إليه فى قصره ورأى أناسًا قد اقتربوا منه للسلام عليه فمنعهم قائلا لهم: «أنتم مخطئون ليس هذا الشخص الجدير بالاحترام» أدرك هاشم الأمر المرسل إليه من الملك فلم يفه ببنت شفة، بل أُركِبَ حصانا صعب القياد سريع الخُطَى وسارت الكوكبة حتى بلغت باب المدينة فجفل الحصان وألقى بصاحبه على الأرض مغشيًا عليه زمنا، ولما حضر مجلس المنذر صاح فيه قائلا: «أنت الذى أشرت علىّ بهذه المتاركة أنت الذى ساعدت العاصى على خيانته لا بد من قتلك اليوم حتى تكون عبرة لغيرك» وقطع رأسه فى ساحة القصر فى ٢٦ شوال سنة ٢٧٣ (٢٥ مارس سنة ٨٨٧) وقيل: حبسه أياما قبل قتله وعزل ولديه عمر وأحمد من ولايتى جيّان وأُبَدَة[1] Ubéda وسجنهما وصادرهما فى مالهما.

(١) قال ياقوت: ابدة بالضم ثم الفتح والتشديد مدينة بالأندلس من كورة جيان.

وعقب ذلك أمر قواد الاندلس وماردة بجمع الرايات واللحاق به نحو طليطلة وفى اليوم الثانى توجه مع جنود حرسه وأخيه عبد الله، عَلِم أحزاب ابن حفصون بتوجه المنذر إليهم فلم يجرءوا على مقابلته بل بقى بعضهم فى طليطلة وبعضهم فى قلاع إقليمها، فكلّف الأمير أخاه عبد الله بحصار المدينة وأخذ هو يتعقب العصاة ومساعديهم وقاتلهم حتى تمكن من طرد بعضهم من القلاع التى كانوا يحتلونها على نهر التاجة، وأحرق بعض القرى التى تحصن فيها النصارى واستمرّ القتال أكثر من سنة حتى دخلت سنة ٢٧٥ فكان المنذر يجتهد فى إيجاد معركة تكون حاسمة بَيْد أن ابن حفصون كان يتجنب بحذق مقابلة جنود الاندلس، ففى يوم اكتشف المنذر وهو فى عدد قليل من الفرسان جيشا كثيفا من العصاة معسكرا على ربوة قريبة من حصن وَبْذَى[١] Webda فدفعته شجاعته وحمّيته أن يلقى بنفسه وفئته القليلة بين أعدائه الكثيرين غير مبال بكثرة عددهم ولا منعة موقعهم. فتقهقروا أولا ثم ارتدّوا وأحدقوا بفرسان الأندلس فقاتلوا بشجاعة فائقة حتى قتل كثير منهم وأصيب المنذر بعدة رماح فسقط صريعا فى ميدان القتال وذاع الخبر بأن الأمير قتل فظنّ جيش غالب أن المقتول قائدهم ففرّوا من ساحة الوغى ولم يمكن بقية جيش قرطبة أن تتبعهم لقلة العدد ودخول الليل.

وكان موت المنذر فى صفر سنة ٢٧٥ (يوليو سنة ٨٨٨) لنحو سنتين من حكمه.

لما علم عبدُ الله بموت أخيه رجع إلى قرطبة حيث تمت له البيعة.

٧- عبد الله بن محمد (من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٣٠٠ للهجرة):

ولى عبد الله بن محمد إمارة الاندلس وعمره نحو ٤٥[٢] سنة فقد ولدته

(١) قال ياقوت: وبذى مدينة بالأندلس قرب طليطلة.

(٢) يقول ابن الأثير: إنه بويع وعمره ٤٢.

أمه[١] سنة ٢٣٠[٢] وبويع يوم السبت منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ وكان يوم وفاة أخيه المنذر عند حصار بُبَشْتر أو طليطلة كما تبين قبل.

صعد على كرسى الإمارة ودعائمها تكاد أن تنقض فقد كثر فى أنحائها قيام الثوّار وتغلبوا على الكور والمدن وامتنعوا من أداء الخراج[٣] لكن انقطع قتال الفرنج والجلالقة ولولا ذلك لساءت العقبى وتقلص ظل مملكة الأمويين فى أسبانيا.

من الاطلاع على ما قاله المؤرخون فى حياة الأمير عبد الله نرى أن ليس فى أقوالها تطابق بل اختلاف كثير يدل على تناقض الحوادث وزيادة بعضها فى موضع ونقصها فى آخر، وذلك لا يؤدّى إلى الحقيقة إلا على وجه مجمل فيؤخذ من كندى ورومى:

١- أن عبد الله فى مبدأ حكمه غزا ابن حفصون فى كورة طليطلة على نهر التاجة.

٢- وأن له ولدين محمدا وعبد الرحمن المظفّر وأن الأول كان والى اشبيلية وعصى أباه، والثانى جاءه ليردّه عن عصيانه فأبى فحاربه وأسره وأكرمه وعنى بجروحه وحبسه فى قلعة فى اشبيلية، وأن محمدا مات فى محبسه من الجروح ولم يمت مسموما.

٣- وأن عبد الله غزا سوارا وأسره فى كورة البيرة وقطع رأسه وأرسله إلى قرطبة.

---

(١) يقول ابن الأثير: إنها أم ولد واسمها عشار ويقول ابن عذارى: إن أمه كانت تسمى بهار أو عشار ويكتب كندى اسم الأم Athara.

(٢) كذا فى كندى ويقول رومى: إنه ولد سنة ٢٣٨ ويقول ابن عذارى: إنه ولد فى نصف ربيع الآخر سنة ٢٢٩ ويخطئ رومى كندى فى أن الولادة كانت سنة ٢٥٠ مع أن الذى قاله كندى سنة ٢٣٠ كما ذكرناه.

(٣) قال ابن خلدون: كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيوش ومائة ألف للنفقة والنوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفرا فأنفقوا الوفر فى تلك السنين..

ويؤخذ من ابن خلدون وابن عذارى ودوزى ما يخالف ذلك فلم يجئ فيها غزو طليطلة فى مبدأ حكم عبد الله بل جاء فيها غزوة (بَلِّى) وأن ولدى عبد الله هما محمد والمطرّف (لا المظفر) وأن الأول ذهب مغاضبا من قرطبة إلى ابن حفصون فاسترضاه والده فعاد إلى قرطبة وحبس فى القصر حتى قتله أخوه وإن الذى قتل سوارا هو جعد وجيء بالجثة إلى مدينة إلبيرة فقطعت.

هذا بعض ما اختلفوا فيه ولبيان ذلك مفصّلا نقول يستخلص من كندى ورومى ما يأتى:

بعد موت المنذر أمر أخوه عبد الله الذى كان يتولّى حصار طليطلة قوّاده أن يستمروا على الحصار وتوجّه إلى قرطبة ومعه كوكبة من الفرسان المخلصين له فبلغها فى الوقت الذى اجتمع فيه مجلس الشورى إثر ورود النبأ بموت أخيه المنذر لينظر فى الأمر، فحضر عبد الله المجلس فقام أعضاؤه لمنظره وأعلنوا إمارته وحلفوا له يمين الطاعة، فأول عمل بدأ به أن أمر بنقل جثة أخيه إلى قرطبة وإقامة الشعائر اللائقة بجنازته وكلّف أخاه يعقوب باتمام ذلك.

كان عبد الله جميل الصورة أزرق العينين معتدل القامة فطنا ذا علم وشجاعة.

فى أول يوم من حكمه أطلق سراح ابنى هاشم بن عبد العزيز وسراح معلمهما جابر بن غيث اللبلى وكان من مشاهير علماء ذلك العصر وردّ إليهم أموالهم.

جذبت هذه المكارم أهل قرطبة إلى محبته فإن ابنى هاشم كانا محبوبين كثيرا عندهم وفوق ذلك ولى الأمير عبد الله عمر بن هاشم ولاية جيّان التى كانت مع أبيه وأقام أحمد بن هاشم رئيس حرسه ـ هذه المكارم وإن أرضت أهل قرطبة لكنها أغضبت أسرة الأمير ولا سيما ابنه محمد والى اشبيلية وقد أدّى ذلك إلى ثورة شغلت الأمير عن الاستمرار فى قتال ابن حفصون وإلى أن ابنه محمدا وأخويه الأصبغ والقاسم والى شريش وشذونة شقوا عصا الطاعة فى جنوب الأندلس

وانضم إليهم ولاة وقوّاد آخرون وثاروا على والى جيّان عمر بن هاشم الذى استولى على كرسى الولاية منذ أيام.

صار الأمير عبد الله مهدّدا من ابنه من جهة ومن ابن حفصون من أخرى فكان واقعا بين نارين، فقسم قواه إلى قسمن أرسل قسما إلى اشبيلية تحت إمرة ابنه الطائع عبد الرحمن المظفّر كى يردّ أخاه عن غيّه وتوجه الأمير نفسه بالقسم الآخر إلى طليطلة، لكن فى هذه الأثناء جاءه نبأ ثورتين إحداهما من والى اشبونة والأخرى من قاضى ماردة فالأول قام على الولاة المحافظين على نهر دويرة فأمر الأمير عبد الله وزيره أبا عثمان عبيد الله بن أبى عبدة معلم ابنه المظفّر أن يأخذ القوة البحريّة المجهزة فى ولبة واكشونية[1] وينقضّ بها على الوالى الثائر ـ والثانى سليمان بن أنس بن الباجة أثار أهل ماردة على واليها حتى طردوه واستقل هو بولايتها فعرّج الأمير (أثناء توجهه إلى حصار طليطلة) على ماردة ودخلها فجأة بجيوشه الجرّارة، فتضرع إليه القاضى الثائر ملتمسا العفو فعفا عنه لشبابه واستعداده وصفح عن شركائه أيضا، ثم عاد الأمير إلى متابعة سيره نحو طليطلة التى كانت فى يد ابن حفصون حتى فاجأه فى سهل على نهر التاجة فاقتتل الفريقان وانتصر فرسان قرطبة وانهزم أعداؤهم وسقط كثير منهم فى النهر فغرقوا وحال دون القتال دخول الليل.

استمرّت المعارك فى اسبانيا الوسطى ولكن بدون نتائج حاسمة للنزاع ـ حينئذ جاء الأمير عبد الله كتاب من ابنه المظفّر ينبئه أن المفاوضات بينه وبين أخيه محمد لم تنجح وأنه تجيئه قوى من الثائرين وأنه يخشى أن محمدا يجعل وجهته قرطبة وأنّ كورة جيّان مشتعلة فيها نارا لهيجان من تعدّى شركاء أخيه وأنه يرى أن يترك حصار طليطلة لقوّاده ويرجع سريعا إلى قرطبة ـ لهذا عاد الأمير إلى قرطبة لينظر

(١) فى نزهة المشتاق ولبة مدينة مطلة على جزيرة شلطيش وقال ياقوت: اكشونية مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل اشبونة وهى غربى قرطبة وهى مدينة كثيرة الخيرات بريّة بحرية يلقى بحرها على ساحلها العنبر.

بنفسه فى إخضاع ابنه العاصى وقد آلمه ترك قتال ابن حفصون وأخذه فى محاربة ابنه ولكن لطّف آلامه أن جاءه من أبى عثمان ما يبنئ بانتصاره فى لوزيتانيا واخماده نار الثورة فيها وقتله والى اشبونة الثائر ومن تبعه من الولاة الآخرين.

فى تلك الآونة ارتبكت أحوال الأندلس ارتباكا شديدا إذ أصبح ميدانا للمعارك ومنازعات القبائل الفاتحة وغيرها، فإن رؤساء الكور الأندلسية اتخذوا سريان الفتن والشقاق بين الأسرة المالكة وسيلة لنيل غرضهم وهو التفرّد بما فى أيديهم من المدن والأقاليم ولم يقفوا عند هذا الحد بل اعتدوا على الكور الخاصة بقرطبة ووجهوا عنايتهم إلى استئصال الدولة الأموية من أسبانيا.

فى ذلك الوقت كان غالب بن حفصون[١] يعلم اضطراب المملكة وقيام القلاقل فى أنحاء الأندلس فقويت آماله فوجّه عبد الله بن أميّة لينهب كورة جيّان وهذا ضمّ إلى قوى سوار[٢] ابن حمدون القيسى وكانت سبعة آلاف رجل واستولوا معا على مواقع من إقليم جيّان ونهبوها ثم انضم إليهم أتباع يحيى بن صقالة أمير العرب وكذا انضم إليهم جيش حزب المولّدين وكان ستة آلاف رجل من العرب والنصارى استأجرهم رؤساؤهم الأغنياء، وهذه الجيوش استولت على بعض القلاع وزحفت إلى الأمام فى البرارى التى فى جنوب النهر الكبير فسيّر الملك إليهم جعد بن عبد الغافر والى جيّان[٣] فحاربهم لكنه انهزم وخسر سبعة آلاف من رجاله ووقع هو وكثير من قوّاد جيشه أسرى فى أيدى الأعداء فقادوهم

(١) كذا يقول رومى: وأما كندى فيقول: هنا (حفصون بن أربوس).

(٢) كان سوار أحد رؤساء القبائل الأقوياء فى شرقى الاندلس وكان عدوّا لدوداً للسوريين فى قرطبة فإن الأمويين منهم اختصوا بالرياسة دون غيرهم وقد أنشأ أو كبر عدة مدن فى جنوب وغرب نهر شنيل مثل الحمراء وبياسة ووادى آش ـ والقلاع التى بناها هو والرؤساء الثائرون فى جنوب غرناطة كانت تسمى برجالة Bordjêla أى القصور المتحدة (لعلها بروج الله) وحرف الاسبانيون هذه الكلمة وقالوا البجراس Alpujarras.

(٣) كذا فى كندى ورومى فلاحظه وقابله بما يأتى.

إلى برجالة، أى القلاع الجديدة لغرناطة فى غربى مدينة البيرة[١] وقد قوّى هذا النصر اطماع العصاة فانتشروا فى جميع الكور وأخذوا وشقة وجيّان وريّة وارشذونة وإقليم إلبيرة إلى قلعة رباح وكانت هذه الواقعة فى نهاية سنة ٢٧٦ (إبريل سنة ٨٩٠).

لما بلغ الملك عبد الله خبر تلك الحوادث المحزنة أقسم أنه لا يعود إلى عاصمته إلا بعد أن يبيد هذه العصابات، فجمع جنود الأندلس وفرسان حرسه وسلّم قيادة المشاة والرماة إلى عبد الرحمن ابن بدر وكان قائدا ضاريا بالحروب فى الجبال ـ وطئ الملك بجيشه أرض جيّان فقابله فئات من العصاة فبدّد شملهم وانهزموا واقتفى آثارهم نحو الجنوب حتى أدرك سوارا عند سفح برجالة ومعه قومه العرب وأقوام من إلبيرة والحمراء وغرناطة فدارت رحى الحرب وجرح سوار وأسر وسيق أمام الملك، فأمر بقطع رأسه فقطع وأرسل إلى قرطبة وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٧٧ (يونية أو يولية سنة ٨٩٠) وقد أكّد ابن حيّان أنه قتل فى هذه الواقعة المسماة بواقعة مدينة البيرة اثنا عشر ألفا منهم يحيى بن صقالة أمير العرب اليمانيين.

بعد قتل سوار بن حمدون أقام العصاة رئيسا عليهم سوريّا قنّسريّا يسمى سعيد ابن جودى ـ كان على جانب عظيم من الشجاعة والجراءة لكن يعوزه الحزم ـ وثق بشجاعة أتباعه فألقى بهم إلى سهول غرناطة ولوشة وقاتلوا جيش الملك فدحروا وولّوا الفرار وجرح رئيسهم وأسر وسملت عيناه بالحديد المحمىّ وقطع رأسه فى ثالث يوم[٢] وأرسل إلى قرطبة.

---

(١) يقول رومى ربما كانت هذه المبادئ الحقيقة لمدينة غرناطة.

(٢) كذا فى كندى وفيه نظر فإن سعيد بن سليمان بن جودى سيأتى ذكر قتله فى سنة ٢٨٤ فيحتمل أن قتله فى هذه الواقعة غير صحيح أو أن سعيدا هنا غير سعيد هناك ولذا قال رومى: إن الرئيس المختار هنا أو سعيد بن سليمان بن جودى الذى رثا سوارا وفى قوله نظر أيضا لأنه كيف يكون سعيد بن جودى أخا سعيد بن سليمان بن جودى؟ (يكون الأول عم الثانى لا أخاه).

بعد ذلك اجتمع الباقون من جيش العصاة فى إلبيرة وانتخبوا رئيسا عليهم محمد بن أضحى الفارسى صاحب حصن الحامة[١]، لكنه كان أقل جراءة من سابقه فالتجأ برجاله إلى جبال انتقيرة وغرناطة ورندة فاختبأ فيها متجنبا قتال جنود عبد الله ـ حينئذ أشار الوالى عبد الرحمن بن بدر على الملك أن يترك هؤلاء قطّاع الطرق ويعود إلى قرطبة عاصمة مملكته، فعاد إليها بعد أن ترك قوة اعتقدها كافية لكبح جماح الثوّار[٢]، بعد أن عاد عبد الله إلى قرطبة أرسل قوة عظيمة من الفرسان إلى ابنه المظفّر كى يردّ أخاه محمدا إلى الطاعة فبهذه القوة أمكن أن ينتزع من أخيه مدينتى اشبيلية وقرمونة وأخذ يقتفى أثره حتى أدركه فى إقليم الشرف غرب اشبيلية وكان بينهما واقعة هائلة احتدم قتالها بين الفريقين، فقد كان فى فريق محمد شجعان شريس وأركش وشذونة وفى فريق المظفر شجعان قرطبة واستجة وقرمونة واشبيلية لكن آل العراك إلى نصرة جيش قرطبة وقتل حصان محمد وأصابته بجروح مؤلمة منعته من أن ينهض فحمل إلى أخيه فأمر بالاعتناء به وتضميد جراحه وقد حلّ مثل ذلك بالقاسم أخى عبد الله فأخذ مغطّى بالجروح وجيء به إلى ابن أخيه فاعتنى بشأنه وجيء بالمجروحين إلى اشبيلية وحبسا فى قلعة مات فيها محمد بعد أيام قلائل من جراحه ومن حزنه من أن يرى مقهورا.

يزعم بعضهم أنه مات مسموما ولذا كانوا يلقبونه بالمقتول لكن هذا غير الواقع فقد أكد الكاتبون أنه ما مات إلا من جروحه فى ١٠ شوال سنة ٢٨٢ (٣ ديسمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن ثمان وعشرين سنة[٣] وترك ولدا عمره أربع سنين يسمى عبد الرحمن وكانوا يلقبونه بابن المقتول وقد جعل الله له شأنا عظيما كما سيجىء.

(١) فى هامش رومى مدينة الحمامات La ville des bains.

(٢) يقول ابن عذارى (ص ١٣٩ ج٢) أن ابن أضحى تولى أمر العرب بجان البيرة مطيعا للأمير عبد الله فحارب ابن حفصون فأسره هذا فقداه العرب بمال جسيم.

(٣) كذا يقول كندى ويقول رومى: إنه كان ابن سبع وعشرين سنة.

عقب هذه الواقعة ولّى عبد الله ولاة فى شريش واسطبة وشذونة فى السنة عينها أى سنة ٢٨٢ قام شقاق بين الوزير عبد الملك[١] والوالى عمر بن هاشم أدّى إلى مبارزتهما وقتل الأول الثانى ـ بعد أيام قلائل اقتص المطرف بن الملك محمد[٢] لعمر بن هاشم فقتل عبد الملك على مسافة ميلين من اشبيلية وولّى مكانه أحمد بن هاشم أخا عمر المقتول وولّى الملك عمل عبد الملك ابنه مروان ـ فى رمضان هذه السنة قتل المطرف غيلة ليلا فى الطريق وكان ابن أربع وعشرين سنة وكانت خصاله الحميدة تجعله فى منزلة عالية فوق أقرانه الشبان.

توجهت الظنون إلى أن القاتل مروان بن عبد الملك للعداوة المعروفة بينهما فسيق إلى القضاء، ويظهر أنه قام ما يثبت التهمة عليه ولم يستطع أن يبرّئ نفسه فحكم عليه بالسجن فسجن إلى أن مات سنة ٢٨٤.

رجع إلى ما بعد واقعة إلبيرة:

بعد أن قتل سوار بن حمدون رثاه سعيد بن سليمان بن جودى بقصيدة منها ما معناه:

(فى جبال البيرة تكسر سيف سوار السيف الذى ألبس نساء قرطبة ثياب الحداد السيف الذى سقى الاعداء كئوس المنون).

وبعد ذلك انضم سعيد إلى غالب بن حفصون، فإن سعيدا هذا كان من حزب المولّدين وكان يقال: إنه جمع من صفات الأشراف عشر صفات: الكرم والشجاعة والفراسة والعفو والشعر والفصاحة والقوة والمهارة فى الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمى بالقوس.

لا يعلم السبب الذى أدّى فى ذلك الوقت إلى وقوع خلاف بينه وبين ابن

(١) يقول كندى: إن عبد الملك كان وزيرا وقائدا وأن عمر كان واليا ويقول رومى: إن الأول كان والى قرمونة والثانى والى جيان ويقولان أن الأول ابن عبد الله ويقول غيرهما إنه ابن أمية.

(٢) يقول كندى ورومى: إن المطرف كان ابن الملك محمد ويقول غيرهما أنه كان ابن الأمير عبد الله وإنه هو الذى كان يخاصم محمدا لا «المظفر».

حفصون حتى إن الأول دعا الثانى إلى المبارزة فامتنع لكن سعيد فاجأه يوما فى الميدان فأوقعه عن قربوسه وكاد يقتله لولا أن أدركه أتباعه[١] نشأ عن الخلاف بينهما أن عاد سعيد إلى طاعة الملك عبد الله فولاّه كورة إلبيرة ولكن قتله اغتيالا بعض أتباعه فى شهر ذى القعدة سنة ٢٨٤[٢].

وفى سنة ٢٨٥ أجدبت الأرض فلم تنبت فنجم عن اجدابها مجاعة عمّت أسبانيا وأفريقية وأضرت بالناس ولا سيما الفقراء وأعقبها وباء فتك بالخلق فتكا ذريعا حتى إنهم كانوا يدفنون جملة من جثث الموتى فى قبر واحد ولا يستطيعون أن يحفروا حُفَرا كافية بقدر عدد الأموات وكانوا يدفنونهم بدون غسل وكان المشرفون على الموت يذهبون بأنفسهم إلى المقابر.

كانت تقع هذه الحوادث والسلم ضارب أطنابه بين أذفونش الثالث وعبد الله ولم يقطع روابط المودّة بينهما إلا حادثة غريبة وهى أنه كان فى حزب غالب بن حفصون أمير مولّد ذو قربى من بنى أمية يسمى أحمد بن معاوية ويكنى بأبى القاسم أخذ من ابن حفصون السلاطة العليا على إقليم طليطلة وطلبيرة ووجّه عزيمته إلى أن يأخذ من النصارى سمّورة ويلجئهم إلى شمال نهر دويرة، فجمع نحو ستين ألفا من المشاة والفرسان منهم بربر مستأجرون وهجم على مدن الحدود بدون تفرقة بين مدن النصارى ومدن المسلمين ونهبها وألجأ النصارى إلى مدينة سمّورة فتحصنوا بها مستصرخين بنى دينهم فحاصرهم بها وأخبر قواد الحدود الملكين عبد الله واذفونش بإغارة هذا الثائر، فجاء اذفونش بجيشه إلى برارى سمّورة والتقى الجمعان واقتتل الفريقان نحو أربعة أيام، وفى اليوم الرابع ترك فرسان البربر ميدان القتال لكن مسلمى أسبانيا الشرقية وإقليم طليطلة ثبتوا حتى إن قائدهم أحمد قتل فى المعركة فتفرقوا بدون نظام وقتل منهم النصارى

(١) رومى ص ٧٤ وما بعدها ج٤.
(٢) كندى.

كثيرا وقطعوا رءوسهم وعلقوها على أبواب سمّورة وكانت هذه الواقعة سنة ٢٨٨ (٩٠١).

قد حرّكت هذه الواقعة نفوس المسلمين ورغبوا أن يثأروا النصارى بإخوانهم وأشاروا على عبد الله بذلك ولكنه خالفهم وأرسل القائد عبيد الله الغمرى والى أشبونة إلى أذفونش ليجدّد التحالف فنجح ـ هذا كله أغضب كثيرا من المسلمين من الملك عبد الله حتى إن خطباء الجوامع أسقطوا اسمه من خطبهم، وشاع ذلك فى اشبيلية بتحريض القاسم أخى عبد الله وخطبوا باسم الخليفة العباسى المعتضد بالله وكان القاسم يأمر الاشبيليين أن لا يدفعوا الزكاة إلى أخيه لأنه (كما يقول) مسلم ملحد.

لما بلغ الملك ذلك وحقّقه أمر بالقبض على القاسم وسجنه وقتل فى السجن مسموما سنة ٢٩٠ (٩٠٣) وأمر الملك بنفى كثير من العلماء بسبب ذلك.

كان ابن حفصون يسعى فى هدم دولة بنى أمية فى الاندلس وإقامة دولة يكون هو صاحب صولجانها ـ لهذا كان دائما يشعل نيران الثورات ويحدث القلاقل والاضطرابات فى حكومة الملك عبد الله ـ من ذلك أنه فى سنة ٢٩٣ كان يوجد متنكرا فى بَلىّ وفى قرطبة وبينهما عشرون ميلا لإحداث مؤامرة من أشياعه فى العاصمة كى يسقط الملك من عرشه وليهيّئ النفوس لما دبّر حرّك ألسنة كثيرين بذمّ عبد الله وقد ضبط شعر فيه هَجْوُه وبحث عن قائله حتى قبض عليه فظهر أنه سليمان بن الباجة الذى كان قاضى ماردة واغتصب ولايتها وعفا عنه الملك ـ لما مثل بين يديه استنكر منه مقابلة الإحسان بالإساءة فاضطرب وقبّل قدمى الملك وسأله العفو وأنبأه بأن الحامل له على الهجو هو ابن حفصون المختبئ الآن فى قرطبة وأفشى للملك أسرار مؤامرته وأنه على وشك دقّ ناقوس الثورة ـ عندئذ حبس سليمان خشية أن يطلع شركاءه على جلية الأمر ـ وبحث عن ابن حفصون فى المدينة فلم ير له أثر فيها، فإنه كان قد تزيّا بزى سائل وفرّ من قرطبة وقد قبض

على كثير من شيعته وعذبوا ليخبروا بأمره ـ لما هرب ابن حفصون من قرطبة توجه إلى كورة طليطلة حيث يقيم جيشه وأخذ يغير على إقليم قلعة رباح ولكن هزمه الوزير أبو عثمان عبيد الله الغمرى فى عدة مناوشات واستولى على عدة قلاع كان يحتلها جيشه ـ وفى سنة ٢٩٦ كان بينهما واقعة منتظمة قضى فيها أبو عثمان على فرسان غالب ومشاته والجأه إلى بعض حصون طليطلة حيث لم تقم له قائمة نحو ثلاث سنين.

فى هذه الاثناء سكّن المظفر اضطراب جنوب الاندلس فتوجهت عزيمته لأن يخضع طليطلة ـ لهذا الغرض التمس من والده أن يوليه حكومة ولاية ماردة بدلا من أبى عثمان فإنه قد بلغ من الكبر عتيا وينبغى له أن يصرف بقية عمره فى حياة هادئة فكره الملك أن يعزل هذا الشيخ الذى خدمه بإخلاص مرضاة لابنه لكن بلغ أبا عثمان فاستقال وجاء قرطبة فولاه الملك رياسة حرسه وكان مؤلفا من جنود صقالبة ذوى شجاعة وإخلاص لملكهم.

لما أخذ المظفّر بزمام ولاية ماردة وبقيادة الجيش أعدّ المعدّات بحميّة زائدة لقتال أشياع غالب بن حفصون فلم يجرءوا على أن يظهروا فى ميدان الوغى لأن المظفّر كان شديد البأس محافظا على النظام الحربى حتى كان يخشاه عسكره وعدوّه وكان نصيب الأسرى لديه إما ضرب الرقاب بالسيوف وإما طعن الصدور بالرماح.

وفى صفر سنة ٢٩٩ (سبتمبر ٩١١) ماتت الملكة أم الملك عبد الله فبكاها بكاء مرّا لأنه كانّ يحبها حبا جمّا واحتفل بجنازتها احتفالا شائقا ودفنت فى قبر فخيم مزين بالنقوش الجميلة بناه لها ابنها فى بساتين الرصافة ـ وقد أثر فيه حزنه عليها حتى إنه ما كان يفكر إلا فى اللحاق بها فبنى لنفسه قبرا بجانب قبرها، رأى نفسه سائرا فى طريق الموت فجمع الامراء والوزراء والولاة وأوصى بولاية عهد المملكة لحفيده عبد الرحمن بن محمد لأنه رأى أن القلوب قد اجتمعت على

حبه وأن فى ذلك حسما للنزاع بعد موته وقد أوصى ابنه المظفر بحماية ابن أخيه وتعضيده، فقبل وعمل بالوصاية[١].

وفى غرة ربيع الأول سنة ٣٠٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢) مات الملك عبد الله بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة ونصف[٢] شهر وعمره نحو سبعين[٣] سنة.

انتهى ما استخلصناه من كندى ورومى ويستخلص من غيرهما ما يأتى:

حوادث إلبيرة

إلبيرة[٤] مدينة فى الجنوب الشرقى من الاندلس عند جبال (نفادة) وقد نزل كورتها جند دمشق عقب الفتح الإسلامى، قيل: كانت إلبيرة هى المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجى مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ونهرها نهر شنيل وفى قبليّها جبل شلير لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء[٥] وقال ياقوت: إلبيرة كورة كبيرة بالأندلس ومدينة متصلة بأراضى كورة قبرة بين القبلة والشرق من قرطبة بينهما تسعون ميلا وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغرناطة[٦].

ويؤخذ من دوزى ما تعريبه:

أن دين النصرانية كان له سلطان كبير على قلوب أهل إلبيرة، فإن تعاليم قسوس رومة انتشرت فيها أوّلا أثناء ما كانت مدن اسبانيا الأخرى تائهة فى ظلمات عبادة الأوثان، وكان يكثر فى إلبيرة عدد النصارى والكنائس ويقل عدد المسلمين وكان بها جامع كبير رمى أساسه بعد الفتح حنش الصنعانى، أحد رفقاء موسى وأكمل

---

(١) من هذا يظهر أن المظفر غير المطرف الذى سبق قتله.

(٢) يقول ابن الأثير: كانت ولايته خمسا وعشرين سنة واحد عشر شهرا.

(٣) يقول كندى أنه كان ابن اثنتين وسبعين سنة وكأنه نسى قوله فى المبدأ أنه ولد سنة ٢٣٠.

(٤) همزتها همزة قطع فإن «ال» فى أولها ليست للتعريف فهى على وزن أخريطة أو كبريتة.

(٥) المقرى.

(٦) يقول دوزى فى أبحاثه (ص ٣٣ج ١) مدينة البيرة كانت تسمى قديما قسطيلية.

بناؤه فى عهد الأمير محمد وكذا كان يكثر فى إلبيرة الاسبانيون والمولّدون ويكثر فى كورتها العرب فإنهم كانوا لا يميلون أن يحبسوا أنفسهم بين جدران المدينة ولا أن يغيروا مساكن قطن فيها أسلافهم عساكر دمشق، وأيضا لم يكن فى إلبيرة ما يستهوى نفوسهم إلى سكناها فإنها كانت مؤسسة على صخور مجدبة لا تنبت زهرة فى الصيف ولا تسقط عليها قطعة ثلج فى الشتاء ـ ومع هذا كانوا يجيئونها يوم الجمعة لتأدية الصلاة فى جامعها متباهين بخيولهم الجميلة المزينة بالسروج واللجم ذات القيمة وكان لا يفوتهم أن يحتقروا الاسبانيين ويزدروهم وكانوا يسمونهم (المدينة السافلة) وكانت طبقة الأشراف فى إلبيرة وكورتها من العرب.

فى مبدأ حكم عبد الله اشتبك الاسبانيون والعرب فى حرب مهلكة حتى اضطر هؤلاء إلى أن يتركوا ضياعهم ويلتجئوا إلى حصن منت شيقر Monte Xicar فى شمال غرناطة الشرقى ويخربوا ضواحيه وكان رئيسهم يحيى بن صقالة من قبيلة قيس فجاء الاسبانيون والمولّدون تحت إمرة نابل وحصروهم وقتلوا كثيرا منهم واستولوا على الحصن فاضطر جيش العرب لضعفه إلى نزع السلاح وعقد اتفاق مع أعدائه ومع هذا بعد مضى عدة أيام فى المدينة هجم الاسبانيون على العرب فى ربيع سنة ٨٨٩ (أواخر ٢٧٥ أو أوائل ٢٧٦) وذبحوهم ورموا جثثهم فى بئر وقد فرح الاسبانيون بذلك فرحا عظيما حتى قال شاعرهم الأبلى[١] ما معناه:

(قد كسرنا نِّصال أعدائنا وخفضنا كبرياءهم ـ كانوا يسموننا المدينة السافلة لكن قد هددنا قواهم وهل بعد زمن تنتظر رممهم التى ألقيناها فى البئر من يثأر بها) وكان يحيى رئيس العرب من المقتولين.

عقب ذلك عمّت الفوضى عرب الأقاليم وساد الخصام بين المعدّيين

(١) نسبة إلى أبلة وهى قرية من وادى آش واسمه عبد الرحمن بن أحمد.

واليمنيين ففى إقليم إلبيرة اختلفوا أوّلا فيمن يكون رئيسا عليهم، ولكنهم لما رأوا الضرر فى الانشقاق اتفقوا أخيرا على اختيار سوار[١] القيسى بدل يحيى بن صقالة فكان هذا حاسما للنزاع حتى قيل: «لو لم يرزق الله العرب سوارا لانقرضوا».

كان سوار شيخا أشيب قتل ابنه الاسبانيون فعقد نيته على أن يثأر الاسبانيين بابنه وبالعرب المقتولين، فجمع ما أمكنه من العرب تحت رايته وتوجه بهم أولا إلى قلعة منت شيقر ليجعلها مركز أعماله الحربية واستولى عليها وقتل حاميتها وكانت ستة آلاف جندى وهاجم حصونا أخرى وأخذها، وقد جرّ هذا إلى قتل كثير من الأسبانيين حتى انقرضت سلالات منهم باجمعها ولم يكن لتركاتها وارث، فزع اسبانيو إلبيرة إلى والى إقليمها جعد[٢] واستمدوا معونته واعدين إيّاه بالطاعة فأجاب سؤلهم وزحف على سوار بجنوده خاصّة وبالاسبانيين فقاتلهم شيخ العرب بقدم ثابتة وكان القتال صعب المراس من الجانبين ولكن كانت العاقبة نصر العرب واقتفوا آثار أعدائهم الفارّين إلى أبواب إلبيرة وقتلوا منهم سبعة آلاف وأخذوا رئيسهم جعدا أسيرا ـ فرح العرب بالنصر وبأنهم قرّبوا كثيرا من الضحايا قربانا إلى روح يحيى...

بعد أن انتصر سوار انتصارا مشهورا حالف عرب ريّة وحيّان وقلعة رباح ثم عاد إلى نهب الاسبانيين والفتك بهم فلم يجدوا لهم سبيلا إلى السلام إلا الالتجاء إلى السلطان والتماس حمايته فأجاب سؤلهم وخاطب سوارا فى أن يعود إلى طاعته ويترك الاسبانيين فى سلام وهو يقلّده ادارة قسم واسع من الإقليم فأجاب سوار إلى ما دعاه إليه السلطان وصالح خصومه وأقسموا أيمان السلم ولكن لم يكن ذلك إلا سكونا كاذبا فإن النفوس ما زالت منطوية على ما انطوت عليه من

(١) استوطن هنيدة جده الرابع مرشانة Maracena من إقليم البلوط فى شمال غرناطة كذا فى هامش دوزى ج٢ ص ٢١٤ ويقول ياقوت: مرشانة مدينة من عمال قرمونة بالأندلس.

(٢) سبق فى كلام كندى ورومى أن جعدا كان والى جيان.

الاضغان، لما لم يجد سوار بجواره من الأعداء من يحاربه هاجم حلفاء واتباع ابن حفصون وبلغ أسماع أهل إلبيرة أصوات آلام بنى جلدتهم من سطوات سوار وشدائده فَحيِيَ شعورهم الوطنى وهبّوا جميعا وتبعهم سكان كورتهم وأخذوا عُدّتهم وهاجموا العرب وضربوهم حتى ألجأوهم إلى الحمراء[1] Alhambra بعد سبعة أيام رأوا الجيش الاسبانى المؤلف من عشرين ألف رجل متأهبا للهجوم من الشرق واضعًا آلاته الحربية على أكمة، حينئذ رأى سوار أن فى بقاء عساكره الشجعان فى القلعة خطراً عليهم فخرج بهم إلى مقابلة العدوّ واشتبك القتال بين الفريقين وفى أثناء ذلك توجه بدون أن يراه العدوّ إلى الأكمة وانقض على حاميتها انقضاض الصاعقة فبدّد شملها ـ لما رأى ذلك الاسبانيون الذين يقاتلون فى السهل ظنوا أن العرب جاءهم مدد فامتلأت قلوبهم رعبًا وانهزموا إلى إلبيرة وقتل منهم اثنا عشر ألفا وقيل سبعة آلاف وتسمَّى هذه الوقعة وقعة المدينة.

بعد هذه الوقعة المدّمرة لم يبق للاسبانيين عون يرجونه لشدتهم ويخضعون لرياسته إلا أحد أبناء جلدتهم عمر بن حفصون فاستنجدوا به فجاء إلبيرة ودخلها بجنده ونظم شئونها العسكرية وجمع تحت رايته حاميات الحصون المجاورة وأخذ فى المسير نحو سوار، ولكن هذا قد ضم إليه عرب جيّان وريّة فصار تحت امرته جيش عرمرم ملأه أملا فى أن يقهر ابن حفصون وقد تحقق أمله، فإن ابن حفصون خرج وفقد جملة من خيرة عساكره واضطر إلى أن يتقهقر وقد غضب غضبا شديدا من هذه الصدمة وأخذ يلوم أهل إلبيرة على سوء سلوكهم أثناء المعركة وفرض عليهم خراجا فادحا يؤدونه فى مقابلة نفقات هذه الحرب التى لم تكن إلاّ لمنفعتهم ثم عاد إلى بيشتر بعد أن أقام على إلبيرة حفص بن المر Moro ليدافع عنها.

بعد رحيل ابن حفصون استرسل سوار فى الهجوم فوقع فى كمين من أهل

(١) قال ياقوت: الحمراء اسم مدينة لبلة بالاندلس وهى مدينة قديمة فيها آثار عجيبة.

إلبيرة فقتلوه ونقلوا جثته إلى المدينة فعَلَتْ من النساء صيحات الفرح حين رأين مَن حرمهنّ من اخوتهن وأزواجهن وأولادهن مقتولا وليطفئنَ أوار الانتقام قطعت الجثة قطعا وابتلعنها[١].

بعد سوار أمر العرب عليهم سعيد بن جودى سنة ٨٩٠ فدخل إلبيرة وأخضعها، مدحه الأبلى الشاعر بأبيات فأجازه عليها، فلما ذهب نبّه عربى سعيداً إلى أن هذا الشاعر هو أكبر محرّض لقومه على العرب وهو القائل: «هل بعد زمن تنتظر رممهم التى ألقيناها فى البئر من يثأر بها» فأمر الأمير قريبا ليحيى بن صقالة أن يقتل الشاعر ويلقى جثته فى البئر ففعل ما أمر به فى الحال.

كان جد سعيد قاضى إلبيرة ثم ضابط قرطبة فى عهد الحكم الأول وكان مثال الفروسية العربية وكان معاصروه ينسبون إليه عشر صفات لا يحوزها إلا سيد فاضل (وقد سبق ذكرها).

حوادث أشبيلية:

اشبيلية مدينة عظيمة بالاندلس على ضفة النهر الكبير فى الجنوب الغربى لقرطبة نزل كورتها جند حمص كما نزل كورة إلبيرة جند دمشق ـ ومن أقاليمها إقليم الشرف وهو على جبل (قيل) إنه كريم التربة دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ طولا وعرضا لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (وقيل) إن ترابه أحمر، طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت وقال ياقوت يطل على اشبيلية جبل الشرف وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه ومما فاقت به على غيرها من نواحى الاندلس زراعة القطن ويتصل عملها بعمل لبلة وهى غربىّ قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا ـ وفى المقرى «أن باشبيلية

(١) سبق فى كندى ورومى أن سوارا أسر وسيق أمام الملك فأمر بقطع رأسه فقطع وأرسل إلى قرطبة فى أوائل سنة ٢٧٧.

أسواقا قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو أموال عظيمة وأكثر متاجرهم الزيت» وفى شرقى اشبيلية على مسافة سبعة فراسخ مدينة قرمونه.

ويؤخذ من دوزى أن اشبيلية كانت مركز علم وتمدن الرومان ومقر أُسَر الأشراف والأغنياء، لم يغيّر الفتح العربى شيئًا من نظامها الاجتماعى فقد سكنها قليل من العرب الفاتحين وأغلبهم فضل سكنى أقاليمها وما زالت سلالات الرومان والقوط هى أكثر السكان عددا فيها، وكانوا ذوى ثروات واسعات لاشتغالهم بالزراعة والتجارة والملاحة ـ كان كثير من السفن يردها ليحمل منها القطن والزيتون والتين من محصول أراضيها.

جحد أغلب الاشبيليين النصرانية وأسلموا وبنوا لهم جامعا كبيرا فى عهد عبد الرحمن الثانى لكنهم لم يغيّروا طباع عادات أسلافهم الاسبانيين وقد تخلق بأخلاقهم من خالطهم من العرب وساروا فى طريق تمدنهم فلا كانوا ينزعون إلى محاربة قبيلة أو جنس فكان مولدوهم على العموم هادئين مسالمين للسلطان يعتبرونه السند الطبيعى للنظام، ومع هذا كانوا يخشون عرب الأقاليم لمحافظتهم على طباعهم الأصلية وأوهامهم القديمة ونفورهم من غير بنى جنسهم وتمسكهم بأنساب أسلافهم الأقدمين وعدم إخلادهم إلى السكينة ـ لهذا كان هؤلاء العرب يترقبون الفرص أو دعوة من أشرافهم للفتك بالاشبيليين ونهب أموالهم، وكان الاشبيليّون يتوقعون منهم ذلك فكانوا يحتاطون خشية أن يأخذوهم على غرّة.

كان يوجد بين سلالات العرب الساكنين فى إقليم اشبيلية سلالتان ترأسان السلالات الأخرى وهما سلالة بنى حجّاج وسلالة بنى خلدون، فالسلالة الأولى وإن كانت عربية إلا أنها كانت من نسل غيطشة ملك القوط قبل رذريق فإن حفيدة هذا الملك المسماة سارة Sara تزوجت عميرا Omair من قبيلة لخم اليمنية فولدت له أربعة أولاد كانوا أصولا لسلالات عظيمة منها سلالة بنى حجّاج، وأما سلالة بنى خلدون فأصلها من حضرموت اليمن وأملاكها كانت فى إقليم الشرف

وكان من هذين البيتين زُرّاع وتجّار وملاّحون وأجناد وكانوا يسكنون أولا قصورهم في الرساتيق ثم سكنوا المدينة وبنوا فيها القصور الشامخة. اهـ.

في مبدأ حكم الأمير عبد الله بعث ابنه محمدا على اشبيلية سنة ٢٧٦ فثار به رؤساؤها وهم أميّة بن عبد الغافر (وكان جدّه أبو عبده عاملا عليها من قبل عبد الرحمن الداخل) وكريب من بني خلدون وأخوه خالد وعبد الله من بني حجّاج وحصروه في القصر واضطروه إلى العودة إلى قرطبة، فعاد في شهر جمادى الثانية من هذه السنة ثم استبدّ أميّة بولايتها ودس على عبد الله بن حجّاج من قتله فقام أخوه إبراهيم مقامه وظاهر بني خلدون على قتل أمية فقتلوه وكتبوا إلى الأمير إنهم ما قتلوه إلا لنبذه طاعته، فأرسل إليهم عمه هشام بن عبد الرحمن الثاني واليا على اشبيلية فحبسوه وقتلوا ابنه وتغلب كريب على الولاية[1].

وفي سنة ٢٨٢[2] أرسل الأمير عبد الله جيشا إلى اشبيلية تحت إمرة ابنه المطرّف ووزيره القائد عبد الملك بن أميّة وكان هذا وزير محمد الأول وابنه المنذر وهو الذي حرّضه على قتل وزيره هاشم بن عبد العزيز، وكان المطرف يبغض القائد لأنه كان يشير على أبيه أن لا يقلّده ولاية العهد بعد قتله أخاه محمدا ـ فلما قرب الجيش من اشبيلية قبض المطرف على ابن أمية وقتله وقدّم على قيادة العسكر أحمد بن هاشم وناشب أهل اشبيلية الحرب فانهزموا وقتل كثيرا منهم، وقبض المطرف على خالد بن حجّاج وإبراهيم بن خلدون وكبلهما بالحديد ثم سار إلى شذونة وكتب أمانا لأهلها فدانت له وقبض على واليها سليمان بن محمد بن عبد الملك وكبله بالحديد وضمّه إلى ابن خلدون وابن حجّاج وبعث بالثلاثة إلى قرطبة فسجنوا رهائن على أداء الخراج ففي السنة عينها أتت جباية اشبيلية

(١) انظر ثوّار اشبيلية في الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومقدمة دوزي لتاريخ ابن عذارى ص ٥٣ ولا يخفى ما في هذا من المغايرة لما سبق في تاريخ كندي ورومي.

(٢) كذا في ابن عذارى وفي ابن خلدون ٢٨٣.

وشذونة وأطلق سراح المسجونين ولكن ترك ابن حجّاج ابنه عبد الرحمن رهينة فى قرطبة.

اقتسم ولاية اشبيلية إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وبقيا كذلك أعواما وكان الثانى مستبدّا عسوفا فنفر منه الناس ومالوا إلى الأول لأنه كان رفيقا بهم ـ انتهز ابن حجاج فرصة ميل الناس إليه ونفورهم من قرينه فدّس إلى الأمير عبد الله يطلب الولاية ليشتدّ بكتابه على ابن خلدون فكتب له بذلك عهده فاظهر للعامة فثاروا جميعا بكريب فقتلوه وأخاه خالدا سنة ٢٧٦.

فاستقام لإبراهيم الأمر وحده فى اشبيلية والكور الملاصقة لها وحصّن مدينة قرمونة وجعلها مرتبط خيله ـ ولما قوى سلطانه وعظم شأنه طلب من الأمير اطلاق ولده الرهين فلم يسعفه فنبذ الطاعة وظاهر ابن حفصون ـ ولم يزل إبراهيم يرسل من يشير على الأمير بإطلاق ولده حتى أجاب وأطلقه وأعظم الإحسان إليه فعاد إبراهيم إلى الطاعة.

قال حيان بن حلف: لما ملك إبراهيم اشبيلية وقرمونة وما والاهما ارتفع ذكره وبعد صيته واتخذ لنفسه جندا ورتّب لهم الارزاق فكمل فى مصافّه خمسمائة فارس وكان له قاض يقوم بالحكم وصاحب مدينة يقيم الحدود وجرى فى ذلك كله مجرى السلطان وفى قرمونه كانت مرابط خيله وكان يكثر التردد بينها وبين اشبيلية ومن ذلك قول الشاعر أحمد بن عبد ربه فى قصيدة طويلة يمدحه:

واشبيلية الزهراء تزهو بوجهه
وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذ ما تجلّت تلك من نور وجهه
غدت هذه للناس فى زى عاطل
وإن حلّ هذى فهو يوحش هذه
فتهدى برسل نحوه ورسائل

وقد اختطفته المنون سنة ٢٨٨ وولى بعده ابنه عبد الرحمن إلى أن مات سنة ٣٠١ وكان أخوه محمد بن إبراهيم صاحب قرمونة فى حياة أبيه وبعد موته وكانت دولته بقرمونة أضخم من دولة أخيه باشبيلية وتوفى سنة ٣٠٢[١].

مقتل ابنى عبد الله محمد والمطرّف وغيرهما

قال ابن خلدون: قد أكثر المطرف من السعاية فى أخيه محمد عند أبيهما حتى إذا تمكنت سعايته وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حينئذ ببلد ابن حفصون ثم استأمن ورجع وبالغ المطرف فى السعاية إلى أن حبسه أبوه ببعض حُجَر القصر وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره فقتل أخاه فى محبسه مفتانا بذلك على أبيه، وحزن الأمير عبد الله على ابنه محمد وضمّ ابنه عبد الرحمن إلى قصره وهو ابن يوم فربى مع ولده ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ٢٨٣ ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف بالوزير لعداوة بينهما وسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله شر قتلة ثأر فيها منه بأخيه محمد وبالوزير وعقد مكان الوزير لابنه[٢] مروان فترفع على الوزراء فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد ولفقت بذلك شهادات اعتمد القاضى حينئذ قبولها فتمت الحيلة وقتل مروان وهشام سنة ٢٨٤.

ويؤخذ من مقدمة دوزى لتاريخ ابن عذارى:

أن المطرف كان يحسد أخاه البكر محمدا على ولاية العهد لهذا كان يكثر السعاية فيه عند أبيهما فتأججت نار العداوة بين الأخوين حتى إن محمدا قابل يوما فارسا من فرسان أخيه فانقض عليه وقتله فخشى من قصاص أبيه فعوّل على الفرار فكسر أبواب السجن وفك أسر السجناء وكانوا من المولدين والنصارى وفرّ بهم إلى بُبَشْتر عند ابن حفصون شيخ المولدين الذى كان يظهر الإسلام ويبطن

(١) انظر ابن عذارى ص ١٣٠ وما بعدها.

(٢) يقول ابن خلدون: لابنه «أمية» ويقول غيره: ابن ابنه (مروان) لا أمية والظاهر صحة الأخير.

النصرانية، ليجمع تحت رايته جميع العرب والبربر الناقمين ويكوّن مملكة نصرانية فى الاندلس، فبذل الأمير ما فى وسعه فى أن ينتزع ابنه من حزب المولدين فخاطبه أن يعود إلى قرطبة وهو يعفو ويصفح فعاد محمد لكن أخاه ما زال يسعى فيه لدى الأمير ويتهمه حقا أو بهتانا بأنه يفاوض ابن حفصون ويؤامره إلى أن حبسه وقتله أخوه فى ١٣ شوال سنة ٢٧٧ (١٤ يناير سنة ٨٩١).

لما عاد المطرف إلى قرطبة قتله أبوه فى ١٠ رمضان سنة ٢٨٢ (٢ نوفمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن سبع وعشرين سنة كأخيه محمد حين قتله.

وعهد الأمير عبد الله بأعمال وزيره المقتول إلى ابنه مروان فتكبر على بطانة الأمير فاتهموه بالسعى فى خلعه وتولية أخيه هشام الذى كان والى جيّان وقائد ميمنة الجيش فعهد الأمير بتحقيق هذه التهمة إلى القاضى فخوفا من أن يجىء دور اتهامه حكم بصحتها، وقد جرّت فى ذيلها أحمد بن هشام حفيد عبد الرحمن الثانى وغيره فأمر الأمير بتنفيذ حكم القاضى فنفذ على المتهمين يوم السبت ٢١ شوال سنة ٢٨٤ (ابن الابار).

حوادث ريّة:

ريّة كورة كبيرة مخصبة بالاندلس قبلى قرطبة متصلة بالجزيرة الخضراء لها مدن وحصون ورستاق واسع[١] كانت عاصمتها أرشذونة[٢] ومن أعمالها مالقة[٣] وبُبَشْتر.

أما مالقة فهى مدينة قديمة عامرة على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمريَّة وبالنظر لوضعها المناسب كثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى فاقت أرشذونة وصارت هذه كرستاق لها[٤].

(١) ياقوت.

(٢) أبحاث دوزى ج١ ص ٣١٩.

(٣) يخطئ دوزى ابن خلدون فى أن رية اسم مالقه القديم ـ راجع أبحاثه ج١ ص ٣١٩.

(٤) ياقوت.

وأما بُبَشْتر فهى حصن منيع على قمة جبل شامخ على فرسخ من غربى انتقيرة ازاء نهر[١] بين الحصن وقرطبة ثلاثون فرسخا[٢].

كان هذا الحصن ملاذ ابن حفصون من الدولة الأموية.

بعد موت المنذر وهو يحاصر بيشتر ورجوع الأمير عبد الله إلى قرطبة (كما ذكرناه آنفا) استفحل أمر ابن حفصون والثوّار وتوالت عليه الغزوات والحصار وكاتب ابن الأغلب صاحب أفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسيين بالاندلس فتثاقل على إجابته، فأمسك وأكثر الأجلاب على قرطبة وبنى حصن (بلاية) قريبا منها وغزاه عبد الله حتى فتح هذا الحصن واستجة وقصده فى حصنه فحاصره أياما وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكرّ عليه الأمير وهزمه واثخن فيه وافتتح إلبيرة من أعماله ووالى الحصار عليه فى كل سنة... سار إليه الوزير أحمد بن أبى عبدة فحاصره فاستنجد بإبراهيم بن حجاج الثائر باشبيلية ولقياه فهزمهما وراجع ابن حجاج الطاعة وعقد له الأمير عبد الله على أشبيلية.. ثم راجع ابن حفصون طاعة بنى أمية عندما هيأ الله للناصر ما هيأه من استفحال الملك واستنزال الثوار واستقام إلى أن هلك سنة ٣٠٦ لسبع وثلاثين من ثورته كذا يؤخذ من ابن خلدون وهو كلام مجمل يفصله ما يأتى:

يؤخذ من ابن عذارى أن عبد الله لما ولى الخلافة رأى ابن حفصون أن يدخل فى طاعته فأرسل ابنه حفصا إلى قرطبة مع جماعة من أصحابه على أن يعقدوا مع الأمير صلحا على أن يستقر ابن حفصون فى بُبَشْتر على الطاعة، فقبل الأمير وأصدر ابنه ورسله محفوفين بالكرامة والرعاية ووجّه معهم عبد الوهاب بن عبد الرءوف واليا على كورة ريّة ومشاركا لابن حفصون، فمكثا شريكين فى الأمر والنهى إلى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب وأخرجه من الكورة وتعدّى

(١) أبحاث دوزى.

(٢) ياقوت.

على أهل البلاد وسلب أموالهم حتى همّ الناس بالجلاء من قراهم ولم يبق بالقنبانية قرية إلا غشيتها الخيل وعمّتها الذلة والويل ـ وملك ابن حفصون استجة وارجذونة ـ فلما رأى الأمير ما أحاط بقرطبة أمر بإخراج السرادق إلى فحص الربض بشقندة فلما شدّت أطنابه ومدّت حبائله وأسبابه بعث ابن حفصون خيلا لعلها تأخذ السرادق السلطانى فخرج إليها الفرسان فردّوها ووصلوا إلى ابن حفصون فدفعوه من الجهة فأوى إلى حصن (بَلِىّ) بقبرة فجمع له الأمير أهل قرطبة وسار إليه فى نحو أربعة عشر ألفا وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين ألفا فصدمه الأمير بمن معه فنثر عقده وفرّق جمعه فعملت السيوف فى رقابهم حتى رويت الأرض من دمائهم ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة وملكها، ولما رجع ابن حفصون إلى ببشتر حشد أعوانه وخرج بجمعه إلى إلبيرة فتغلب عليها وقبض على عاملها فأخرج إليه الأمير العسكر مع ابن أبى عبدة، فلما تدانى الفريقان هجمت خيل قرطبة على خيل العدوة فبدّدت شمله وأثقل ابن حفصون بالجراح وآب إلى حصن ببَشْتر.

وثار سوار بن حمدون بحصن منت شقند[1] فقام إلى جعد عامل إلبيرة وهزم جمعه وأخذه أسيرا ثم أطلقه وسار سوار إلى غرناطة وأغار على حصون ابن حفصون فاجتمع أهل إلبيرة فى نحو ثلاثة وعشرين ألفا فلقيهم سوار فى عدد قليل فانهزموا وقتل منهم نحو عشرة آلاف وذلك فى سنة ٢٧٦.

وكان جعد الثائر بالبيرة متفقا مع ابن حفصون فأعمل جعد الحيلة فى الغدر بسوار فأغار على جهته فى نفر يسير وقد أكمن له كمينا فبرز إليه سوار واقتفى آثاره فوقع فى الكمين وأحدقت به الخيل وقطع رأسه وانهزم عسكره وأرسل جعد رأس سوار إلى ابن حفصون، وثار سعيد بن جودى بالعرب وعارض ابن حفصون حتى ضايقه فعمد هذا الحيلة حتى أسره وأقام عنده شهورا فى بُبَشْتر حتى فدى بمال

(١) يؤخذ من غيره أنه حصن منت شيقر.

كثير فاطلقه من وثاقه فخالف على الأمير عبد الله إلى أن مكر به وقتل فى دار عشيقة له يهودية.

وتولّى أمر العرب بجانب إلبيرة محمد بن أضحى فحارب ابن حفصون لكن هذا أسره حتى فداه العرب بمال جسيم وأطاع الأمير.

وثار سعيد بن منستنة بكورة باغة[1] واقتعد حصونها فاستفحل أمره وشرّه وعم أذاه واصطفى من حصونها أربعة ذات حصانة ومنعة وفى سنة ٢٨٤ وما بعدها دخل ابن حفصون استجة الدخلة الثانية فأخرجه منها ابان ابن الأمير عبد الله وقائده ابن أبى عبدة.

وفى سنة ٢٨٦ أظهر ابن حفصون النصرانية وكان قبل ذلك يسرها فتبرأ منه خلق كثير ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتى لا ينى القوّاد عنه فى الحل والترحال، وفى ذلك قال ابن قلزم لابن أبى عبدة:

فـفى كـل صـيـف وفى كـل مـشْـتًى
غـــزاتـان منـك عـلى كـل حـــال
فـتـلك تـبـيـد الـعـدوّ وهذى
تفـيـد الإمـام بهـا بـيت مـال

وفى سنة ٢٨٧ صلب رجلان من رجال ابن حفصون يسمّى أحدهما إسحاق قال الآخر حين رفع فى الخشبة: غدرت بى يا إسحاق فضربت مثلا.

وفى سنة ٢٨٨ قبضت رهائن ابن حفصون وتحولت الصائفة لشذونة وغيرها من الكور.

وفى سنة ٢٩٢ خرجت الصائفة إلى عمر بن حفصون وتحول العسكر إلى

(١) قال ياقوت: باغة مدينة بالاندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها وفى قبلى قرطبة منحرفة عنها يسيرا وبينهما ٥٠ ميلا.

حصونه فهتك بعضها وفيها كانت الوقعة العظيمة على ابن حفصون بوادى (بلون) من جيّان وكان قد توالى إليه أهل الخلاف وخرج مغيرا على المسلمين فهزم وقتل كثير من رجاله.

وفى سنة ٢٩٣ كان خروج الصائفة إلى فهر بن أسد وهو بحصن تش من كورة جيان فافتتح الحصن وأخذ أسيرا وقدم به إلى قرطبة فأمر الإمام عبد الله بصلبه عند القصابين فى ربيع الآخر.

وفى سنة ٢٩٤ غزا أبان ابن الإمام عبد الله بالصائفة إلى الجزيرة وقاد الخيل أحمد بن أبى عبدة فحلّ بها يوم الجمعة لتسع بقين من رجب ثم تقدم إلى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب، فحارب الحصن وحاصره وقتل جماعة ممن فيه ثم تقدم إلى حاضرة ريّة وفيها مشاور بن عبد الرحمن فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها، فدعا مشاور إلى السلم وبذل الرهائن فأجيب إلى ذلك ثم تقدم القائد إلى الساحل فجال فيه أجمع وخرج على حصن إلبيرة وقفل منصرفا إلى قرطبة فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذى القعدة.

وفى السنين التالية غزا أبان ابن الأمير عبد الله وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبده ابنَ حفصون وأشياعه عدة غزوات كتب النصر فيها لهما والخذلان له.

وفصّل ابن عذارى وقعة (بلىّ)[1] فى موضع آخر نقلا عن (بهجة النفس) فقال ما مؤداه: فى سنة ٢٧٨ (٨٩١) ألّب ابن حفصون على الأمير عبد الله ثلاثين ألفا من كور الأندلس وأقبلوا عند حصن بلىّ وضيقوا على إقليم قرطبة وأضرّوا به حتى أغاروا على أغنامه، فخرج إليهم عبد الله فى ١٨ ألفا وقاتلهم حتى هزمهم وقتل كثيرا منهم وفتح حصن بلىّ فوجده مُتْرَعا بالذخائر والعدد ثم قصد استجة فحارب

(١) يقول ياقوت: بلى ناحية بالاندلس من فحص البلوط ابن خلدون: بلاية حصن بناه ابن حفصون قريبا من قرطبة ويقول ابن عذارى: بلاى من عمل قبرة.

أهلها وفتك بهم فتكا ذريعا حتى رفعوا الأطفال على الأيدى فى الأسوار مستصرخين راغبين فى العفو فعفا عنهم.

وقال نويرى فى هذه الواقعة: لما تولى عبد الله ألَبَ ابن حفصون وحشد كور الاندلس حتى لم يبق فيها إلا قرطبة وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور وخرج إليه الأمير عبد الله فى أربعة عشر ألفا من أهل قرطبة خاصّة وأربعة آلاف من حشمه ومواليه، فبرز إليه ابن حفصون فى سفح الجبل ونازله فلم يكن إلا صدمة صادقة حتى أزالوهم عن مراكزهم، ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقى فيه فثلم فيه ثلمة أخرج منه أهله وما كان له، فلما انتهى ذلك إلى أهل عسكره ولّوا مدبرين لا يلوى أحد منهم على أحد فقتلوا قتلا ذريعًا ودخل منهم جماعة فى عسكر الأمير فأمر بالتقاطهم وجلس لهم فى مظلة فقتل بين يديه ألف صبرا.

ويستخلص من دوزى ما يأتى:

سار السلطان فى ربيع سنة ٨٨٩ (٢٧٥ و ٢٧٦) إلى قلعة بُشْتر فحاصرهم ثم عاد إلى قرطبة بعد أربعين يوما وكانت نتيجة هذه الغزوة عقيمة.

وعقب ذلك خرج ابن حفصون واستولى على بلاد وحصون منها استجة وبيانة والقلاع العظيمة التى فى جنوب النهر الكبير بالإجمال، كان أغلب الأندلس فى قبضة يده، حتى إن السلطان المغلوب على أمره لم يستطع أن ينصب واليا فى إلبيرة ولا فى جيان.

استكبر ابن حفصون من امتداد سلطته وحدثته نفسه أنه بعد استيلائه على قرطبة يصير حاكم الأندلس الأكبر، لكنه يخشى أن ينازعه العرب فى السلطان حينما يئول إليه فرأى أنه إذا جاءه تقليد بولاية الأندلس من خليفة بغداد لا يأبى العرب طاعته، فكاتب ابن الأغلب والى أفريقية فى ذلك وهاداه فبعث إليه الوالى بهدايا نفيسة وشجّعه على مقصوده ووعده بالسعى لدى الخليفة فى مأربه ـ عندئذ طمع ابن حفصون أن يأخذ قرطبة ويرفع راية بنى العباس فاقترب منها وجعل

استجـة مركزه العام، وفيـها كان يتردد من وقت إلى آخر إلى بلـيّ ليحث على إتمام التحصـينات التى كان أمر بإقامتِها فيهـا حتى تصير منيـعة ويجلب إليها عـساكره ـ بذلك أحدق بقرطبة خطر عظيم وهدّدها بلاء جسيم.

حاصر ابن حـفصون قلاع قَـبرة التى كانت للسلطان واستـولى اليأس على هذا لقلة جنوده لكـن فضل أن يمـوت فى سـاحـة القـتـال موت الأشـراف ـ فـرح ابن حفصون وعجب من عزيمة السلطان على المـقاومة وقال لابن مستنة: «من يخبرنى أن السلطان تحرك للسيـر نحونا أعطيه خمسـمائة دوقة Ducat»[١]، بعـد زمن قليل جاءه نبـأ وهو فى استجة بأن خـيمة السلطان العظيـمة نقلت إلى سهل شـقندة ـ لما سـمع هذا النبـأ عـزم على أن يحـرقهـا حـتى يجـعل السلطان عـرضـة لاستـهـزاء المستهزئين فأخذ معه بعض الكتائب وساروا إلى هذا السهل حتى بلغوه أول الليل وانقضّوا على أحراس الخيمة، هؤلاء وإن كـانوا قليلين لكنهم دافعوا عنها بشجاعة واستنجـدوا بصرخاتهم عسـاكر ضاحيـة المدينة فانجـدوهم على الفور ـ رأى ابن حفـصون أن العـاقبـة ستكون وبالا عليـه فنكص ومن معـه على أعقـابهم واتبـعهم عساكـر السلطان وفتكوا بهم حتى لم يدخل حصن بلىّ مع ابن حفـصون إلا فارس واحد ـ فى صباح تلك الليل بكر أهل قرطبة وقابلوا عساكرهم وهم عائدون ومعهم خيل مكسوبة ورءوس مقطوعة ففرحوا بهذا النصر المبين.

فى افريـل سنة ٨٩١ (المحـرم سنة ٢٧٨) أخذ السلطان وجنوده طريق حـصن بلىّ وساروا حـتى بلغوا يوم الخـميس نهـيرا يجرى على مـسافة نـصف فرسخ من الحصن وكـان عدّدهم أربعة عشـر ألفا[٢] منهم أربعة الاف فـقط عساكـر منتظمة وكـانت جنود ابن حـفصـون ثلاثين ألفـا وكـانت الواقـعة فى اليـوم الثـانى أى يوم الجمـعة: فى أول النهـار أخذ ابن حـفصـون يرتب عسـاكره للمـعركة عنـد سفح

(١) نقد ذهبى يختلف مقداره باختلاف البلاد.

(٢) تقدم أنهم ثمانية عشر ألفا.

الأكمة المقام عليها الحصن وأخذ جيش السلطان فى السير نحوه، وكان قائده العام عبد الملك بن أمية فلم يحسن قيادته إذ أمره بالتقهقر نحو جبل فى شمال القلعة وفى هذا الوضع تكون ظهور العساكر جهة العدوّ فهرع حينئذ قائد المقدمة عبيد الله بن أبى عبدة إلى السلطان وصاح: «إلى أين نساق يا أمير أنجعل ظهورنا نحو العدوّ فيظن أننا نخافه فينقضّ علينا ويقطعنا قطعا» فلم يماره السلطان فى الحق بل سأله: «ماذا ينبغى أن نفعل» فأجابه القائد: «نتجه نحو الإمام ونهجم على العدوّ هجمات صادقات ويفعل الله ما يريد» فأمره السلطان أن يفعل ما بدا له فرجع مسرعا إلى فرقته وأمرها بالانقضاض على العدوّ بصرامة فابتدئ القتال واستمرت ناره إلى أن تقوّى الجناح الأيسر من العساكر السلطانية على الجناح الأيمن من عسكر العدو العدو وهزمه وقطع رءوس كثير من رجاله وحملها إلى السلطان، فوعد كل عسكرى يقدم إليه رأسا بجزاء حسن بعد هزيمة الجناح الأيمن هزيمة تامة انقضّ الجيش السلطانى كله على الجناح الأيسر وكان قائده ابن حفصون نفسه فبذل كل ما فى وسعه فى أن يثبت أقدام عساكره، فلم يفلح بل تركوا ميدان الوغى وولّوا الفاتكين بهم ظهورهم فارّا بعضهم إلى استجة والسيوف تعمل فى رقابهم وبعضهم إلى حصن بلىّ ومعهم زعيمهم ابن حفصون، وفى الليل ثلموا ثلمة فى حائط الحصن وفرّوا منها مسرعين.

فى أثناء الفرار كان ابن مستنة بجانب ابن حفصون فمازحه قائلا له: «لقد نذرت أن تعطى خمسمائة دوقه لمن ينبئك بمسير السلطان نحونا، الآن يجب عليك أن تفى بما نذرت، ليس من السهل أن تقهر الأمويين كما كنت تظن ماذا تفكر فى ذلك» أجابه ابن حفصون، وماء الغيظ يغلى فى صدره: «أفكّر فى أن الدائرة ما دارت علينا إلاّ من جبنك وامثالك، أنتم لستم رجالا» لما بلغ ابن حفصون أرشذونة أمر السكان أن يرحلوا إلى قلعة بيشتر واستمر فى سيره إليها، وأمر السلطان بقتل ألف أسير بالسيوف، ثم دخل حصن بلى فوجد فيه كميات

وافرات من النقود والذخائر وآلات الحرب وبعد أن أقام حامية فيه توجه إلى حصن استجة فحاصرها بعض أسابيع إلى أن صعد النساء على الأسوار ورفعن أطفالهن على الأيدى مستغيثات لما غشيهن من الجوع، فعفا السلطان عن المحصورين جميعا وأخذ رهائنهم وولّى عليهم واليًا ثم توجه إلى بَبَشْتر ثم إلى إلبيرة وأخذ رهائن من أهلها وعاد بجيشه إلى قرطبة.

هذه الوقعة من الوقعات المعدودات ولولا انتصار السلطان فيها لسقطت دولة بنى أمية فى الاندلس ـ بهذا الانتصار رجع إلى السلطان مقامه الأول وعاد إلى طاعته بلىّ واستجة وارشذونة وإلبيرة وجيّان وانكسرت شوكة ابن حفصون وحصل انقلاب فى الرأى العام، فرأى الناس أن السلام فى طاعة السلطان وترك الفوضى، طلب ابن حفصون الصلح فأجابه السلطان إليه على شرط أن يقدم ابنه رهينة فغشّ وقدم ابنا لغيره فكشف غطاؤه ولامه السلطان على الغش فنزع إلى ديدنه وشنّ الغارة على ارشذونة وإلبيرة وجيّان سنة ٨٩٢ (٢٧٩)[١].

وفى سنة ٨٩٣ غزا جيش السلطان تحت إمرة المطرف ضواحى ببشتر وحصر إلبيرة وآمن أهلها من كل خوف فسلموا إليه ضابط ابن حفصون وعساكره، ومن ذلك الوقت عظم النفوذ السلطانى واستمرّ.

فى ذلك الوقت انقسم عرب غرناطة إلى حزبين حزب سعيد بن جودى (يظهر أن المطرف نصبه على إلبيرة) وحزب محمد بن أضحى أمير الحامة وكان أحدهما يحقد على الآخر ويسعى فى قتله.

تغيّظ من سعيد كثير من الرؤساء لتكبره وفجوره حتى إن أحدهم المسمى أبا عمر عثمان لما بلغه أن امرأته ضربت موعدا لسعيد فى بيت يهودية عزم على أن

(١) لا يخلو هذا من نظر فإنه يبعد أن يقوم لابن حفصون قائمة بعد سنة من انكساره فى وقعة بلى الانكسار الهائل.

يغسل خجله فى دم الفاجر، فترقب مجيئه فى الميعاد وانقضّ عليه وقتله سنة ٨٩٧[١]، بعد قتل سعيد انفرد ابن أضحى بالرياسة على العرب.

وفى سنة ٨٩٩ أظهر ابن حفصون النصرانية هو وذوو قرباه وكان يخفيها من قبل خداعا فانصرفت قلوب المسلمين عنه وناصبوه العداء. اهـ.

يؤخذ من ابن خلدون أنه فى عهد الأمير عبد الله كان عبد الرحمن بن مروان مستقلا فى بطليوس وسعدون السرساقى فى قلنبرة ومحمد بن تاكيت فى ماردة وكان بها جند من العرب وكتامة، فأعمل الحيلة فى إخراجهم منها ونزلها هو وقومه مصمودة وعظمت الفتنة بينه وبين ابن مروان فحاربه هذا وهزمه واستلحم قومه فاستجاش بسعدون فلم يعنه فقصّ هذا من جناح ابن تاكيت وعلا كعب ابن مروان إلى أن هلك... وعقد الأمير عبد الله على بَطَلْيَوْس لأميرين من العرب فاضطربا وقتل أحدهما الآخر واستقل ببطليوس ونازل حصون البربر حتى طاعوا وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ثم اصطلحوا وأقاموا جميعا طاعة الأمير عبد الله ثم تحاربوا فاتصلت حروبهم إلى آخر دولته.

توفى الإمام عبد الله ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠[٢] وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما ودفن فى قصر قرطبة مع أجداده الأمراء، وكان له من البنين أحد عشر منهم محمّد المقتول أبو عبد الرحمن الناصر ومن البنات ثلاث عشرة.

ذنابات:

الأولى: كان للأمير عبد الله حاجب[٣] ووزراء وكتّاب وصاحب شرطة وقضاة فكان حاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب أخيه المنذر من قبل ثم عزله وولى مكانه سعيد بن محمد بن السليم ثم عزله ولم يولّ الحجابة أحدا ـ ومن

(١) هذه العبارة تخالف ما قاله ابن عذارى فى هذا الموضع.

(٢) قال ابن عذارى: إنه كان ابن اثنتين وسبعين سنة.

(٣) منصب الحاجب فى ذلك الزمن الغابر كمنصب رئيس الوزراء فى زماننا هذا «١٣٣١ للهجرة».

وزرائه براء بن مالك القرشي، وعباس بن عبد العزيز القرشي، وعبد الملك بن عبيد الله بن أمية، وعبيد الله بن محمد بن أبي عبدة، وأصبغ بن عيسى بن فطيس ومن كتّابه عبد الله بن محمد الرجالي ـ وكان صاحب شرطته موسى بن زياد ولما ولي القضاء خلفه يحيى بن زياد ثم مات وبقيت الشرطة بدون وال سنتين ثم وليها قاسم بن الوليد الكلبي، كان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته، وما كان يحاوله من حسم الفتن خاض معهم في الأخبار والعلوم ـ قد فتح بابا في القصر سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوما معلوما في الأسبوع ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا.

الثانية: وكان الإمام متفننا في ضروب العلوم بصيرا بلغات العرب ـ اعتذر إليه يوما بعض مواليه فقال: إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبئ عن باطل تنصلك ولو أقررت بذنبك واستغفرت لجرمك لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك، قال: قد اشتمل الذنب عليّ وحاق الخطأ بي وإنما أنا بشر وما يقوم لي عذر فقال: مهلا عليك رويدا بك تقدمت لك خدمة وتأخرت لك توبة وما للذنب بينهما مدخل وقد وسعك الغفران» وأملى كتابا إلى بعض عمّاله: «أما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به واهتبالك به على حسب متوترك بالكتب واشتغالك بذلك على مهمّ أمرك لكنت من أحسن رجالنا عناء وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما، فاقلل من الكتاب فيما لا وجه له ولا نفع فيه واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك ويظهر فيه غناؤك إن شاء الله، وكان شاعراً مطبوعًا له أشعار حسان فمن قوله يتغزل في صباه:

ويَحِي على شادنٍ كحيلٍ
في مثله يخلع العذار
كأنما وَجْنتاه ورد
خالطه النَّور والبهار

قـــــضـــــيب بـان إذا تـثـنـى
يـديـر طـرفـــــا بـه احـــــورار
فـــصـــفـــو ودى عـلـيـــه وقـف
مـــــا اطّـرد الـلـيـل والـنـهـــــار

ومن قوله:

يا مـهـجـة المـشـتـاق مـا أوجـعك
ويا أســيــر الـحبّ مـا أخـضـعك
ويا رســـول الـعـــين من لحظهـــا
بـالرد والـتـبـلـيغ مـــا أســرعـك
تـذهب بـالـســـرّ فـــتـــأتى بـه
فى مـجلس يخـفى على من مـعك
(كم حـــاجـــة أنـجـــزت ابرازهـا
تبـــارك الـرحـــمن مـــا أطـوعك)[1]

ومن قوله فى الزهد:

يـا مـن يـرواعـــــــه الآجـل
حـــتـــامَ يـلـهـــيك الأمـل
حـــتّـــام لا تـخـــشى الـردى
وكـــــأنـه بـك قـــــد نـزل
اغـــفـلـت عـن طـلـب الـنـجـــاة
ولا نـجـــاة لـمـن غـــفـل
هـيـــهـــات يـشـــغَـلك الـمنى
ولا يـدوم لـك الـشـــــغـل

(١) اقتصر ابن عذارى على الأبيات الثلاثة وزاد الرابع المقرى.

وله أيضا فى الزهد:

أرى الدنيا تصير إلى فناء
وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالإنابة غير وان
على شيء يصير إلى فناء
كأنك قد حملت على سرير
وغيّب حسن وجهك فى الثراء
فنافس فى التقى واجنح إليه
لعلك ترضينّ رب السماء

الثالثة: قد صرح الفقيه أبو محمد بن حزم بذم هذا الأمير، وقال: إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات وترك المنكرات، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره له وواطأ عليه حجّامه بأن سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون، ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدًا بعد واحد قتل محمدا والد الناصر وقتل أخاه المطرف ثم قتل أخوين له معا، أيضا قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسم إلى غير ذلك. اهـ. من ابن عذارى.

٨- عبد الرحمن الناصر:

ابن محمد المقتول ابن الأمير عبد الله (من ٣٠٠ إلى ٣٥٠هـ):

قتل محمد ابن الأمير عبد الله فى ريعان شبابه وترك ولدا حديث عهد بالوجود اسمه عبد الرحمن[١] وقد سبق ذكر ذلك.

هذا الولد قد عنى بتربيته وتعليمه فى القصر جده[٢] وكان يحبه ويؤثره على

(١) يقول كندى: إن أمه مسيحية تسمى مريم أو مارية وفى التواريخ العربية أن أمه أم ولد تسمى مزنة.

(٢) يقول كندى: قد أحسن مربوه تربيته منذ نعومة أظفاره وقد انتخبهم له جده فأقرءوه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو والشعر والأمثال وتاريخ حياة الملوك وسياسة الملك وعلوما أخرى اجتماعية ـ ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب عندما أخذ يخطو فى الحادية عشرة.

بنيه حتى بلغ أشُدّه فكان يرشحه لولاية الأمر بعده ويقيمه مقامه أحيانا فى أيام الأعياد لتسليم الزوّار والجنود عليه، حتى وصّى أخيرا بولاية عهده له أمام الأمراء والوزراء وولاة الأقاليم فانجذبت قلوب أهل الدولة والرعيَّة إليه وأحبته لجمال سجاياه الفطرية وكمال مزاياه الكسبية، ولما وقذ نفوسهم من قتل أبيه شابا.

فلما مات الأمير عبد الله أجلسوا حافده عبد الرحمن[١] على كرسى الخلافة ولم ينازعه فيها أعمامه ولا أعمام أبيه بل كانوا أوّل من بايعه.

ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢) وفى ذلك اليوم يقول أحمد بن عبد ربه من قصيدة:

بدا الهلال جديدا
والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى
إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر
فأنت للدهر عيد

وكان عمره يوم ولايته ينيف عن اثنتين وعشرين سنة، ودام ملكه إلى يوم الأربعاء ٣ رمضان سنة ٣٥٠ (١٦ اكتوبر سنة ٩٦١)[٢] فتكونت مدة حكمه نصف قرن ونصف سنة ونحو ثلاثة أيام.

---

(١) الحافد ابن الابن وكذا الحفيد.

(٢) قال رومى: (ص ٩٨ ج٤) إن مدة حكمه ٤٩ سنة ويوم من ١٤ اكتوبر سنة ٩١٢ إلى ٢٥ اكتوبر سنة ٩٦١ وفى تقييداته أن المدة بالحساب الهجرى ٥٠ سنة و ٦ أشهر إلا ٣ أيام من خمسة ربيع سنة ٣٠٠ (٢٠ اكتوبر سنة ٩١٢) إلى ٧ رمضان سنة ٣٥٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩٦١) اهـ. وفى كلامه نظر فإنه ذكر فى أعلى صحيفته أن مبدأ تاريخه (١٤ اكتوبر سنة ٩١٢ لا ٢٠ اكتوبر من هذه السنة وعلى حسابه الهجرى تكون المدة خمسين سنة وستة أشهر زائدة ثلاث أيام لا ناقصة هذه الأيام فإنه بدأها باليوم الخامس من ربيع وختمها فى السابع من رمضان ـ «ومع هذا» المبدأ والنهاية مغايران لما هو مذكور «فى التواريخ العربية الصحيحة». =

كان أسلافه الامويّون فى أسبانيا يلقّبون بالأمراء فقط كمن تولاها قبلهم منذ الفتح ولم ينزعوا إلى انتحال ألقاب الخلفاء فى الشرق مع أنهم كانوا ملوكا متفردين بحكوماتهم وأعداء للعباسيين وكانوا يستعملون النقود الشرقية، فلما تولّى عبد الرحمن الثالث تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين وضرب نقودا جديدة كتب عليها اسمه وهذه الألقاب، قال أبو الفداء: «كان أبيض أشهل حسن الوجه وهو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الاندلس بألقاب الخلفاء وتسمى أمير المؤمنين وكان من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف، وبقى عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من إمارته سبع وعشرون سنة (كذا) فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق وظهور الخلفاء العلويين بأفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين أمر أن يلقب بالناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين»[١].

وقال ابن خلدون: «إنه أول من تسمى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبدّ موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفّر مولاه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة (كذا) فتقلب بألقاب الخلفاء».

مأخذ عبارى أبى الفداء وابن خلدون تاريخ ابن الأثير[٢] وقد جاریاه فى أن سنة التلقب السابعة والعشرون بعد الثلاثمائة ونحا منحى عبارة ابن خلدون المقرى لكنه خالفه فى تاريخ هذه السنة كأنه يُوَهّمه، فقال: «إنه أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبدّ موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفّر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة فتلقبّ بألقاب الخلافة» وفى تاريخ قتل المقتدر فى كليهما نظر فإن

= وقد اعتمدنا فى مقارنة التاريخ الهجرى بالتاريخ الميلادى على التقويمات الالهامية لمحمد مختار باشا المصرى غير أنه جعل مبدأ ربيع سنة ٣٠٠ يوم الجمعة والتواريخ العربية تثبت أنه يوم الخميس.

(١) انظر حوادث سنة ٣٥٠ من تاريخ أبى الفداء ص ١٠٨ ج ٢.

(٢) انظر حوادث سنة ٣٥٠ فى الجزء الثامن.

المقتدر قتل فى سنة عشرين وثلاثمائة كما يتبين ذلك من كلام ابن خلدون نفسه على بنى العباس[١].

خطّأ رومى أبا الفداء فى سنة تلقب عبد الرحمن بألقاب الخلافة وأفاد أنه تلقب بهذه الألقاب منذ سنة ٣٠٢ وهاك تعريب ما أخذناه منه فى هذا الموضوع[٢].

«فى سنة ٣٠٢ (٩١٤) أمر عبد الرحمن الثالث بتغيير سكة نقود الذهب والفضة وكان أسلافه يحافظون على صورة وقالب نقود خلفاء دمشق فكانت نقود اسبانيا لا تختلف عن نقود الشرق إلا فى تعيين السنة والمحل اللذين ضربت فيهما سواء فى ذلك دنانير الذهب ودراهم الفضة وفلوس النحاس، فلما جاء أمر أن يكتب على وجه منها اسمه وألقابه التى منها منذ سنة ٣٠٢ لقب الإمام المختص بالخلافة (كذا) وعلى الوجه الآخر (الشهادتان) الاعتراف بوحدانية الله وبرسالة نبيه محمد كما جرت العادة بذلك فى الشرق من قديم من عهد معاوية وأن يكتب على حافة أحد الوجهين السنة والمحل اللذان ضربت فيهما... لم يسبق لأحد من أسلافه أن تلقب بأمير المؤمنين، فقد دلّنا وصف مدينة ماردة بين الآثار على أن عبد الرحمن الثانى كان يلقب بالأمير فقط، فدعوى أبى الفداء بأن عبد الرحمن الثالث ما تلقب بأمير المؤمنين إلا فى السنة الخامسة والعشرين (كذا) من حكمه باطلة بأكثر من دليل وبنصوص المؤرخين الثقات التى أوضحها نصّ (العبر Elabar)[٣] وهو «لما علم عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب الأندلس درجة المجد التى ارتقى إليها المعزّ الفاطمى (فى أفريقية) وأنه تلقب بأمير المؤمنين ورأى من جهة أخرى انحطاط خلفاء بغداد رأى إمكان تسميته بأمير

(١) انظر ج٣ ص ٣٩١.

(٢) ص ١٠٢ ج٤.

(٣) لا يعلم الاسم العربى الذى يعنيه رومى بهذا اللفظ الافرنجى إلا أنه قال فى تقييداته: «إنه مخطوط عربى من الاسكوريال Escurial» ولعل اسمه (العبر) فانظر.

المـؤمنين مثلهـم ومن هذا الحين أخـذ لقب الناصـر أيضا إلى أن مـات سنة ٣٥٠ للهجرة».

وقال ابن الشحنة فى سنوياته مع الصراحة:

«وتسمى عـبد الرحـمن بن محـمد بالناصر لـدين الله مع لقب أمير المـؤمنين الذى أخذه فى السنة الثانية من خلافته فى الـوقت الذى انحطت فيه دولة العباسيين فى الشرق من اعـتداء (موالى) التـرك عليهـا وأسلافه لم يلقـبوا إلا بالأمراء» فـقد صرح كـلا المؤرخين بما دعـا عبد الرحـمن إلى التقلب بألقاب اسـمى من ألقاب أسـلافه وقـد عـزيا ذلك إلى أصلين ارتفـاع سلالات (كـذا) جـديدة فى أفـريقيـة وانخفاض العباسيين فى الشرق لاستبـداد الجنود التركية بأمورهم من عهد المعتز بالله (كذا) يولّون الخلفاء ويعزلونهم على حسب اهوائهم، فعبد الرحمن الثالث هو أول من وضع اسمـه وألقابه على النقـود المضروبة فى عـهده، كان يقـرأ على أحد وجهيـها فى الوسط «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وفى الحـافة باسم الله ضرب هذا الدرهم فـى الاندلس فى سنة ٣٠١ (٩١٣) (كـذا)» وعلى الوجـه الآخـر فى الوسط «الإمام الناصر لـدين الله عبد الرحمن أميـر المؤمنين» وفى الحافة «مـحمد رسول الله أرسله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المـشركون» (كذا).

وقـد يرى على النقود العـربيـة الاسبـانية المـضـروبة فى ذلك العهـد أسمـاء الحجّـاب وربما دلّ هذا على اتساع دائرة نفـوذهم، ذكر ابن حيان أنه كـان يضرب من دراهم الفـضةّ بقـدر ما يضرب مـن دنانير الذهب باسـمه واسم حـاجبـه وكان يخطب باسم هذا فى جـوامع أسبانيـا، ويرى من نقود المنصـور فيـما يأتى أن اسم الحاجب كان يوضع عادة تحت (شهادة) وحدانية الله... إلخ».

انتهى ما عرّبناه من كلام رومى ولا يخلو من مغامز.

١ - فإن لقـب (الإمام) ليس مـختصّـا بالخلفـاء فإن أصحـاب المذاهب الأربـعة

يلقبون بالأئمة: الإمام مالك والإمام أبى حنيفة والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ويقولون أيضا الإمام الغزالى والإمام الرازى وإمام المحققين وإمام المصلّين اللهم إلا أن يخصّص بمن له السلطان الدينى والدنيوى على المسلمين.

٢- وأن أبا الفداء لم يذكر سنة خمس وعشرين كما عزاها إليه رومى.

٣- وأول كلامه لا يطابق آخره ففى الأول عيّن سنة ٣٠٢ (٩١٤) وفى الآخر أفاد أن النقود مكتوب عليها سنة ٣٠١ (٩١٣).

٤- ونصّ (العبر Elabar) لا يقوم دليلا لرومى فإن (المعزّ) الفاطمى لم يرتق إلى الخلافة فى أفريقية إلا منذ سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

٥- وكان الظاهر أن يقول: (ارتفاع الفاطميين) بدل قوله: (ارتفاع سلالات جديدة).

٦- والمعتز بالله الذى زاد اسمه على النصين اللذين جاء بهما خليفة عباسى تولّى سنة ٢٥٢ وشغب موالى الترك كان قبل هذا التاريخ أيضا.

٧- وعبارته أولا تفيد أن (الشهادتين) الاعتراف بواحدانية الله وبرسالة نبيه محمد تكتبان فى وجه واحد وعبارته أخيرا تفيد غير ذلك.

وقال ابن عذارى: «هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بإمرة المؤمنين وأثر اللقب السلطانى، وذلك حين هاجت الخلافة العباسية وضعفت وظهرت الدولة التركية والديلمية فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية فى عقبه فاستهل الخطيب فى جامع قرطبة أحمد بن بقىّ بن مخلد يذكر هذا الاسم المخلّد يوم الجمعة الأول من سنة ٣١٦» وذكر فى حوادث سنة ٣١٦ أن الناصر رأى أن تكون الدعوة له فى مخاطباته والمخاطبات عنه بأمير المؤمنين فعهد إلى أحمد بن بقى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة له يوم الجمعة مستهل

(كذا) ذى الحجة بلقب أمير المؤمنين ونفذت الكتب إلى العمال بمثل ذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذى الحجة سنة ٣١٦ وهاك نسخة الرسالة النافذة فى ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فانّا أحقُّ مَن استوفى حقّه وأجدرُ من استكمل حظّه ولَبِس من كرامة الله ما ألبسه للذى فضلنا به وأظهر أثرتنا فيه ورفع سلطاننا إليه ويسّر على أيدينا دركه وسهّل بدولتنا مرامه وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلوّ أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا وأعان من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا والحمد لله ولىّ الأنعام بما أنعم به وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ورودوها علينا بذلك إذ كلّ مدعوّ بهذا الاسم متحل له ودخيل فيه ومتّسم بما لا يستحقه وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه فأمُر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله والله المستعان وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذى الحجة سنة ٣١٦. اهـ[1].

وذكر فى حوادث هذه السنة أيضا أن الناصر أمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة لضرب الدنانير والدراهم وولى خطتها أحمد بن موسى بن جدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان وأقام الضرب من هذا التاريخ، وكانت مثاقيله ودراهمه عيارا محضا من خالص الذهب والفضة، فكلام ابن عذارى صريح فى أن عبد الرحمن تلقب بأمير المؤمنين وأمر بضرب النقود فى سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا هو الصحيح المعوّل عليه، ويؤيده ما قاله دوزى: من أن عبد الرحمن أمر بأن

(١) انظر ابن عذارى «ص ٢١٢ ج ٢» ووفق بين قوله «يوم الجمعة مستهل ذى الحجة» وقوله «يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة» والظاهر أن قلمه عكس التاريخين فوضع أحدهما موضع الآخر.

يلقب بألقاب (الخليفة وأمير المؤمنين والناصر لدين الله) وأن يخطب له على المنابر بتلك الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩[١].

استولى عبد الرحمن الثالث على عرش الإمارة وأسبانيا قد ثار ثائرها وفار فائرها ونبذت كورها طاعة قرطبة وتفرّد الولاة بولاياتهم وقطعوا أواخى التبع لبنى أمية فأطفأ نيران الثائرين وكبح جماح المخالفين حتى ثابوا إلى الطاعة واستقامت له البلاد، لكن أقاليم الشمال لم تدخل كلها فى دائرة سلطانه بل بقيت جليقة فى أيدى الجلالقة.

غزواته الداخلة

فتح استجة: فى جمادى الأولى سنة ٣٠٠ (ديسمبر سنة ٩١٢) أغزى الناصر حاجبه بدر بن أحمد مدينة استجة فهدم سورها وفتحها وولّى عمالتها حمدون بن بسيل.

فتح جيان وإلبيرة: وفى هذه السنة أراد عبد الرحمن أن يجنى ثمار النصر بنفسه ويقاسم جنودَه تكاليف الغزو فى ساحات الوغى لينال معهم الفخر والمجد فقاد جيشًا جرّارا إلى جيّان فى ٧ رمضان (١٧ ابريل سنة ٩١٣) ففرح الجنود بإمرة ملكهم الشاب العظيم وانتعشت أرواحهم بالحماسة، ولما وصل الملك إلى كورة جيان علم أن ابن حفصون اتفق مع الحزب الثائر فى ارشذونة ففصل قسما من جيشه وأمره بالتوجه إليها سريعا ليحول دون مأرب ابن حفصون فتم ذلك وخاب أمل الثائرين وحاصر السلطان حصن (المنتلون) يوم الأحد فاذعن له بالطاعة أمير الحصن سعيد بن هذيل يوم الثلاثاء، وعقب فتح هذا الحصن الحصين توالى فتح ثمانية حصون أخرى بدون ريث ولا توقف منها (شمنتان) و (منتيشة) و (الشارة) وأمراؤها عبيد الله بن أمية بن الشمالية وإسحاق بن إبراهيم وعبد العزيز بن عبد الله على، وقد أذعن أمراء هذه الحصون كلها إلى طاعة السلطان واستأمنوه فأمنهم

(١) انظر دوزى ج٢ ص ٤٩.

ويعث بهم ونسائهم وأولادهم تحميهم كوكبة من الفرسان إلى قرطبة وأقام فى الحصون عمّالا يثق بهم ثم انتقل إلى كورة إلبيرة وفعل بحصونها كما فعل بأمثالها من قبل، غير ان حصن فنيانة (Finâna) توقف لأن من به من أشياع ابن حفصون أقنعوا السكان بأن المدينة منيعة، ومع هذا لم تطل مدة التوقف فإنهم لما رأوا الجنود يحرقون أرباضها خابروا السلطان وقبلوا أن يسلّموا إليه شيعة ابن حفصون كما طلب ثم توغل عبد الرحمن فى السبل الوعرة من جبال (نفادة) فأخضع أمراء حصونها ـ حين ذاك علم أن ابن حفصون يهدد مدينة إلبيرة فبعث إليها مددا يساعدها على دفع إغارته عليها، فلما علم حاميتها بقرب وصول المدد إليهم خرجوا ودفعوا العدوّ بالقرب من غرناطة حتى ألجأوه إلى الهرب وأسروا حفيده عمر بن أيوب.

فى أثناء ذلك كان عبد الرحمن يحاصر حصن (شُبيلس)[١] وقد التجأ إليه من فرّوا من الحصون الأخرى وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة وأصعبها مراما ودام الحصار خمسة عشر يوما فى نهايتها رضخ أهل الحصن لطاعة السلطان وأنزلوا إليه شيعة ابن حفصون فضرب رقابهم وأقام فى الحصن من يدير عمله ثم سار فى طريق إلبيرة ففتح مدينة (شلوبينية)[٢] وقصد حصن (استين) وحصن (بنة فراطة) وكانا أعزّ مراما من وكر العقاب يفزع منهما دائما سكان إلبيرة وغرناطة فاحدقت جيوشه بها وحاربوهما عشرين يوما حتى استولوا عليهما.

تطهرت حينئذ كورتا جيّان وإلبيرة وما والاهما من الاشقياء المفسدين وسرت فى ربوعهما روحُ السلام وقد تسنى للسلطان ذلك فى نحو ثلاثة أشهر فقفل راجعا إلى قرطبة ودخل قصرها يوم عيد الأضحى (١٨ يولية سنة ٩١٣).

فتح اشبيلية: بعد موت عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجّاج صاحب اشبيلية فى

---

(١) قال ياقوت شبيلس حصن حصين بالاندلس من أعمال البيرة قريب من بَرْجة.

(٢) قال ياقوت بفتح أوله... حصن بالاندلس من أعمال كورة البيرة

المحرم سنة ٣٠١ (٩١٣) أقام أهلها أحمد بن مسلمة من سلالة بنى حجّاج خلفا له فبعث إليها الناصر جيشا تحت قيادة الوزير أحمد بن جدير فحاربها وأوقع بأهلها، عندئذ جاء قرطبة محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة وعرض نفسه على الخليفة لمحاربة أهل اشبيلية فبعثه لذلك مع قاسم بن الوليد الكلبى فحاصراها شهورا.

لما رأى ابن مسلمة وأشراف اشبيلية أن المقاومة تطول ولا تجدى نفعا خابروا بدرا الحاجب وكان قد حضر المعسكر ليساعد الجيش المحاصر فوعدهم بأن حكومة قرطبة تحفظ للاشبيليين ما كان لهم من العادات والخصائص فى عهد بنى حجاج، حينئذ فتحوا أبواب المدينة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٣٠١ (٢٠ ديسمبر سنة ٩١٣) فدخلها بدر وهدم أسوارها وأصلح شئون أهلها وأقام سعيد بن المنذر عاملا عليها[١].

عاد محمد بن حجّاج إلى قرمونة مغاضبا لأن أمر اشبيلية لم يؤل إليه وكان يترقبه فأرسل إليه الناصر قاسما صديقه الحميم يستقدمه إلى قرطبة فاقنعه بشرط أن يخلفه عامله حبيب بن سوادة فى قرمونة ورجع إلى الخليفة (فى ابريل سنة ٩١٤) فقلّدَه الوزارة.

وأما أحمد بن مسلمة فقد ولى الشرطة العليا فى قرطبة.

فتح قلهرّة: فى يوم الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة سنة ٣٠١ فتح أهل (الثغر) مدينة (قلهرّة) وكانت بأيدى المشركين[٢].

فتح ريّة: بعد فتح كورتى جيان وإلبيرة غزا الناصر كورة ريّة فافتتح حصونها واستأمنه أهلوها فأمنهم ولم يقف أمامه إلا حصن (طَرُّش)[٣] Talx وكان فيه ابن حفصون نفسه ـ ما كان يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا فى هذه الكورة كفوزه فى الكورتين السابقتين لأن ابن حفصون نشر فيها لواء العصيان ونفخ فى أرجائها

(١) ابن عذارى ودوزى. (٢) ابن عذارى.

(٣) قال ياقوت «طرش» بفتح أوله وتشديد ثانيه وضمه ناحية بالاندلس تشتمل على ولاية وقرى.

روح النصرانية، حتى كاد ظل الإسلام يتقلص من ربوعها لكن سهّل فوز السلطان ما شهده فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل سواء فى ذلك المسلمون والنصارى وأنه كان يراعى شروط البلاد المفتتحة ولا ينقضها وأنه كان يخفف المغارم التى طالما أثقلت كواهل الأهلين.

فى هذا الحين قام أسطوله بأمر جلل وهو استيلاؤه على سفن ابن حفصون التى كانت تنقل إليه الأقوات من أفريقية، فى أثناء عودة السلطان إلى عاصمته مرّ على (الجزيرة) ثم على إقليمى شذونة وموزور[1] Moron ثم وصل إلى قرمونة فى اليوم الثامن والعشرين من يونية سنة ٩١٤ وكان فيها حبيب القائم مقام محمد وقد رفع لواء الثورة، أمِن تلقاء نفسه كان العصيان أم بايعاز من أميره؟ ترجحت تهمة الشق الثانى عند السلطان فعزل محمدا من مرتبة الوزارة وأمر بزجّه فى السجن، حاصر المدينة عشرين يوما فى نهايتها استأمن حبيب وفتحت المدينة أبوابها أما محمد بن حجّاج فاطلق سراحه لكنه لم يتمتع بالحرية طويلا بل مات فى ابريل سنة ٩١٥م وبموته انقضت دولة بنى حجّاج بعد أن لعبت دورا عظيما فى تاريخ اسبانيا[2].

لزيادة البيان فى غزوة الناصر السابقة نأتى بما ذكره ابن عذارى فيها مع تصرف قال:

(غزاة أمير المؤمنين إلى كورة ريّة والجزيرة وقرمونة) فى ثامن شوال هذه السنة (٣٠١) فظل غازيا فوجّه حاجبه بدرا إلى حصن (بلدة) فألفى أهله على غرة فقتل منهم وسبى وأسر وتوجه الناصر نفسه بجيوشه إلى حصن (طَرُّش) وحاصره أيّاما يغاديهم الحرب ويماسيهم ويقطع ثمارهم ويحطّم معايشهم ويقتل من تظاهر منهم وأبقى الحصار وتنقل إلى حصون ريّة ومعاقل ابن حفصون يتتبعها معقلا

(١) بزاى معجمة بعد الواو الأولى وراء مهملة بعد الواو الثانية، انظر الهامش الآتى ـ الاسم الافرنجى مأخوذ عن دوزى.

(٢) دوزى ص ٣٣٨ ج٢.

معقلا ويوقع بأهلها المشركين وقائع عظيمة حتى ذهب كثير منهم وبعث برءوسهم إلى قرطبة وألفى لابن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العدوة فأحرقها وأسرع من كان بتلك الجهة من أهل (شانر) وفج (وسيم) و (قلبيرة) و (القصر) وما انتظم بها من أحواز (الجزيرة) إلى الدخول فى الطاعة والاعتصام بها من الهلكة فقبلهم وأمنهم وسكّن أحوالهم، وتنقل منها إلى حاضرة الجزيرة[١] ثم إلى كورة شذونة ثم إلى كورة مورور[٢] ثم أوفى على مدينة قرمونة فاحتلها يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة، وكان حبيب قد أظهر الخلاف فيها فحوصر عشرين يوما حتى استأمن فأومن وأخرج بأهله وأثقاله إلى قرطبة وقفل الخليفة إليها فدخلها يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٣٠١.

وفى هذه الغزاة بعث فى قاسم بن وليد الكلبى صاحب الشرطة وكان قد خالف بقرطبة فسجن وسجن معه محمد بن إبراهيم بن حجّاج وعزل ابن مسلمة عن الشرطة العليا ووليها عباس بن أحمد بن أبى عبده. اهـ.

فى سنة ٩١٥ (٣٠٣) أجدبت الأرض وأعقب الجدبَ مجاعةٌ هائلة فوباء حتى إن سكان قرطبة كانوا يموتون بالألوف وكلّت سواعدهم عن دفن موتاهم وقد قام السلطان وأهل دولته ولا سيما حاجبه بدر بكل ما فى وسعهم لتخفيف ويلات الفاقة بكثرة الصدقات على ذوى المتربة ـ ولم يمكن أن يكون فى هذه السنة غزو بل إن الناصر ضبط أطراف البلاد وتحفظ برعاياه من عادية أهل الخلاف سكان الجبال إذ كان يدفعهم الجوع إلى شن الغارات على البلاد الموالية للخلافة.

وفى آخر سنة ٣٠٦ للهجرة[٣] (مايو سنة ٩١٩ للميلاد) قضى نحبه عمر بن

---

(١) يريد الجزيرة الخضراء فإن أعمالها تتصل بأعمال شذونة كما فى ياقوت.

(٢) براءين بينهما واو كذا فى ابن الأثير وابن عذارى ولكن رأيت فى ياقوت ما نصه «موزور» اسم المفعول من الوزر اسم لكورة بالاندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة وهى عن قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الزيتون والفواكه بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا.

(٣) كذا يؤخذ من ابن خلدون وروّمى كما سيأتى وفى ابن عذارى أنه هلك سنة ٣٠٥ وفى دوزى ٩١٧.

حفصون بعد أن صرف هو ووالده حفصون نحو نصف قرن فى إثارة الثورات وشن الغارات على الأمويين حتى كاد يتثلّ عرش ملكهم من اسبانيا ولذا فرحوا بهبوط انوائه ـ بموت عمر بن حفصون لم تنقطع الحروب فى إقليم ريّة بل مكثت عشر سنين أيضا.

ففى ذى الحجة سنة ٣٠٦ غزا الناصر مدينة (بلدة) فأحاطت بها العساكر فانضم من كان فيها من المسلمين إليهم واعتذروا بأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمنهم الناصر وقاتل النصارى المخالفين حتى ظفر بهم وملك المدينة.

ثم انتقل إلى حصون ريّة فتقرّاها معقلا معقلا يفتح ما مرّ به ومنها ثم نزل على حصن بُبَشتر فحاصره حتى سأله جعفر بن عمر بن حفصون الصلح وقدّم إليه رهائن على طاعته وعلى أداء خراج سنوى فأجابه الناصر إلى ذلك وقفل إلى قرطبة فدخلها فى المحرم سنة ٣٠٧.

وفى سنة ٣٠٧ احتلّ جنود السلطان بحصن طَرُّش وكان به عبد الرحمن بن عمر بن حفصون فأسلمه إليه بدون قتال وتوجّه إلى قرطبة فأنزل وأكرم وكان غير داخل فى الحروب والفتن مدخل أبيه واخوته، بل كان مولعًا بالكتب ونسخها لحسن خطه.

يؤخذ من دوزى أن جعفرا اقترف خطأ عظيما كان طالعه عليه نحسا: اعتقد أن والده أخطأ فى إظهار نصرانيته ونصرانية اسرته لأنه بذلك أبعد قلوب المسلمين عنه، هذا لا ريب فيه لكن الأمر وقع ولا مردّ له وكان يجب أن يركن بنو عمر إلى جنودهم النصارىّ دون المسلمين فإن هؤلاء وقد انكشف الغطاء لهم عن بواطن أولئك لا يصافونهم، وفيما وقع عند حصار مدينة (بلدة) شاهدٌ مَقْنَع ومع هذا كان جعفر يعتقد أن فى الإمكان استرضاء المسلمين عنه برجوعه إلى دينهم فأظهر الإسلام ولم يحسب حسابا لما يحيط به، فكانت العاقبة وبالاً عليه فإن جنوده النصارى غضبوا عليه واعتقدوا فيه الالحاد فأتمروا به وقتلوه سنة ٩٢٠م وأعلنوا

إمارة أخيه سليمان فى بُشتر فبادر بالعودة إليها (وكان فى جند السلطان) لكن كانت إمارته شؤمًا، فقد ساد فيها الفساد وظهر فيها العصيان وطرده الثائرون من المدينة وأطلقوا سراح من سجنهم ونهبوا قصره، لكن بعد يسير من الزمن علم أشياعه أنه دخل المدينة خفية فانضموا إليه وتغلبوا على أخصامه وانتقموا منهم شر انتقام ومع هذا لم يغش زمنا طويلا بل قتله جنود السلطان أثناء مناوشة فى ٦ فبراير سنة ٩٢٧ وخلفه أخوه حفص، لكن دقت ساعة نحسه وجاءه جيش السلطان ورحصر ببشتر من جميع الجهات وقطع معايشها حتى ألجأه بعد ستة أشهر أن يسلم المدينة فى يناير سنة ٩٢٨ (فى ذى القعدة سنة ٣١٥) فاحتلها الجنود وحملوه واسرته إلى قرطبة.

تاقت نفس السلطان إلى رؤية هذا الحصن المنيع الذى صدّ هجمات أربعة ملوك فى مدة خمسين سنة فتوجه إليه بنفسه بعد شهرين من افتتاحه فرأه جاثما كالعقاب على طود شامخ ذا قلاع حصينة وأبراج تناطح السحب فأيقن أن ليس لهذا الحصن نظير فى الأرض بأسرها وسجد لله شكرا على أن ملّكه إيّاه.

لم يخدش وجه فخار الناصر إلاّ ضعف عزيمته أمام إلحاف فقهاء اتبعوه وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون وابنه جعفر من قبورهما فأذن فأزعجوا الاشلاء من نومها الأبدى وبعثوا بها إلى قرطبة فصلبت[1].

ثم استولى على المواقع التى كانت فى أيدى الحفصونيين وأعدم أفرادا منهم وأبقى على آخرين وبعث بمن يخشى شرهم إلى قرطبة.

وبذلك استقامت له بلاد ريّة.

لم يكن الغزو قاصرا فى السنين السالفة على جبال ريّة بل كان يجاوزها إلى عدة جهات أخرى ففى سنة ٩٢١م استنزل الناصر ذرارى ابن مستنة من حصونهم فى جبال باغة Priego وأخضع بربر بنى المهلب فى كورة إلبيرة وفى سنة ٩٢٢م

(١) دوزى.

حصـار حصن منت رويى، وكان من أمنع مـعاقل بنى حفصـون متوسطا بين جـيان وإلبـيرة مـشيـدا على جبل شـامخ يعز على مـن رامه وطالمـا ألقى الرعب فى قلب الحكومة وكان سكانه يغيرون على القرى المـجاورة لهم وينبهونها ويسفكون دماء أبناء السبيل ويسلبون أموالهم ولم يفتحه السلطان إلا بعد أربع سنين من حصاره.

وفى سنة ٩٢٤ اضطر عصاة كورة بَلَنْسِية إلى الطاعة وبعد سنتين أغزى الناصر قائده عبد الحميد بن بسيل بنى ذى النون فانتصر عليهم.

رأى السلطان أن لا خوف حـينئذ من جهـة الجنوب فوجه كل قواه إلى عـصاة كورة أخـرى فظفر بهم ـ ففى سـنة ٩٢٨ أغزى قائده أحـمد بن إسحـاق إلى كورة تدمير فاخضع عصـاتها ـ وفى السنة التالية انتظمت باجة Béja فى سلك الطاعة بعد أن قـاومت خمـسة عـشر يومـا ثم وجـه السلطان جيـوشـه إلى خلف بن بكر أمير أكشونية فأطاع والتزم بأداء الجزية فى كل سنة.

وفى سنة ٩٣٠ خضـعت مدينة بطليـوس بعد أن حاصـرها جنود السلطان سنة كاملة وكان يحكم فيها أمير من سلالة ابن مروان الجليقى.

ليكون عبـد الرحمن وارثا ملك أسلافـه لم يبق عليه إلا إخضـاع مدينة طليطلة فبدأ بإرسال وفـد من الفقهاء إلى أهلها ينبههم إلى أنه لـيس من الحكمة أن يتمادوا فى غيهم ويصروا على عصيان السلطان، وقد دخلت جميع بلاد اسبانيا فى الجنوب والشرق والغرب فى دائرة طاعته فلم ينجح هذا الوفد فى مسعاه فأرسل الناصر فى شهر مايو سنة ٩٣٠ وزيره سعيد بن المنذر إلى طليطلة فحاصرها ـ وفى شهر يونية سار السلطان بنفسـه يقود جيشا كثيفا إلى هذه المدينة ولما قـرب من حصن مورة أمر صاحـبه أن يخليه فلم يسعـه إلا أن بادر بتركه فأقام فـيه عبد الرحمن حـامية ثم حـوّل معـسكره إلى جبل جـرنكش بالقرب مـن طليطلة وأخذت عـساكـره تحطم الزروع والأشـجار وتحـرق القـرى التى فى الضاحـيـة وتهاجم الطلـيطلليين بشـدة عظيمة ثم عاد السلـطان إلى قرطبة بعد أن أمر ببناء مدينة على هذا الجـبل، فأقيمت

وسميت بمدينة الفتح، فعلم الطليطليون من بنائها أن الحصار يدوم فاستنجدوا بملك ليون ولكن جيشه صدته جنود السلطان ـ حينئذ أدركهم اليأس واشتدت بهم المجاعة فاضطروا إلى فتح أبواب المدينة بعد حصار سنتين فعاد السلطان إليها ودخلها فى أوائل أغسطس سنة ٩٣٢ وفرح السلطان بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة ببشتر وشكر الله تعالى على ذلك.

ولزيادة البيان نعيد ذكر بعض الحوادث السالفة مأخوذة عن ابن عذارى مع تصرف فنقول:

فى سنة ٣١٤ (٩٢٦م) أغزى الناصر قوّاده بالصوائف ولم يغز بنفسه فى هذا العام لمحلٍ كان فيه وقحط شديد فأخرج عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الذى كان به بنو ذى النون فأوقع بهم إذ كانوا مرقوا عن الطاعة فقتل بعضهم وافتتح مدينة سُرته[1] فدرّت جبايتها واستقامت، ثم قفل عن الثغر وقد استقامتا أحواله فأخرجه الناصر إلى مدينة ببشتر ليحاصر سليمان بن حفصون فى جملة القواد المحاصرين له فعارض سليمان بعض المغيرين فتبادرت إليه الخيل من جهة عبد الحميد فصرع سليمان عن فرسه فاحتزوا رأسه وقطعوا يديه ورجليه يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة وبعثوا باشلائه إلى قرطبة فرفعت فى خشبة عالية على باب السدة.

وفيها هلك العلج شانجة صاحب پنپلونة وفيها كان القحط شديدا والمحل عاما واستسقى بالناس أحمد بن بقىّ ونفذت الكتب إلى الكور فى الاستسقاء فنزل الغيث.

وفى سنة ٣١٥ (٩٢٧) غزا الناصر إلى مدينة ببشتر لمحاربة حفص بن عمر ابن حفصون فنزل عليها بجيوشه وحاصرها وأقام على حصارها بعض القواد ثم تنقل عنها إلى مدن وحصون أخرى فافتتحها، منها مدينة مالقة ثم عاد إلى بُشْتر

(١) بضم فكسر فتشديد أو بضم فسكون ففتح مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال شنت برية وهى شرقى قرطبة منحرفة نحو الجوف بينها وبين طليطلة عشرون فرسخا ـ انظر ياقوت.

فشدد الحصار عليها بالبنيان حولها وأقام عليها قوادا يضبطون طرقها ويعترضون من يدخلها ومن يخرج منها لا يَدَعوا للحفصونيين مرتفقا ولا معاشا، ثم عاد إلى قرطبة فدخلها يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة وقد استكمل فى غزاته هذه خمسة وستين يوما.

لما اشتد الحصار على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة بيشتر وأحيط بالبنيان عليه من كل جانب كتب إلى الناصر يستأمنه على أن يخرج من الجبل فأمنه وجاء الوزير أحمد بن محمد بن جدير به وبآله وحاشيته إلى قرطبة فدخلها فى مستهل ذى الحجة وعفا عنه أمير المؤمنين وجعله من جملة حشمه ودخل جنود السلطان مدينة بيشتر لسبع بقين من ذى القعدة وضبطها سعيد بن المنذر وأحكم شئونها.

وفى سنة ٣١٦ (٩٢٨) كانت زيارة الناصر وولّى عهده الحكم إلى مدينة بيشتر ففصل من قرطبة يوم الثلاثاء للنصف من المحرم مارا بطريق استجة ثم أشونة، حتى احتل بيشتر يوم الأحد لعشر بقين من هذا الشهر، فلما دخلها وجال فى أقطارها وعاين من حصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها ما أيقن معه إلاّ نظير لها فى الأرض حصانة ومنعة، أكثر من حمد الله على ما افتتح ـ وأمر بنبش جيفتى عمر بن حفصون وابنه فكشفت قبورهما وألفيا مدفونين على ظهورهما فأيقن من شهد ذلك من الفقهاء الغازين معه وغيرهم بأنهما هلكا على دين النصرانية، فاستخرجا من لحودهما وأتى بأعظمهما إلى قرطبة ورفعت فى جذوع عالية إلى جنب الملحد سليمان بن عمر وصاروا عظة للناظرين، وقلّد الناصر أمور مدينة بيشتر سعيد بن المنذر واستنزل سكان حصون أخرى من أجبلهم وخرّبها ولم يبق للنصرانية بتلك الجهة حصن ولا معقل وعادت كورة ريّة ليس فيها جبل مضبوط ولا عدوّ محذور وأبعد إلى قرطبة من تخشى منه الفتنة ليكون الناس أمة واحدة ورعية ساكنة ـ وقدّم عبد الحميد بن بسيل إلى كورة شذونة لهدم حصونها وتبسيط

أهلها وجمعهم إلى مدينة قَلسانة[١] قاعدة الكورة ـ ثم قفل فدخل مُنْية الناعورة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣١٦ وقد استتم فى سفرته هذه ستة وعشرين يوما.

وفى سنة ٣١٧ (٩٢٩) احتبس الغيث وظهر المَحْل وغلت الأسعار واستسقى بجامع قرطبة يوم الجمعة لليلة بقيت من المحرم، وفيها غزا الناصر إلى مدينة بطليوس فقطع ثمارها وقتل كثيرا من أهلها وأحرق ما أخلوه من ديارهم خارج سورهم وحاصرهم عشرين يوما، ثم أبقى عليهم أحمد بن إسحاق وفريقا من الجند ـ ثم انتقل إلى ماردة فأصلح أحوالها وولاها محمد بن إسحاق ـ ثم عاد إلى بطليوس ونزلت عساكره عليها من جهة أخرى وأضروها بتشديد الحصار عليها ثم انتقل إلى باجة وحاربها ونصب عليها المجانيق وقتل كثيرا من أهلها وانحطت بعض أبراجها فاستأمن صاحبها عبد الرحمن بن مالك أمير المؤمنين فأمنه وأخرجه وأهله إلى قرطبة ودخلها وولاها عبد الله بن عمر بن مسلمة ـ ثم انتقل إلى اكشونية بقرب الساحل الغربى فأطاع صاحبها خَلَف بن بكر فأقره الناصر وفرض عليه من الجباية ما التزم ايراده له فى كل عام وعهد إليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألا يقبل نازعًا ولا يكتنف هاربا فالتزم جميع ما أمر به ـ وقفل الناصر ودخل قرطبة يوم الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب.

وفى هذا العام (٣١٧) افتتحت مدينة شاطبة من بلنسية.

وفى سنة ٣١٨ (٩٣٠) افتتحت مدينة بطليوس واستنزل صاحبها ابن مروان الجليقى وأهله إلى قرطبة.

وفيها بعث الناصر وفدا من الفقهاء ذوى الثقة إلى الطليطليين يدعوهم إلى الطاعة والدخول فيما دخلت فيه الجماعة فلاذوا بمعاذير المخادعة وجابوا الناصر بما لم يصغ إليه فبعث إليهم الوزير سعيد بن المنذر فى جيش عرمرم فحاصر

(١) بفتح فسكون ناحية بالأندلس من أعمال شذونة ـ انظر ياقوت.

طليطلة ثم فصل إليها الناصر نفسه فى جيوش كثيفة يوم الخميس ثانى جمادى الأولى واستولى فى طريقه على حصن مورة، ثم احتل محلة جرنكش بقرب طليطلة ثم نزل محلة المقبرة على باب المدينة فشدد الحصار على أهلها وضايقهم مدة سبعة وثلاثين يومًا قطع فيها ثمارهم وخرب قراهم وحطم زروعهم، ثم أمر سعيد بن المنذر ببناء مدينة فى جبل جرنكش سماها بالفتح وأمر بنقل الاسواق إليها ثم أقام محمد بن سعيد على باب القنطرة فى فريق من الجيش وعهد إليهما بالمبالغة فى محاربة القوم ـ ثم قفل الناصر عن مدينة طليطلة ودخل قرطبة يوم الاثنين لأربع خلون من رجب.

وفى سنة ٣١٩ (٩٣١) بعث بالخيل إلى القواد المحاصرين طليطلة وأمدهم بالسلاح وأمرهم بالجد والعزم فى نكاية المحصورين وفيها (٣١٩) بلغ المحاصرين عزم الطليطليين على الخروج لانتهاز فرصة فى ثغور المسلمين فنفر إليهم الوزير أحمد بن محمد بن جدير من قرطبة فى جملة من الجنود، فلما بلغهم خروجه سكنوا.

وفى سنة ٣٢٠ (٩٣٢) فتح أهل طليطلة أبوابها للناصر فإن الحصار لما طال واشتدت وطأته عليهم استنجدوا بنصارى الشمال فلم يغنو عنهم شيئًا ولم يكشفوا عنهم ضرا بل هزمهم القواد المحاصرون، فلما يئس الطليطليون من أن ينصرهم أحد استأمنوا أمير المؤمنين فسار إليهم يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من رجب حتى نزل محلة جرنكش فتلقاه صاحبها ثعلبة مستقيلا من زلته فعفا عنه ثم أمن أهل طليطلة وخرجوا إلى المعسكر وابتاعوا المعايش التى طالما أجهدهم عدمها ثم ركب الناصر إلى المدينة ودخلها وجال فى أقطارها فرأى من حصانتها ومنعتها ما دعاه إلى شكر الله تعالى كثيراً على فتحها، ثم أمر بإقامة بناء محكم ليكون مستقراً للقواد الملازمين فيها وأقام على البنيان قائده درى بن عبد الرحمن وملأها رجالا وسلاحًا وتردد فى ربوعها ثمانية أيام يصلح شئونها ويسوس أمورها

حتى حلت بالمدينة الطمأنينة وفتح أهلوها الحوانيت وانتشروا فى الاسواق آمنين والحمد لله ثم قفل الناصر فدخل قصر قرطبة يوم السبت لعشر بقين من شعبان.

وفيها (٣٢٠) مات الحاجب موسى بن محمد بن جدير للنصف من شهر صفر.

يروى رومى وكندى تاريخ عبد الرحمن الثالث فى العشرين سنة السالفة بلسان آخر فيؤخذ منهما ما يأتى:

كانت أسبانيا لأول إمارة عبد الرحمن بن محمد تتنازعها قوى مختلفة، فأبناء حفصون تغلبوا فى أسبانيا الشرقية على الأرض التى يرويها نهر ابرة المتوسط على الجانبين وبعض رؤساء القبائل فى الجنوب نبذوا طاعة الإمارة الأموية وأهل طليطلة ما كانوا لها خاضعين وأولاد أذفنش الثالث كانوا فى الشمال يقتسمون حكومة أبيهم فقسموها إلى ثلاث ممالك فأخذ منهم غرسية الأرض التى بين نهر دويرة واستوريا والبرارى القوطية المسماة قمبوس Campos وجعل عاصمتها ليون وأردُن تملك على جليقة وفرويلة على استوريا فأول عمل عنى به عبد الرحمن أن هدأ أسبانيا المضطربة فدعا المسلمين لجهاد أبناء حفصون المخالفين فى طيطلة واسبانيا الشرقية، فاجتمع تحت راياته جيش كثير العدد والعُدد يبلغ أربعين ألف رجل فقاده عمه المظفر حتى دخل إقليم طليطلة واستولى على قلاع كانت بأيدى الحفصونيين ولم يجرؤ ابن حفصون على المقاومة بل التجأ هو ورجاله إلى اسبانيا الشرقية تاركًا لابنه جعفر الدفاع عن المدينة العظيمة التى اتخذها فى قلب اسبانيا مجنا وعضداً لحزب.

عندئذ رأى الأمير أن محاصرتها تطول لوفرة مؤنها المدخرة وامكان ثباتها زمنًا طويلاً ففضل أن يتركها ويقتفى آثار أعدائه فلما أدركهم رتب المظفر فرسانه فتولى إمرة المقدمة وأعطى القلب للأمير ابن أخيه والميمنة للوالى عبد الرحمن

ابن زيد والميسرة إلى جهور بن عبد الله والمؤخرة والعساكر الاحتياطية لعبيد الله ابن الغمرى.

كانت جنود ابن حفصون أكثر عدداً يقودها شجعان أسبانيا الشرقية وجبال تدمير وإلبيرة لكنها كانت أقل سلاحا وخيلاً، تقابل الجيشان فى سهل متسع يمتد بين طليطلة وجبال قونكة Cuenca وأخذت الطلائع تتناوش ثم التحم الفريقان مع صرخات أفزعت القلوب وصيحات أبواق ارتعدت منها الفرائص ودارت رحى الحرب طويلا إلى أن رجح جيش الأمير واختل نظام جيش ابن حفصون وتبدد شمله تاركًا فى ميدان القتال سبعة آلاف بين قتيل وجريح ملتجئًا إلى حصنه قونكة، وخسر جيش قرطبة نحو ثلاثة آلاف رجل، أمر الأمير أن يعتنى بالجرحى من الفريقين ثم عاد إلى قرطبة يحيط به الحرس تاركًا عمه المظفر يداوم الحرب مع الحفصونيين، هذه أول واقعة شهدها الأمير.

أخضع المظفر فى غزوته هذه إقليم طليطلة من السفوح الشرقية لجبال الشارات إلى إقليم تدمير ما عدا مدينة طليطلة وكثيرا من مدن اسبانيا الشرقية فإنها لم ترض إلا بإمارة غالب بن عمر بن حفصون.

وقَعَت هذه الحوادث فى الستين الأوليين من حكم عبد الرحمن الثالث.

فى أثناء ما كان المظفّر يحارب الحفصونيين فى الشرق على شواطئ نهر ابره كان عبد الرحمن يقود جيشًا مؤلفًا من فرسان قرطبة ومن أحراسه إلى الجنوب نحو جبال البحر ليخضع العرب المخالفين المستأثرين بأفياء[1] الحكومة وثمرات البلاد وهم الذين عرفناهم فيما سبق يتحصنون فى جبال إلبيرة وشمنتان ورندة ويزدرون بالامراء السالفين ويوالون اغاراتهم على أراضى الموالين لحكومة بنى أمية.

نجح الأمير فى غزاته هذه وفتح البلاد بشهرته وسياسته ذات اللين والمجاملة

(١) الافياء جمع فىء ويراد به الخراج.

وكان يفعل بذاته ما يفعله جيش بسلاحه فقد كان يأتيه كثير من رؤساء القبائل من تلقاء أنفسهم طائعين ملتمسين رضاه سائليه سلاحا يقسمون أنهم يستعملونه بصدق فى الذود عن بلادهم وحفظها خاضعة لسلطانه فكان يرحب بهم ويجذب قلوبهم بخطبه البليغة إلى درجة أنهم كانوا لا يردّون أن يتركوا معسكره ويودّون أن يقاسموه تكاليف الحرب وأخطارها.

قد أثّر هذا المسلك الحسن فى تهدئة البلاد المضطربة أكثر مما كانت تفعله قوة السلاح حتى إن المحاربين لحفصون الساكنين فى هذه الاصقاع مدوا أيدى الطاعة لعبد الرحمن فتقبلهم بما فطرت عليه نفسه من الحسنى ناسيًا عصيانهم وما جرّوه على البلاد من المصايب وخصص لكل منهم عملاً يليق به فانقلبوا يرتقون الفتوق التى اتسعت من جرّاء الحروب الأهلية وشقاق القبائل.

وكان من الرؤساء ذوى الشأن الذين أتوا طائعين فى هذه الغزاة الوالى أحمد ابن محمد بن أضحى الهمذانى الذى كان قائد العصاة فى جبال إلبيرة فتقبله الأمير قبولاً حسنًا وقلّدَه قيادة الحامة وسنراه قريبًا يعود إلى الثورة.

ومنهم عبيد الله بن أميّة وكان صاحب قزلونة ومن أتباع حفصون فلمّا جاء مطيعًا وهو من الاشراف قلدّه الأمير ولاية جيّان.

بعد أن زار الأمير بلاد البيرة كلها بدون أن يجد مقاومة من أى جانب وبعد أن أخضع رؤساء العصاة الأقوياء وبعد أن فتح ما ينيف عن مائتى مدينة عاد إلى قرطبة وأعاد من صحبه من الرؤساء والقوّاد إلى مراكزهم وكان دخوله فيها يوم عيد وسرور عام وقد استغرقت غزاته هذه سنة (٣٠٣ - ٩١٥)

لم يذكر المؤرخون حروبا بين المسلمين والنصارى فى السنين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث ويظهر أن السلم الذى كان بين عبد الله واذفنش الثالث استمر مدة غرسية كلها أى لغاية يناير سنة ٩١٤ على الأقل.

جاء عبد الرحمن الثالث بأعمال جليلة فى أول حكمه فنظّم شئون الجوامع

والخطابة فيها وضرب نقوداً جديدة ووضع عليها اسمه وألقابه ونسخ القرآن بيده وشرحه وفسره للناس وأمر بانشاء جوامع فى قرطبة وغيرها من مدائن الاندلس وباصلاح القديم منها وبانشاء نافورات ماء من المرمر الجميل فى جوامع قرطبة واشبيلية يحيط بهذه النافورات بُوحٌ يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرهما وأمر باصلاح قنطرة النهر الكبير العظيمة المؤدية إلى (مسقيتة Mesquita).

وخليق بالذكر وجدير بثقة الامير من اختاره لادارة هذه الأعمال وهو نصّار أبو عثمان فانه أهل لكل اجلال لا سيما فى هندسة الابنية وتصريف المياه وصيانة الطرق والقناطر.

فى أثناء ما كان عبد الرحمن يقوم بهذه الأعمال فى قرطبة كان عمّه المظفر يعيش فى الخيام فى أسبانيا الشرقية متعقبا ابن حفصون فى هذا الحين جاء الأمير كتاب من عمّه يخبره بأنه غلب العصاة فى كل جهة وأنهم التجئوا إلى الجبال ولا يجرءون على دخول القرى إلاّ خلسة ومع هذا يدعوه إلى الحضور لاتمام أخضاعهم وتوطيد دعائم الراحة والأمن فى البلاد وأنه ينبغى لأجل ذلك أن يجمع الخيل والرّجْل من كورة تدمير ويطارد بهم العصاة ويقسو عليهم ويَدَع معهم سياسة اللين والرحمة جانبا فهم لا يدركونها وربما عدّوها ضعفا.

من أجل هذا الكتاب كتب الأمير إلى قوّاد بلاد تدمير وبلنسية الطائعين أن يأخذوا أهبة الحرب فى أول فصل الربيع لغزو البلاد التى ما زالت فى قبضة العصاة ثم توجّه إلى كورة تدمير فقوبل مع تهليلات الفرح والسرور من سكان المدائن مرسية وأريولة ولورقة وكنتدة[1] Kenteda وزار المدن إلش ودانية وشاطبة ونوَله[2] Nules وطرطوشة وكان يُقابَل فى كل مكان بعلائم الابتهاج.

واقتفى شواطئ نهر ابرة إلى أن صول إلى القنت Elcanith ووقف فيها زمنا

(١) كنتدة بلدة بالأندلس كانت بها وقعة مشهورة بين المسلمين والفرنج سنة ٥١٤.

(٢) قال ياقوت نوله بكسر أوله وفتح ثانيه حصن من أعمال مرسية بالأندلس.

يستقبل رؤساء القبائل الذين أتوا إليه طائعين وكانت قضت عليهم الأحوال بالاندماج فى حزب أبناء حفصون ثم رحل عنها فى جيش كثيف حتى وصل فى وقت قريب أمام مدينة سرقسطة.

ولغالب بن حفصون فيها أشياع كثيرون ولكن أغلب سكانها شهروا أميالهم إلى الإمام عبد الرحمن الناصر وفتحوا أبواب المدينة وقدّموا أنفسهم لرحمة الخليفة فلقيهم بما جبل عليه من الرأفة وشمل جميع السكان بعفوه حتى الحفصونيين ولم يستثن إلا أبناء حفصون أنفسهم فإن العفو عنهم يقتضى روابط وثيقة.

وفى اليوم التالى دخل عبد الرحمن سرقسطة وكان دخوله يوم عيد عند الأهلين وأقام فى قصرها أياما اخلادا إلى الراحة مسرورا من وضعها ومزارعها الجميلة.

وقتئذ أرسل إليه ابن حفصون قائدين يخابرانه فى الصلح فقابلهما الأمير فى معسكره على شواطئ نهر إبرة غير محتفل بهما فعرض عليه أكبرهما بأدب أن الأمير حفصون يرغب أن يعيش بسلام مع الأمير عبد الرحمن وأنه يأسف على الدماء المسفوكة فى هذه الحروب وأنه فى مقابل ذلك يتعهد بالدفاع عن حدود هذه الجهة ويساعد الأمير بجنوده عند الحاجة وأنه يقدّم برهانا على اخلاصه أن يسلّم طليطلة وهو سقار Huescar وجميع الحصون التى فى قبضته.

فأجلبهما الأمير بتؤدة أنه يألم من أن يرى فردا من رعيته شاقّا عصا الطاعة يجرؤ على أن يَعرض على ملكه أمير المؤمنين شروطا للصلح ويسلك مسلك أمير:

ارجعا وقولا له إن لم يأت طائعا فى ظرف شهر لا أقبله بعده أبدا.

رجع الرسولان يجران ذيل الخيبة.

بعد أن وطّد الأمير دعائم الحكومة فى سرقسطة وأقام عمّه المظفر فيها كى

يوالى الحرب على الحدود عاد إلى قرطبة زائراً فى طريقه قسما كبيرا من اسبانيا الداخلة.

لما حلّ ركابه فى قرطبة قابلته الأمة بتهليلات الفرح والسرور لكن كدّر صفوهم أن جاءت أنباء تفيد بأن عصاة جبال رندة قاموا بحركات جديدة تحت قيادة ابن أضحى الهمذانى[١] وأن أكثر من مائة مدينة دخلت فى طاعته وسبب ذلك أن وزيرا دخل إقليم رندة ومعه فئة من العساكر وأجبر الأهلين على دفع المتأخر عليهم من غلال الزكاة[٢] فكبر هذا الأمر على عظماء العرب والمولدين فثاروا وقتلوا أغلب الفئة واتسعت دائرة الثورة واجتمع شيوخ هذا الإقليم واختاروا ابن أضحى رئيسا عليهم ولقبوه بالذَّمِر[٣].

غضب عبد الرحمن من خيانة الذَّمِر وأشياعه وليعاقبهم ويدفع غائلتهم عن المدائن الموالية له والمضطهدة منهم سار فى جيش مؤلف من فرسان قرطبة وجنود استجة وغيرها فأجلى العصاة عن المدن التى احتلوها ودفعهم إلى الجبال ثم دخل جيّان يوم الخميس رابع عشر شعبان سنة ٣٠٦ (١٩ يناير ٩١٩) ليستريح من مطاردة العصاة وليعهد إلى واليها باخضاعهم ثم عاد إلى قرطبة ومعه شاعر يسمى أغلب بن شعيب.

ما استقر قراره بقرطبة حتى جاءه نبأ من عمه المظفر يخبره بفوزه على الحفصونيين وبموت غالب بن حفصون فى حصن من إقليم وشقة فى آخر سنة ٣٠٦ (مايو سنة ٩١٩).

وقد خلفه ولدان سليمان وجعفر فحمد الله عبد الرحمن على موت هذا الطاغية الباذر بذور الشقاق بين المسلمين.

---

(١) سبق هذا جاء الأمير طائعا فقلده ولاية الحامة.

(٢) يعنى خراج الأرض.

(٣) يقول رومى Somor فعربناه بالذمر ككتف أى الشجاع فحقق.

فى الوقت عينه حل وباء باسبانيا والمغرب خرّب البلاد وأهلك العباد وعكف الناس على المساجد يتضرعون إلى الله أن يدفع عنهم سيل هذا البلاء الجارف.

وقد مات فيه إسماعيل بن بُشَير Boshair إمام جامع قرطبة الكبير وكان مشهورا موقرا فدفن فى مشهد حافل.

ومع هذه الداهية الدهماء هبّت زوابع شديدة مكثت أياما حتى اجتثّت اشجارا وقوّضت بيوتا، مع انتياب هذه الكوارث ما زالت المعارك تتعاقب بين والى جيّان لب بن عبيد الله والذمر والى الحامة وقائد عصاة جبال إلبيرة حتى استنجد لب بوالى قرمونة إسحاق بن إبراهيم بن صقر العقيلى لكن لم تجد مساعدته نفعا بل قهرهما الذمر وكاد ينقض على جيّان.

حينئذ جاء إسحاق قرطبة وبلّغ الأمير أنباء هذه المعارك المحزنة فجمع عساكره وقادهم بنفسه إلى جيّان فما وسع العصاة إلا أن يتركوا أرضها ويلتجئوا إلى جبالهم.

وأدرك الذمر وأصحابه المخلصون له حصن الحامة فحصره الخليفة فيه وكانت حوائطه ثخينة جدا ومحصنة بالابراج فأمر الأمير جنوده أن يثلموا فيها ثلمة بالمعاول والنار ففعلوا ودخلوا المدينة وقتلوا رجالها ووجدوا بين جثث القتلى الذَّمر مغطّى بالجروح يكابد سكرات الموت فأحضروه إلى عبد الرحمن فأمر بقطع رأسه وارساله إلى قرطبة وكان ذلك فى أول سنة ٣١١ أو آخر سنة ٣١٠ أى فى فصل الربيع من سنة ٨٢٦[1] للميلاد فى ابريل أو مايو.

ثم توجه الأمير من الحامة إلى غرناطة ووقف فيها أياما إذ راقه جمال موقعها على نهر (الشنيل) فى واد خصيب ذى بساتين بهيجة وأمر أن يبنى فيها مسجد جامع ونَصب أبا حسن على بن عمر المروانى قاضيا لها.

---

(١) كذا فى رومى (ص ١٣٠ ج٤) وهو سهو فإن سنة ٣١١ تنحصر فى سنة ٩٢٣ وسنة ٩٢٤ كما فى التقويمات.

بعد موت الذَّمِر قطع سكان برجالة وجبال (نفادة) كل أمل فى المقاومة فأتوا خاضعين بين يدى الخليفة معترفين بسلطانه وعلو شأنه.

بعد أن سكّن عبد الرحمن اضطراب جنوب اسبانيا حوّل انظاره إلى فتح طليطلة وقد مكثت زمنا طويلا فى أيدى أبناء حفصون.

رأى أن منعتها تحول دون الهجوم عليها وفتحها عنوة فعمد إلى وسيلة أخرى وهى التضييق عليها بالحصار الحازم وقطع معايشها حتى تضطرها المَخمَصة إلى التسليم فأمر عبد الله بن يعلى Laly[1] والى سُرِتة Zurita بأن يقود جيوش طلبيرة وقلعة رباح إلى طليطلة ويتلف مزارعها ويحاصرها بشدة فأخذ هذا يجول فى ضواحيها وجيوشه تقطع الزروع والنخيل والأعناب وتمنع الطليطليين من جنى ثمراتهم واستمر ذلك سنتين.

حتى إن جعفر بن حفصون الذى كان يدافع بشخصه عن المدينة رأى أنه لا يمكنه المحافظة عليها بدون مئونة لكن كبر عليه أن يُرَى مضطرا إلى تسليم نفسه إلى أعدائه فجمع ما يستطيع من النقود وعهد بالدفاع عن المدينة إلى أحد قوّاده وخرج منها وقد أخذت طلائع الصباح تهزم جيوش الليل مع نخبة من جيشه وبعض أخصّائه متجنبا لقاء أعدائه لضعف قوّته.

وذلك أنه فى السنة الثالثة من الحصار أمر الخليفة ولاة ماردة وبلنسية أن يرسلوا أمدادا إلى عبد الله فاجتمع جيوش كثيفة حول طليطلة وحلّ معسكر كثير العدد فى جهة الجوف أو الشمال وهو الجانب الوحيد الذى يمكن منه أن تهاجم المدينة فإن مياه التّاجة لا تحيط به.

وأما الجهة الذى يجرى فيها النهر فكان يظهر للمحاصرين أنها منيعة فإن الجبل التى هى عليه مرتفع غير مطروق.

---

(١) كذا فى رومى «ص ١٣٢ ج٤» ويقول فى موضع آخر «ص ٢٠٠ ج٤» عبيد الله بن أحمد بن يعلى Yali ويذكر ابن عذارى «ص ٢٣٥ ج٢» أن من قوّاد الناصر عبد الله بن أحمد بن يعلى.

حينئذ رأى عبد الرحمن أن حان الوقت المناسب ليحاصر المدينة بنفسه فتوجه مع حرسه ونخبة من أشراف قرطبة إلى معسكر طليطلة فأثر حضوره فى نشاط المحاصرين وتشديد الحصار ولما لاحظ أنهم استولوا على الجزء الأعظم من مبنيات قديمة (ربما كانت قوطبة) قائمة بين المعسكر والمدينة أمر بهدمها.

صارت طليطلة حينئذ مضغوطا عليها بشدة من الجهة التى يمكن أن تؤخذ ومحدقا بها بهمة زائدة على طول الجانب الذى يرويه نهر التاجة حتى صارت كل مقاومة مستحيلة لما رأيت المدينة أنها محاطة بجيوش من نخبة اسبانيا الجنوبية وأن المجاعة حلت بها افتكرت فى أن تسلم.

وفكر ابن حفصون فى إيجاد طريقة يتخلص بها من المدينة التى أحدقت بها الجيوش السلطانية وضيقت دائرة الحصار عليها فجمع كبراء المدينة للتشاور فى الأمر.

فكان من رأى عقلائهم أن يتركوا أنفسهم إلى رحمة الخليفة، وليحسنوا الاعتذار عن مقاومتهم العنيفة الطويلة رأوا من المناسب أن يسهلوا صباح يومِ الهروبَ على ثلاثة أو أربعة آلاف من الشجعان المدافعين عن طليطلة وأن يفتحوا فى الحال الأبواب لعبد الرحمن.

استحسن جعفر هذا الرأى وأخبر به رفقاءه وشجّعهم على اتباعه بدون مهلة منذ فجر اليوم الثانى.

لاح الفجر والنوم راخ سدوله على المعسكر لكن بعض الخيل انتبهت من ضوضاة سير فى الأرض وقد قرب الصباح فصهلت فى مدخل الخيام وقد خرج بغتة ألفا فارس وفتحوا لأنفسهم ممرا فى خلال معسكر العدو وكان كل فارس يردف وراءه راجلا وقد كاد ينجو نحو أربعة آلاف رجل فى خلال هرج ومرج إلا أن أفرادا منهم أُمسِكوا.

وقد حمل عساكر قرطبة كلهم السلاح غير أن الخليفة لما أدرك أن جعفراً

وجنوده هربوا من طليطلة منع جنوده من أن يقتفوا آثارهم وقوى أمله فى الدخول حالا إلى المدينة، وقد تحقق هذا الأمل فى اليوم عينه فقد حضر إليه رسل من أهل المدينة يلتمسون عفوه ويعتذرون فعفا عنهم وعذرهم لاقامتهم فى المدينة وخروج ابن حفصون وجنده منها واستأمنوه على أرواحهم وأموالهم فأمنهم.

وفتحوا له أبواب المدينة فدخلها فى موكب حافل فقوبل من الأهلين بتهليلات الفرح والسرور من كل جانب وقد وافق دخوله المدينة سنة ٣١٥[١] (٩٢٧) بعد أن مضى عليها ما ينيف عن ٤٢ سنة وهى خارجة عن حكم الأمويين.

وقد عهد بحكومتها إلى عبد الله أول محاصريها ورجع منصورا إلى قرطبة فى نهاية هذه السنة ٣١٥.

حروبه الخارجة:

استطاع عبد الرحمن الثالث أن يطفئ نيران الثورات المشتعلة فى أنحاء الأندلس فى نحو إحدى وعشرين سنة وكان خاتمة ذلك فتح طليطلة فى سنة ٣٢٠ كما قصصنا ذلك آنفا.

لم يكن يزعزع أركان دولته هذه الثورات وحدها بل كان يهدد كيانها أيضا قوتان مجاورتان لها وهما مملكة (ليون) القديمة فى شمال اسبانيا ودولة الفاطميين الحديثة فى أفريقية[٢] فكان بينهما وبين دولة الأمويين حروب.

ففى أول ولاية عبد الرحمن الثالث لم يكن فى عزيمته غزو الليونيّين (الجلالقة) ومع هذا بدءوا الاندلسيين بالعدوان فإن ملكهم (اردُن) الثانى عاث بجيوشه سنة ٩١٤م (٣٠٢هـ) فى أرض ماردة يحرّق ويقتل حتى استولى على حصن (الحنش)[١] وضرب رقاب حاميته واستعبد نساءهم وأولادهم ففزع أهل

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ فتح الناصر طليطلة فمنهم من يذكر أن فتحها كان فى سنة ٣١٥ كما فى رومى وابن الأثير وأبى الفداء ومنهم من يذكر الفتح فى سنة ٣٢٠ كما فى دوزى وابن عذارى فابحث وحقق.

(٢) انظر الذنابة الأولى الآتية.

بَطَلْيَوْس من ذلك فجمعوا هدايا نفيسة وقدّموها إليه فقبلها وانصرف منصوراً مثقلا بالغنائم واجتاز نهر التاجة ونهر دويرة وعاد إلى (ليون) وبنى كنيسة للعذراء شكرا على فوزه.

فأراد عبد الرحمن أن ينتقم من ارْدُن لأهل ماردة وإن لم يدخلوا فى طاعته ليجذب قلوبهم إليه فاغزى إلى أرض ليون فى يوليو سنة ٩١٦ (٣٠٤) جيشا تحت قيادة الوزير ابن أبى عبدة فوطئها ونكى فى الاعداء وغنم وسبى وعاد سالما.

ثم أغزاه إليها ثانية فى السنة التالية لأن سكان التخوم شكوا من احراق الليونيّين قُرَى طلبيرة على نهر التاجة وأمره أن يحاصر قلعتهم العظيمة (شَنَت اشْتِيَن San Estevan)[٢] ويسمونها قاشترمورش.

فقاد ابن أبى عبدة جيشًا كثيفا قسمٌ من عساكره بربر جلبهم السلطان من طنجة فشدّد الجيش الحصار على هذه القلعة حتى كادت حاميتها تخضع وتسلم لولا أن أنجدها ارْدُن فجاء وهاجم بخيله ورَجْله ابن أبى عبدة.

وكان فى جيشه ممن لا يعتمد على شجاعتهم ولا ولائهم سوى البربر كثيرٌ من أهل الثغر ذوى النفاق فصاحوا وأظهروا الهزيمة وتبعهم غيرهم وأخلّوا بنظام الجيش لكن ثبت القائد ومن كانوا على شاكلته من الأبطال ودافعوا وآثروا الموت فى حومة الوغى على عار الفرار فقتلوا جميعا، وقال بعض المؤرخين إن الباقين من جيش المسلمين اتحدوا وخرجوا بدوابّهم وأثقالهم إلى أرضهم سالمين[٣].

لم تقطع هذه الكارثة حبل الأمل من عبد الرحمن بل أخذ يتأهب لاعادة الكرة على الليونيّين فى السنة التالية لكن صرفه عن ذلك وقوع الخلاف فى انحاء

---

(١) كذا الاسم فى تاريخ بن خلدون ويقول دوزى قلعة Alanje.

(٢) الاسم العربى من ابن عذارى ص ١٨٦ ج٢ والافرنجى من دوزى ص ٣٤ ج٣ ويقول ياقوت شنت اشتانى كورة من الأندلس.

(٣) انظر دوزى ص ٣٥ ج٣ وابن عذارى ص ١٧٨ ج٢.

الاندلس وما هو حاصل فى أفريقية من اغارة الفاطميين على بلاد المغرب فخشى إن تم لهم فتحها أن يولُّوا وجهتهم نحو أسبانيا فطفق يمدّ يد المساعدة إلى امراء هذه البلاد حتى يكون المغرب مِجَنَّ مملكته دون المغيرين فإنه لما تغلب عبيد الله المهدى على أفريقية كتب إلى سعيد بن صالح[1] أمير نكور[2] بالمغرب يدعوه إلى طاعته وفى أسفل الكتاب أبيات منها:

فإن تستقيموا استقم لصلاحكم
وإن تعدلوا عنى أُقَتِّلكُمُ قَتْلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم
وأدخلها عفوا واملؤها عدْلا

فرفض سعيد وكتب شاعره فى الذيل:

كذبتَ وبيتِ الله لا تعرف العدلا
ولاَ عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلاّ كافر ومنافق
تميل مع الجهّال فى السُّنة المُثْلَى
وهِمَّتُنا العَلْيا لدين محمد
وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فاحفظ هذا الجواب عبيد الله فكتب إلى عامله فى تيهرت المسمى مصالة بن حبوس يأمره بمحاربته فنهض فى ذى الحجة سنة ٣٠٤ ونزل على مسافة يوم من مدينة نكور فخرج إليه سعيد فحاربه ثلاثة أيام بدون أن يظهر أحدهما على الآخر

---

(١) من سلالة عربية ملكت نكور وأرضها منذر من الفتح وبينها وبين دولة بنى أمية فى الاندلس مودة وتراسل.

(٢) مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن البحر بخمسة أميال بناها سعيد بن إدريس وهى الآن مدينة المزمة أو قريب منها كذا يؤخذ من ابن عذارى ص ١٧٩ و ١٨٣ ج١ ولم أر كليهما فى معجم ياقوت.

لكن خان سعيدا أحدُ قوّاده[١] فرجح عليه مصالة وغلبه وقتله واجتزّ رأسه ودخل مدينة نكور سنة ٣٠٥ وانتهبها وقتل رجالها وسبى النساء والذرارى ونجا بنو سعيد لأنهم فرّوا منها وركبوا البحر إلى الأندلس فنزلوا مالقة فأمر الناصر بالاحتفال بهم واكرام مثواهم وأفاض عليهم سحائب نِعَمه وخيّرهم بين المقام فى مالقة والنزول فى قرطبة فاختاروا الأولى ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث فى وطنهم.

وعاد مصالة إلى تاهرت بعد أن أقام فى نكور ستة أشهر واستخلف عليها قائداً كتاميا اسمه ذلول وهذا انفضّ من حوله أغلب عسكره وعلم بنو سعيد بالأمر وكانوا ثلاثة ادريس والمعتصمَ وصالحا فامتطى كلٌّ منهم ثَبَجَ البحر فى سفينة فى ليلة واحدة قاصدا نكور بعد أن اتفقوا على أن من يصل منهم قبل أخَويْه فله الإمارة فسبق إلى الشاطئ أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الأهلون بحماسة شديدة وأعلنوا إمارته وذهبوا به إلى نكور وقتلوا ذلولا وجنده وأعلن الأمير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده وكتب إليه يشكر له على جميله وينبئه بالنصر فأمده الخليفة بالأسلحة والخيام والرايات.

ألْهَتْ حوادثُ نكور عبدَ الرحمن عن أن يقتصّ من الليونيين لقتلهم قائدَه الشجاع ابن أبى عبدة وأبطالَه وهَزْمِهم جيشه لكن نصارى الشمال جاءوا بما نبَّهه إلى ادراك ثأره.

ففى فصل الربيع من سنة ٩١٨ للميلاد (٣٠٥ للهجرة) خرج اردن ابن أذفونش صاحب ليون وشانجة بن غرسية صاحب بنبلونة فى جموع كثيفة إلى مدينة ناجرة[٢] بالثغر الاقصى وعاثت الجموع فى ذلك الثغر وأفسدت الزروع ثم تنقلت إلى تطيلة وبلغت نهر كالمس وجوائز مسقيرة ووادى طَرَسونة[٣] وعبر

(١) انظر ابن عذارى ص ١٨٢ج١.

(٢) قال ياقوت ناجرة بكسر الجيم مدينة فى شرقى الأندلس من أعمال تطيلة وهى الآن بيد الإفرنج.

(٣) قال ياقوت بفتح أوله وثانيه مدينة بالأندلس من أعمال تطيلة.

شانجة نهر ابرة وقاتل حصن بلتيرة وقهر أهل الربض وأحرق المسجد الجامع فأحفظ ذلك كله عبدَ الرحمن الناصر وحرّكه لحربهم.

ففى سنة ٣٠٦ اغزى حاجبه بدر بن أحمد إليهم وهى غزاة مطونية ففصل فى جموع كثيرة يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم ودخل أرض ليون وواضع الليونيين القتال مرتين بالقرب من موضع يسمّى (مطونية) وظهر عليهم وقتل كثيرا من حماتهم وأبطالهم وجنودهم وألجأ المنهزمين منهم إلى الاعتصام بالجبال وتم الفتح لخمس خلون من ربيع الأول وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر فشكر الله على ذلك وقرئ كتاب الفتح فى الجوامع وكتب به إلى الاطراف[1].

بهذا الفوز محا عبد الرحمن عار ما لحق بجيشه فى العام الماضى من القتل والهزيمة لكنه رأى أن هذا القصاص لم يكف لردع الليونيين ورام فوق ذلك لن ينال شرف النصر بنفسه.

ففى سنة ٣٠٨ (٩٢٠) غزاهم غزاة (مُوَيْش Muez) ففصل إليهم يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم وفى اليوم الرابع من فصوله نزل بمخاضة الفتح وورد عليه كتاب من قبل عامل مدينة الفرج يذكر فيه أن أهل جليقية أغاروا على ما ألْفَوْه فى بسيطهم من الدوابّ والسوام وأنهم كانوا بحصن القليعة طامعين فى التغلب عليه فهبّ إليهم أهل المدينة بفارسهم وراجلهم وواضعوهم القتال حتى قهروهم وقتلوا وأسروا كثيرا منهم فتفاءل الناصر بالكتاب ونهض بعساكره حتى نزل مدينة الفرج فنظر لأهلها وعزل بنى سالم عنهم واستعمل على المدينة صهره ابن غزلان واستقضى عليهم محمد بن مسور الفقيه فصلحت أحوالهم.

ثم نهض الناصر فى جيوش تَغَصُّ بها السُّبُل ويضيق بها الفضاء حتى احتلّ بثغر مدينة سالم فورد عليه كتاب من علج حصن وخشمه يَعِده ويمنّيه إذا صرف

(١) دوزى وابن عذارى ص ١٧٩، ١٨٠ ج٢.

جيوشه عنه ووجّهها إلى جهة أخرى فأرى الناصر أنه أعار كتابه أذنا واعية وأظهر التوجّه إلى الثغر الاقصى نحو ابرة وقدمت المقدمة نحوه لكنّه فى الحال حوّل جيوشه إلى اليسار وسار مسرعا حتى احتل بوادى دويرة.

وباتت العساكر عليه ثم أخرج فى الصباح الوزير سعيد بن المنذر فى جرائد الخيل وسرَعَان الفرسان إلى حصن وخشمة فغشوه على حين غفلة من أهله واصابوا نَعَمهم وسَوَامَهم ودوابّهم مهملة فاكتسحوها وانصرفوا إلى المعسكر سالمين غانمين.

وفى صباح الجمعة لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر اندفعت الخيل فى أكمل تعبئة إلى هذا الحصن ففر عنه أهلوه وأخْلَوْهُ ولاذوا بالغياض والصخور فدخله عساكر الناصر وغنموا ما فيه ثم رحلوا عنه إلى حصن قاشترمورش وهى شَنْت اشْتين[١] بيضة النصارى وقاعدتهم.

فلما رأوا المسلمين أخلوا الحصن وفروا عنه فدخله المسلمون وغنموا ما فيه وخربوا حصن القبيلة المجاور له.

ثم ارتحل أمير المؤمنين إلى مدينة قلونية وكانت من أمهات مدنهم فألفَوْها خالية قد شَرَد عنها أهلها فغنم المسلمون ما أصابوه فيها وخربوا ديارها وكنائسها.

ثم ارتحل الناصر عنها إلى ثغر تطيلة ملبيا نداء مسلميها إذ كان العلج شانجة قد ضايقهم فقطع السلطان المفاز الأعظم مسايراً لوادى دويرة حتى احتل حَوْز تطيلة ثم قدّم الخيل مع محمد بن لب عاملها إلى حصن قَلْفَرة[٢] وكان فيه شانجة فأخلاه وضبطه المسلمون.

ثم نهض الناصر إلى حصن قَلَهُرَّة وكان شانجة قد اتخذه معقلا فأخلاه وغنمه المسلمون ثم التقى جيش الناصر وجمع شانجة على حصن ارْنيط[٣] فاقتتلا

(١) كذا فى ابن عذارى والذى فى ياقوت شنت اشتانى كورة من الأندلس.
(٢) كذا اسم الحصن فى ابن عذارى ويقول دوزى Carcar قرقر أو كركر فحرر.
(٣) بضم فسكون مدينة فى شرقى الأندلس من أعمال تطيلة مطلة على أرض العدو... ياقوت.

فانهزم الجمع حتى توارى فى الجبال تاركا كثيرا من القَتْلى والجَرْحَى وبات المسلمون ظاهرين على عدوّهم منبسطين فى قراهم ومزارعهم.

ثم ورد الخبر على الناصر باجتماع العلجين اردُن وشانجة تعاضدهما طامعين فى اعتراض المقدّمة أو انتهاز فرصة فى الساقة فأمر عبد الرحمن بتعبئة العساكر وضبط الأطراف وأوغل بهم فى بلادهما وواضع رجالُه وأبطالُ الثغر وحماتُه اعداءَهم القتال حتى هزموهم وشتتوا شملهم وأخذوا يقتفون آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام ولجأ عند الهزيمة أزيد من ألف علج إلى حصن مُوَيْش ورجَوْا التمنّع فيه فأمر الناصر بتقديم المظل وخيام العسكر إلى الحصن فأحبط به من جميع جهاته حتى تغلبوا عليه واستخرجوا جميع العلوج منه وضربوا رقابهم بين يدى الناصر وأصابوا من الأمتعة والحلى المتقنة والآنية والثمرات والأنعام والخيل ما لا يكاد يُحصى كثرة.

ثم انتقل الناصر إلى حصون المسلمين ينظر فى مصالحهم فكلما ألفى بقربها معقلا للمشركين هدمه وأحرق بسيطه حتى اتصل الحريق فى بلادهم عشرة أميال مربعة واجتمع عند الجنود من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عنه حمله ولم يجدوا لها ثمنا تباع به حتى كانوا يبيعون ستة أقفزة من القمح بدرهم فلا يوجد من يشتريها.

وقفل الناصر يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع الأول حتى انتهى إلى مدينة انتيسة[1] فأقام بها يوما ووصل رجال الثغر فكساهم وحملهم وأذن لهم فى الرجوع إلى مواطنهم ودخل قصر قرطبة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وقد استكمل فى غزاته هذه تسعين يوما[2].

كان يظن بعد ما حالف النصر المبين عبد الرحمن فى غزوة (مُوَيْش) أن

---

(١) كذا الاسم فى ابن عذارى بنون فتاء فياء ويقول دوزى Atienza ولم أجد لكليهما مرجعًا فحرر.

(٢) ابن عذارى.

نصارى الشمال يسكنون زمنا طويلا عن شنّ الغارات على ثغور المسلمين لكن بعد سنتين هَبَّ (أرْدن) وملك ناجرة وأغار (شانجة) على بقيرة واستولى عليها وقتل من كان فيها من الاشراف ووجوه الرجال كبنى ذى اللبّ وبنى ذى النون فجرح هذا الخطب قلوب مسلمى أسبانيا وأثار أشجانهم فهب سلطانهم ليشفى نفوسهم بادراك ثارات المقتولين.

ففى سنة ٩٢٤ (٣١٢) غزا عبد الرحمن النفاريين ففصل من قرطبة فى ابريل (المحرم) ووصل نفارة (أرض بنبلونة) فى ١٠ يوليو (٤ ربيع الآخر) فأفزع اسمه أهليها حتى إنهم كانوا يفرّون من حصونهم عند قربه منها فمرّ على حصون كركر Carcar (قَلْقَرة) وپرَلْته Peralta (بيطرة ألته) وفَلْسس Falces (فالجش) وكَرْكسْتلّو Carcastillo (قَرْقَسْتال) وجنوده يدَمّرون ويُحَرّقون كل ما مروا به ثم توغل فى داخل البلاد متجها نحو عاصمتها.

وقد حاول شانجة مرّات أن يوقفه فى المضايق فخاب وخسر فى كل مرة.

بلغ عبد الرحمن بنبلونة ولم يعقه عائق فأخلاها أهلوها فخرّب عساكره جملة بيوت منها وكنيستها التى كان يحج إليها كثير من النصارى فى كلّ عام وكذا خرّبوا كنيسة أخرى على جبل قريب منها أنفق شانجة على بنائها نفقات طائلة وقد اجتهد فى الذَّود عنها فلم يفلح وجاءته أمداد من قسطيلة هجم بها على المسلمين وقد أخذوا فى القفول فصدّوه وباء بالخسران وعادوا مُظَفَّرين ولم يخسروا فى هذه الغزاة إلا قليلا ويسمّونها غزوة بنبلونة.

عربنا ما ذكرناه فى هذه الغزاة من تاريخ دوزى مع تصرف ومأخذه فيها تاريخ ابن عذارى وقد أسهب فى هذا الموضوع بما لا يخلو عن زيادة أفادة وتبيان فلذا رأينا أن نأتى بما قال بعد تشذيبه وهو:

فى سنة ٣١١ حاصر أهل بنبونة حصن بقيرة وكان فيه عبد الله بن محمد بن

لب ومعه مطرف بن موسى بن ذى النون ومحمد ابن عمه وكثير من وجوه الرجال فتغلب العلج شانجة عليهم جميعا فأسرهم ثم قتلهم.

وفى سنة ٣١٢ غزا الناصر إلى دار الحرب الغزوة المعروفة بغزوة بنبلونة إذ أحفظه ما دار على بنى لب وبنى ذى النون بحصن بقيرة[١] ففصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم فاحتل أول خروجه بمحلة (بالش) ثم أمّ كورتى تدمير وبلنسية واستصلح أحوال أهلها... ثم نهض فى عساكر كثيرة العدد حتى دخل ثغر تطيلة وتلقاه عمال الثغر فى جنود عظيمة وعدة كاملة فدخل بلاد المشركين فحل حصن (قلقرة) Carcar وكان العلج شانجة قد أخلاه فأمر بهدمه واحراق ما فيه.

ثم تنقل إلى موضع (بيطرة ألته)[٢] وكان حوله حصون أخلاها أهلوها وتركوا فى بسيطها أمتعتهم وأطعمتهم إذ عوجلوا عن نقلها ولجأ علوج منهم إلى ثلاثة غيرانٍ فى شفير جرف على النهر فلم يزل العسكر يتسورون عليهم من أعاليها حتى افتتحوها وقتلوا العلوج وسبوا الذرارى وغنموا الأمتعة وهدموا حصون تلك الجهة.

ثم دأب الناصر يتنقل إلى حصون شتى وجيوشه يحرقون ويخربون وينتهبون الأطعمة وكان أخيرها حصن قرقستال على وادى ارغون ثم أوغلوا فى بلدهم ليتوصلوا إلى موضع قرارهم ونكايتهم فى عقر دارهم فتقدموا من فج المركوير فى أتم تعبئة فدخلوا مواضع غير مسلوكة حتى نزلوا بقرية بشكونسة فهدموا مبانيها

---

(١) قال ياقوت (بقيرة) بالفتح ثم بالكسر مدينة فى شرقى الأندلس معدودة فى أعمال تطيلة ـ وبقيرة أيضًا من أعمال رية.

(٢) قال ياقوت بيطرة بالفتح اسم لثلاثة مواضع بالأندلس... بيطرة شلج حصن منيع من أعمال أشقة و (بيطرة لش) حصن آخر من أعمال ماردة (وبيطرة) بلدة وحصن من أعمال سرقسطة ـ ولعل هذا الأخير المراد بحصن بيطرة التة.

وأحرقوا ما كان فيها فجمع العلج شانجة جموعه واستمدّ ببنى جنسه فامدّوه ورجا بمن اجتمعوا إليه أن يكافح جيوش قرطبة ولكن خاب أمله.

فإن جيوش الناصر لما توسطوا بين وادى هيغة هبطت خيل شانجة من الاجبُل فعبر العساكر إليها النهر وواضعوها القتال حتى هزموها إلى مرتقى وعر وجبل منقطع فتقحموا عليها وقتلوا جملة منها وأصابوا الغنائم والسوام وضروب النعم وانصرفوا ولم يصب منهم غير يعقوب بن أبى خالد التوبرى ونفر يسير.

ثم ارتحل الناصر إلى محلّة لنبيرة ثم إلى محلّة لغين والجيوش لا تمر بموضع إلا اصطلمته وتعلفت زروعه وهدمت قراه وحصونه إلى أن بلغ مدينة بنبلونة فوجدها خالية فدخلها وأمر بهدم بنيانها ثم انتقل إلى صخرة قيس فأحرقوا كنيستها ولم يقو العلج على حمايتها بل ولّى مهزوما وصرع من كان عنه محاميا.

ثم تنقل الناصر إلى محلّة أسارية وكان فى ممره إليها فجّ هرقلة ضيق المسلك وعر المجاز فرام النصارى انتهاز فرصة فى المسلمين فأمر الناصر بالتعبئة والاحتراس وجاوزت عساكره ذلك المضيق لكن أعداءهم اعترضوا الساقه متسنمين لأعلى جبل فنهضت الخيل اليهم وقتلت طائفة منهم وهزمتهم فانقشعوا مدبرين ثم نزل المسلمون محلة اسارية ثم ارتحلوا من موضع إلى موضع يقتلون ويخربون إلى أن وصلوا شنت اشتيبن موضع العلج شانجة ومكان طمأنينته يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر فجمع جموعه واستجاش بمدود أتته من ألَبة والقلاع فناشبهم المسلمون الحرب والتحم بينهم القتال فانهزم جموع شانجة إلى أعلى جبلهم وتفرّقوا.

ثم انتقل الناصر يريد قَلَهرّة فتظاهر العلج بجموعه ثانية فتبادر إليه الفرسان فانهزم وقتل له رجال وعقرت له خيل وبلغ الناصر حصن قَلَهُرَّة[1] فألفاه خاليا

(١) مدينة من أعمال تطيلة فى شرقى الأندلس.

فأمر بهدمه ثم تنقّل إلى حصن بلتيرة من حصـون المسلمين فعهد بادّخار الأطعمة عندهم وتفريق الأموال فيهم ثم احتل بمدينة تطيلة ثم رحل عنها قافلا ومر ببنى ذى النون.

وكان يحيى بن موسى قد توقّف عن الجهـاد ودارت عليه مَعَرّة الجيش حتى أذعن واعترف للناصر بذنبه فعفا عنه.

ثم دخل قرطبـة يوم الخميس لثـمان بقين من جـمادى الأولى وقد استـمر فى غزاته هذه أربعة أشهر. اهـ.

قد أضـعفت هذه الغزاة مَلك نَفـارة وحطَّت من شأنه وقصَّت من جناحـه فلا يَخْشَى سلطانُ قرطبة من جهته بأسا وكذا لا يخاف جهة ليون فإن ملكها أرْدُن مات قبل الشروع فى غزوة بنبلونة وخلفه أخوه (فُرُويلة) فلم يحكم إلاّ سنة لم يقاتل فيها المسلمين إلا أنه أمدّ شانجة ملك نَفارة فى هذه الغزاة.

وبعد موته سنة ٩٢٥ تنازع مملكة ليون ابنا ارْدُن: شانجة وأذفُنش فغَلَبَ الثانى لأن صـهره ملك نفـارة ظاهره على أمـره ومع هذا لـم يـيـأس الأول فإنه عند تتـويج أذْفُنْش فى (شنت ياقب[1]) وثب على ليون وتملّك عليها لكن عاد أذفنش وانتزعها منه بمـساعـدة النفـاريّين فى سنة ٩٢٨ فـفرّ شـانجة ابن اردن وتمـلّك على جليقـة القصوى إلى أن مات سنة ٩٢٩.

وفى سنة ٩٣١ مـاتت امـرأة أذْفُنْش فـحزن علـيهـا وتنازل عن الملـك لأخيـه (رامير) وترهب فى دير (سَهَـجون Sahagun) لكنه رأى حيـاة الرهبانيـة لا تلائمه فترك الدير وخرج على أخيه وملك (سمَنْكَس Simancas) فعدّ القسوس نزوعه عن الرهبانية عارا كـبيرا عليهم وهدّدوه بعذاب جهنم فعـاد إلى لُبْس المسْح لكنّه انتهز فرصة غيبة أخيه ليساعد طليطلة[2] وخرج ثانية وملك ليون فرجع إليه رامير سريعًا

(١) ويقال ياقوت.

(٢) كذا يؤخذ من دوزى، وفى ابن خلدون أن أذفنش كان غازيا فى سمورة.

وحاصره بها ودخلها عنوة سنة ٩٣٢ (٣٢٠) فحبسه وثلاثة أبناء عمه (فُرُويلة) لأنهم كان لهم ضَلع معه فى الفتنة وسمَل عيونهم جميعًا اتقاء منازعتهم إيّاه فى الملك.

ترك عبد الرحمن نصارى الشمال يقتتلون كما شاءت أهواؤهم وفى غضون حروبهم الطويلة أخمد نيران الثورات المتأجّجة فى بلاده ومدّ أنظاره إلى بلاد المغرب والشيعة يفتتحونها ويضطرون أهلها إلى الأخذ بمذهبهم ويخدعون الناس بأنهم من سلالة فاطمة وأن فيهم الإمامة على المسلمين وبألقاب سامية انتحلوها لأنفسهم كألقاب الخلفاء العباسيين.

وقد استصرخه بعض أمراء المغرب من جور هؤلاء الفاطميين المغيرين على بلادهم فاغاث المستصرخين وأمدّهم بالذخائر والعُدَد والأموال واتخذهم دعاة له فى المغرب فاستمالوا البربر إليه باسم (أمير المؤمنين الناصر لدين الله) فإنه لما رأى نفسه أحرى بألقاب الخلافة لقوة سلطانه وضعف سلطان العباسيين فى ذلك الحين وقد انتحلها من لم يبلغوا شأوه أمر أن يلقب بهذه الألقاب.

ويؤخذ من دوزى ما معربه بتصرف أن أسلاف عبد الرحمن فى أسبانيا كانوا يكتفون بلقب (أمير) أو (سلطان) أو (ابن الخلائف) معتقدين أن لقب (الخليفة) مختص بمن تدخل المدينتان المقدّستان مكّة والمدينة فى دائرة ملكه وقد تركوهما للعباسيين أمّا الآن وقد تقلّص ظل مُلك هؤلاء ولم يبق لهم إلا بغداد وأرضها فليس ثَمَّ ما يمنع الأمويّين من التلقب بألقاب ترفع أقدارهم فى أعين رعاياهم ولا سيمّا الأفارقة.

ومن أجل ذلك أمر عبد الرحمن أن يلقب بـ (الخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله) وأن يخطب له على المنابر بهذه الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ (ثانى ذى الحجة سنة ٣١٦).

ففى سنة ٣١٩ افتتح الناصر مدينة سبتة على بحر الزقاق (مجاز جبل طارق)

وخطب له فيها باسم أمير المؤمنين ـ وكتب إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يرغب فى الدخول فى طاعته وأن يدعو إليه أهل العدوة ويستعين به على محاربة الحسن بن أبى العيش بن إدريس العلوى فأجابه إلى ما رغب وأمدّه بالخلع والأموال فظهر أمر موسى من ذلك الحين وتجمّع له كثير من قبائل البربر وتغلّب على مدينة جُراوة وأخرج عنها الحسن.

وكتب إلى الناصر محمد بن خزر أمير مَغراوة (قبيلة من زناتة) يرغب فى موالاته ويستنجده على الفاطميين فتقبّله وأمدّه فظهر ابن خزر عليهم وقتل بيده قائدهم مصالة عامل تاهرت وطردهم من المغرب الأوسط (أقاليم الجزائر الآن) وأعلن فيه ولاية خليفة الأندلس.

قال ابن خلدون «ولما فشت دعوة الناصر فى المغرب الأقصى بعث عبيد الله المهدى قائده حميد بن يصل عامل تاهرت فزحف فى العساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكتب موسى بن أبى العافية إلى الناصر يستنجده فأخرج إليه قاسم بن طملس فى العساكر ومعه الأسطول فوصل إلى سبتة وبلغه بأن موسى بن أبى العافية هزم عساكر حميد فأقصر ورجع».

وفى سنة ٣٢١ وصل الخبر إلى قرطبة بولاية أبى المنصور بن المعتز مدينة سجلماسة وهو غلام ابن ثلاث عشرة فمكث فى ولايته شهرين وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح وأخرجه منها وتملكها وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب الدنانير الشاكرية.

وفى سنة ٣٢٢ وصل الخبر إلى قرطبة بوفاة أمير أفريقية عبيد الله الشيعى المقلب بالمهدى وتقديم ولده أبى القاسم الملقب بالقائم بأمر الله.

ويؤخذ من دوزى أن رامير ملك ليون بدّد شمل جيش من المسلمين كان يحاصر وخشمة[1] Osma سنة ٩٣٣ فأثار هذا حميّة عبد الرحمن سنة ٩٣٤ إلى أن

(١) كذا الاسم العربى فى ابن خلدون وابن عذارى والاسم الافرنجى فى دوزى ويقرب لفظه من (خشمة) بدون واو.

ينتقم ويجعل سهول وخشمة تشهد له بالنصر كما شهدت على جيشه بالخذلان فغزاها ورام أن يستنزل رامير من قلعتها إلى ميادين القتال فاستعصم بها.

فترك الناصر فئة تُحْدِق بها وسار نحو الشمال فعاثت جيوشه ولا سيّما الأفارقة في بلاد أعدائهم وخربوا (بُرْغش[٢] Purgos) قاعدة قشتالة وكثيرا من الحصون لكن في أثناء هذه الغزاة امتنع محمد بن هاشم والي سرقسطة من أن يضم قوّته إلى قُوَى الناصر ورفع لواء العصيان فإنه كان حالف رامير ملك ليون على مناوأة الخليفة ودخل في محالفتهما غرسية بن شانجة ملك نفارة وكانت تكفله أمّه طوطة لصغره ـ بهذا تم تحالف ممالك الشمال على عبد الرحمن.

عصى محمدا بعضُ قوّاده واعتصموا بمعاقلهم حتى يسلّموها لسلطان قرطبة لكن جاء رامير في جيوشه وانتزعها منهم وسلّمها إلى حليفه.

سكت دوزي عمّا كان من أمر عبد الرحمن في آخر هذه الغزاة وقد قال ابن خلدون في هذا الموضع أن الناصر غزا في سنة ٣٢٢ إلى وخشمة واستدعى محمد بن هاشم من سرقسطة فامتنع فرجع إليه وافتتح حصونه وأخذ أخاه يحيى من حصن روطة ثم رحل إلى بنبلونة فجاءته طوطة (أرملة شانجة) بطاعتها فعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل إلى (ألَبة) وبسائطها فدوّخها وخرّب حصونها ثم اقتحم جليقة وملكها يومئذ (ردمير) فخام عن اللقاء ودخل وخشمة فنازله الناصر فيها وهدم (بُرْغُش) وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارا ورجع. اهـ.

وفي سنة ٣٢٥ غزا الناصر قلعة أيوب فحاصرها وقتل قائدها مطرّفا التجيبي ومن كان معه من نصارى (ألَبَة) المبعوثين من قِبَل رامير ثم افتتح المدينة وثلاثين حصنا ـ ثم وجّه جيوشه إلى سرقسطة وحاصرها وقاتل صاحبها ابن هاشم حتى سلّم المدينة وأطاع فعفا عنه الناصر ـ ثم غزا بنبلونة فإن ملكتها طوطة انتقضت فانزل بها النكبات حتى أطاعت واعترفت بسيادته على بلادها.

---

(١) كذا الاسم العربي في كتاب نزهة المشتاق والاسم الافرنجي في دوزي.

الآن قد أطاعت أقاليم اسبانيا كلها خليفة قرطبة ما عدا مملكة ليون (بنو إسحاق)[١] أن الذى كان يحاصر سرقسطة من قِبَل الناصر أمير أموى وهو أحمد ابن إسحاق قائد فرسانه وقد قلده الخليفة ولاية الثغر الأعلى لكن هذا القائد لم يقنع بل دفعته أضغاث أحلامه إلى طلب ما فوق ذلك.

كان أكبر أسرة بنى إسحاق وكانت ذات قربى بعيدة جدا من عبد الرحمن وقد حَيِيَتْ أول أمرها فى اشبيلية حياة فقر وخمول زمنا طويلا وصاهرت إلى من دونها ولم ينكر الخليفة عليها نسبها استحياء بل قرّب أفرادها إلى وغمرهم بإحسانه ومع هذا ما كانوا راضين عن مناصبهم السامية فى الدولة فإن أطماعهم ما كانت تقف عند حدّ.

كتب أحمد وهو يحاصر سرقسطة إلى الخليفة يطلب منه أن يقلّده ولاية العهد فأثار كتابه غضب الناصر من موضوعه ومن زمنه غير المناسب ومن دلالته على التراخى والتساهل فى الحصار فكتب إليه جوابا يعيّره بسوء ماضيه ويمنّ عليه بحسن حاضره وعزَله.

عقب ذلك أخذ أحمد ينصب شباك الكيد والائتمار للناصر حتى حاول أن ينتزع منه اسبانيا ويلقى بزمامها إلى الفاطميين وكاتبهم فى هذا الشأن فاطلع الناصر على سرّه فعدّه شيعيا وقتله.

من أجل أخيه رفع أميّة بن إسحاق لواء العصيان فى شنترين (سنة ٣٢٧)[٢] لكنه خرج ذات يوم من المدينة فانتهز ضابط فرصة خروجه وأقام فيها حكومة

---

(١) دخل إسحاق المنتهى نسبه إلى عبد الملك بن مروان الأندلس أول الدولة وسكن اشبيلية أيام بنى حجاج ثم رحل إلى قرطبة واستوزره الناصر واستوزر بنيه من بعده ففتحوا الفتوحات وكفوا المهمات وعلت مقادير فى الدولة ثم كثرت فيهم السعايات وصاروا فى مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغربهم فى النواحى وكان منهم أحمد وأمية.

(٢) فى ابن الأثير وأبى الفداء أن عصيان أمية بن إسحاق كان سنة ٣٢٧، وفى ابن خلدون سنة ٣٢٥.

الخليفة فالتجأ أميّة إلى (رامير) ملك ليون ودلّه على مواضع الوهن فى مملكة الناصر[١].

كان من وراء ذلك أن غزا الناصر رامير فى سنة ٣٢٧ فى نحو مائة ألف من الجنود فنزل على مدينة (سمُّورة) وكانت ذات سبعة أسوار محكمة البنيان وبين الاسوار خنادق ومياه وافتتح منها سورين وعبروا خندقا هناك لكن ارتد أهل المدينة عليهم فقتلوا وأغرقوا منهم نحو خمسين ألفًا وانهزم الباقون وكانت هذه الوقعة بعد ثلاثة أيام من كسوف الشمس الذى حدث فى شوال هذه السنة.

والذى منع ردمير من طلب المنهزمين أميّة بن إسحاق ولولا ذلك لأتى عليهم جميعا ـ ثم تخلص أمية من ردمير واستأمن عبد الرحمن فآمنه وقبله أحسن قبول[٢] وأسر فى هذه الوقعة محمد بن هاشم التجيبى وحاول الناصر إطلاقه فأطلق بعد سنتين وثلاثة أشهر وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردّد البعوث والصوائف[٣] ويسمون هذه الغزوة بغزوة الخندق.

ويؤخذ من دوزى أن السبب فى فشل جيش الناصر فى هذه الغزاة وهو مائة ألف أنه ولى قيادته العامّة سلافيا[٤] (صَقْلَبِيًا) من مواليه يسمى (نجْدة) فأسخط ذلك قواده العظام من العرب وأقسموا «أن الخليفة سيُجْهز على شرفه القديم بهزيمة مخجلة».

وقد كان ما توقعوه فإنهم ألقوا حبل الحرب على غاربها وتجنبوا القتال حتى قتل القائد العام وغطّت اشلاء القتلى وجه الأرض وتمزق شمل الجيش شذَرَ مَذَرَ وكاد يقتل أو يؤسر الخليفة نفسه لولا أن أنقذته يد المقدور ولم ينج معه من حرسه إلا تسعة وأربعون فارسا وقد أثّرت هذه الكارثة فى نفسه حتى إنه بعدها صار لا يصاحب جيوشه إلى ميادين القتال.

---

(١) دوزى.
(٢) المسعودى وغيره.
(٣) ابن خلدون.
(٤) انظر الذنابة الثانية.

لم يذكر دوزى فى هذه الغزاة مدينة (سمّورة) ولا أسوارها ولا خنادقها ولم يسمّها غزوة الخندق كغيره من المؤرخين إلا أنه قال ما مؤداه فى سنة ٩٣٩ أخذ جيش قرطبة طريق سِمَنْكَس (Simancas) فجاء لمقابلته جيش رامير وطوطة وفى ٥ أغسطس دارت رحى الحرب حتى هزم الليونيون القرطبيين إلى مقربة من مدينة (الحندقة Alhandaga) فى جنوب (سلمنقة) على شواطئ (تُرماس Tormès) وهناك جمع المهزومون شتاتهم وواجهوا عدوّهم لكن دارت عليهم الدائرة. اهـ.

فغزوة (الخندق) فى كلام المؤرخين هى غزوة مدينة (الحندقة)[1] عند دوزى وبين الخندق والمدينة بون بعيد لم يتكلم ابن عذارى عن هذه الغزوة الشهيرة، وقد شرحها رومى[2] ناقلا عن كندى فقال ما مؤداه فى سنة ٣٢٦ (من نوفمبر سنة ٩٣٧ إلى اكتوبر سنة ٩٣٨) أمر الخليفة بحشد جنود الأندلس على حدود جليقة فأخذ القوّاد يجمعون جنودهم من جميع الجهات وخطباء الجُمَع يحضُّون الناس على الجهاد وتتابَعَ ورود العساكر من كل جانب تخفق فوق رءوسهم الأعلام حتى اكتظّت الطرق بهم وبآلات الحرب والبغال المحملة بالمؤن والذخائر ـ واحتشدوا فى ضواحى مدينة سلمنقة حتى صارت ضفاف نهر تُرماس وبراريها معسكرا عامّا واسع الأرجاء ـ وفى أوائل سنة ٣٢٧ تمّ احتشاد الرايات وأعلن الولاة الجهاد ولم يبق إلا حضور الخليفة ليفتح باب الغزو.

قام عبد الرحمن من قرطبة ومعه حرسه ونخبة فرسان الأندلس وقام فى الوقت عينه من ماردة عمّه المظفّر يقود فئة من الفرسان.

وفى صفر (ديسمبر سنة ٩٣٨) حضر الخليفة فى موكبه الحافل معسكر سلمنقة وتعهّد هو وعمّه معسكرات الأقاليم المخيّمة فى الضواحى ورتبا الجنود وأعدّاهم للغزوة التى راماها وكانوا ينيفون عن مائة ألف مدجّجين بالسلاح فقسّماهم إلى ثلاث فرق:

---

(١) لم أجد الحندقة فى المعجمات فحرر.

(٢) ص ١٦٤ وما بعدها ج٤.

الأولى أخذ بزمامها المظفّر والثانية قادها والى بطليوس عبيد الله بن أحمد بن يعلى والثالثة كانت تحرك هذا الجيش العرمرم واجتاز نهر دويرة بدون أن يلقى مقاومة وانساب فى أرض العدوّ كالسيل الجارف مخرّبا القلاع التى كان يمر بها ومنها رباط ووخشمة وشنت اشتيبن إلى أن حاصر مدينة سمّورة وامتدّت خيامه على طول نهر دويرة.

كانت المدينة حصينة يكتنفها سبعة أسوار متينة البنيان من صنع الملوك السالفين يتخللها خنادق عريضة عميقة مملوءة بالماء وكانت حاميتها من شجعان الجلالقة فقاومت هجمات جنود عبد الله بن الغمرى ووالى بلنسية وكانوا ذوى شجاعة فائقة وكانت سيوف كلا الفريقين تدمى الفريق الآخر فى معارك عنيفة.

فى هذه الأثناء جمع ردمير ملك الجلالقة جيشًا كثيفا كان فيه أميّة بن إسحاق الذى كان والى شنترين والسببَ الأولَ فى هذه الحرب الشعواء يقود فئة من فرسان المسلمين اقتفت أثره فى خيانة البلاد.

واحتشد مع ردمير فى برغش (غرسية) ملك نفارة أو البشكنس وأمّه (طوطة) و (فردنند) كُونْت قشتالة متحدين على أن يقاتلوا الجيش المحاصر سمّورة.

علم المظفّر بسيرهم ومقصدهم فتقدم بفرقته نحوهم وكان عددها أربعين ألفًا وتبعتها فرقة الخليفة وكانت مثلها فى العدد وفيها نخبة فرسان قرطبة ـ واستمر على حصار سمّورة عبد الله بن الغمرى ووالى بلنسية ومعهما عشرون ألف جندى.

فتقابلت طلائع الجيشين على شواطئ نهر يصبّ فى دويرة (La Pisuerga) وجرت بينهما مناوشة خفيفة والتجأ كلاهما نحو معسكره.

وفى اليوم الثانى حدث كسوف هائل حجب نور الشمس بظلمة مشوبة بصفرة فملأ قلوب شبان الجيش فزعا ورعبا فإنهم لم يروا مثله فى حياتهم ولم يكن أعداؤهم أقل تأثرا بهذه الحادثة.

مرّ يومان ولم تبد حركة من الجانبين لكن ما لاح فجر اليوم التالى إلا وقد بدت الضوضاة فى المعسكرين استعدادا لأخذ العساكر أوضاعهم فى السهل وامتلأ الهواء بأصوات الأبواق وصيحات الجيشين وارتجفت الأرض من وقع الأقدام وصفّ القوّاد جنودهم وامتطى المظفّر فرسا قويا سريع العَدْو واخترق صفوف جنوده باثّا فى أرواحهم الحميّة والإقدام على القتال وقاد بنفسه المقدمة والقلب وسلم قيادة الجناحين لوالى طليطلة وبطليوس.

وأما الخليفة فقد نصب سرادقاته وخيامه على ربوة مشرفة على ميدان القتال وحوله جنود الاحتياط.

حمل أحد الجيشين على الآخر وقد ارتفعت الشمس وهجم المظفّر فى فرقة من الفرسان مدجّجة بالسيوف الهندية والرماح والأقواس لكنها ما كانت مسربلة بالدروع على جهة الوسط التى كان يقود زمامها ملك ليون نفسه لكن ثبت النصارى فى مواقعهم وقاوموا هجمات فرسان المسلمين مقاومة عجيبة.

وكان رامير فى مقدمة فرسانه المسربلين بالحديد يتوغل فى الميدان ويفتك بكل من شخص أمامه ـ وكان بجانبه أميّة بن إسحاق الفارّ من وطنه وشرذمة على شاكلته من فرسان المسلمين يقاتلون إخوانهم فى الدين ويضربونهم برماحهم وسيوفهم الهندية كأنهم ألدّ أعدائهم.

انثنى المسلمون من هجمات رامير وجنوده وأميّة وشرذمته ولما رأى الخليفة اختلالا فى الجناح الأيمن وتزحزُحَ قلب الجيش عن مكانه للعدوّ هجم تحفّ به فرسان قرطبة وأكراسه الصقالبة مدجّجين بطوال السيوف ومتوقين بتروس طويلة على جناح جيش العدوّ وضغطوا عليه بشدة فانكسر الجناح لكن حمل هذا الجيش بأجمعه على هذه الجهة.

وحمى وطيس القتال حتى تجندل على الأرض بالقرب من الخليفة فرسان شجعان أصيبوا بطعنات بعد أن جاءوا بالعجائب فى هذه الحرب الزبون ومع هذا

كان يظهر رجحان كفة المسلمين فإن النصارى أخلوا ميدان الحرب وانصرفوا لأنهم كانوا دائما فى القتال أمام جيش قوى يسير فيه الخليفة ممتطيًا جوادا أبيض مرتديا بُرْدا طويلا على رأسه تاج الخلافة خفيف العُدّة ممسكا بيده مصحفًا مفتوحا على السرج مسمعًا الآيات التى تبعث فى المقاتلين روح الشجاعة.

لكن بينما هو محاط بأحراسه الأبطال يحيى شخصه فيهم أمل الفوز إذ أرخى الليل سدوله فحال دون القتال وبقى النصر غير محقق لفريق دون آخر وقد عزاه كلاهما إلى جهته.

بقى المسلمون فى ميدان الحرب وهو مغطّى باشلاء القتلى والجرحى ونصبوا خيامهم فيه مع السرعة وقضوا ليلتهم فيها باثنين بين الأموات مترقبين مع الضجر طلوع الشمس ليعيدوا كرة القتال.

ومع هذا كانت خسائر المسلمين أعظم من خسائر النصارى ولو كان هؤلاء أعادوا القتال فى اليوم التالى لكان النصر بلا ريب حليفهم ـ كذا يصرّح العرب أنفسهم بذلك قائلين إن السبب فى نجاة جيش المسلمين إشارة ابن إسحاق على رامير فى الليل بأنه لا يعود إلى قتال أعدائه خشية خداعهم ولأنهم أكثر عددا من جنوده فاعتقد صحة ذلك ورجع وحرمه الله من الفوز والقدرة على مساعدة المحصورين فى سمورة.

لما رأت جيوش عبد الرحمن أن الاعداء رحلوا وأن لا فائدة من اقتفاء آثارهم تركوا فصائل من الفرسان على شواطئ النهر ورجعوا إلى معسكر سمّورة وقد هجم المحاصرون على أسوارها المحصّنة بالقلاع هجمات عنيفة ولكنّ المحصورين دافعوا عنها دفاع الأبطال حتى إن الهاجمين ما كانوا يخطون إلى الأمام إلا باراقة دماء كثير من شجعانهم.

قوّى عزائمهم حضور الخليفة وعمه المظفر فثلموا وهدموا سورين ثم

تقدموا إلى حظيرة مستديرة يقطع وسطها خندق واسع عميق مملوء بالماء فأصابهم وابل من نبال الحامية وهبّ عليهم إعصار من سهامها فهلك منهم ألوف مؤلفة.

فجاء جنود الغرب وجنود طليطلة وألقوا جثث إخوانهم فى الخندق حتى كونوا شبه قنطرة مروا عليها ـ حينئذ لم تستطع الحامية أن تدافع فتسلق الجنود الاسوار وكسروا أبواب الحديد المزدوجة وفتكوا بالرجال وأبقوا على النساء والأطفال وصارت أعلام النصر تخفق فوق قلاع سمورة كلها فى شوال سنة ٣٢٧.

عاد عبد الرحمن إلى ماردة ومنح القواد الذين امتازوا فى هذه الغزاة أسلحة وخيلا ثم رجع إلى قرطبة فقويل من أهليها بالحفاوة.

هذه غزوة الخندق الشهيرة وكان شرها مستطيرا على الغالب والمغلوب.

ما رواه كندى فى هذه الغزاة صريح فى أن عبد الرحمن انتصر فيها وملك سمورة وهذا لا يطابق ما رواه المسعودى ودوزى وقد ناقش هذا الموضوع رومى ثم قال أخيرا ما معناه:

كل هذا يحمل على اعتقاد أنه عقب العودة إلى معسكر سمورة من واقعة سمنكس التى كان النصر فيها غير محقق شدّد الخليفة والمظفر الحصار على المدينة فعاد رامير وحاصر المعسكر فصار المسلمون فى هذا الموضع غالبين ومغلوبين فاستولى بعضهم على سمورة ورفعوا عليها أعلامهم ولكن اشتروا ذلك بثمن غال وهو خسارتهم الفادحة التى نوّه عنها المسعودى.

وأخذ بعضهم تحت امرة الخليفة والمظفر يقاتلون محافظين على النظام راجعين القهقرى إلى سلمنقة.

وبناءً على هذه النتيجة وأظن أنها قريبة من الحقيقة يكون هناك محلّ لنصيحة ابن إسحاق لرامير ولعودته إلى عبد الرحمن التى ذكرها المؤرخون جميعا... ولما علم رامير بتقهقر الخليفة إلى جنوب نهر دويرة ظهر أمام سمورة ولم يلاق

صعوبة فى الاستيلاء عليها ومن هنا يتبين أنها لم تمكث فى أيدى العرب إلا بضعة أيام وقد وقع أغلب المدافعين عنها فى قبضة يد العدوّ. اهـ.

فى السنة التالية غزوة الخندق نزعت ولاية قشتالة إلى الانفصال من مملكة ليون وجاهرت بالعصيان فأعلن رامير أنه لحسم الخلاف بالحسنى سيعقد مجلسا يكون له القول الفصل فى الأمر ودعا إلى المجلس رؤساء قشتالة الأربعة فجاءوا فأمر بالقبض عليهم وحبسهم فعدّ القشتاليون هذا العمل خيانة وأقاموا الكونت فرْدنَند جونْسَلز رئيسا عليهم لينتقم من الليونيّين فشهر الحرب على ملك ليون لكن كَانَ من المقدور أن انتصر رامير على خصمه ففاجأه وألقاه فى سجن ليون فتعلقت قلوب القشتاليّين به حتى صنعوا له تمثالا وعبدوه ولما ضجروا من طول سجنه عزموا عزما أكيدا على تخليصه بالقوة من السجن فاجتمعوا جميعا شبّانا وشيوخا وأقسموا أن لا يعودا إلى قشتالة بدون سيدهم وأن كل من يتخلف يعدّ خائنا فتركوا برْغُش وأرباضها خالية ليس فيها غير النساء والاطفال وساروا رافعين تمثال وراية فردننذ ـ من اقترابهم خشى الملك فعدل عن رأيه وأطلق لهم زعيمهم على شروط ملائمة وقد أقسم هذا يمين الطاعة ولتوثيق عرى الصداقة زوّج ابنته برّاقة ارْدن بن رامير(١).

قال رومى إن الكونت فردننذ والكونت ددَقوس شهرا الحرب على الملك رامير لاسباب غير معلومة وبعد أن جمعا جيشا فاجأهما الملك وحبسهما ولم يطلقهما إلا بعد أن أقسما أن لا يعودا إلى محاربته.

استتب السلام بين رامير وفردننذ واقترن ابن الأول المسمى ارْدُن الثالث بابنة الثانى المسماة براقة Urraca(٢).

---

(١) دوزى.

(٢) بحث رومى فى الاسم الافرنجى ورده إلى الاسم العربى وقال إن معناه اللماعة أو ذات الألوان أو المشوبة بالبياض والسواد وأن العرب تطلق هذا اللفظ على ما كان أبيض أسود وعلى العين والعنز والبط والغراب وأنه ما زال اللفظ الافرنجى يطلق على الأخير فى اللغة الاسبانية ـ فانظر وحرر.

كان تنازع نصارى الشمال من الأسباب التى أدت إلى توالى نصرات المسلمين عليهم.

ففى سنة ٣٢٩ أغزى الناصر قائده أحمد بن يعلى إلى أرض ليون فعاث فيها وقتل وأسر وسبى وأرسل إلى قرطبة مائتى علج اسراء[١].

يروى رومى عن كندى هنا أن الوالى عبد الله القرشى جمع جيوشه واجتاز بها حدود جليقة فقابلته جيوشها فى مكان صعب يكتنفه نهر دويرة من جانب وجبلٌ عال وصخور منحوتة من جانب آخر وصار القتال لا مناص منه ولم يبق أمل للمسلمين فى السلامة إلا بالفوز فدارت رحى الحرب فكان النصر حليفهم وملكوا قلعة (سان استيفان دوغُرمَز)[٢] واحمرّ وجه ماء النهر من دماء الأعداء والله يعلم عدد قتلاهم وكانت هذه الوقعة سنة ٣٢٩ (من ٥ اكتوبر سنة ٩٤٠ إلى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٤١) وقد ذكرها القرشى هذا فى شعر له قالوا إن معناه (من جهة يكتنفنا دويرة ومن أخرى جبل شامخ ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالنصر ولا أمل إلا فى الشجاعة، سالت دماء المشركين فأخجلت مياه دويرة).

وفى سنة ٣٣٢ أغزى الناصر قائده أحمد بن إلياس إلى أرض ليون فدخلها وغنم وأحرق جملة من حصونها ورجع.

يقول رومى ما معناه «إمّا لأن ردمير لم يلاق نجاحا فى ذلك الزمان وإما لأنه ملّ الحروب أرسل فى سنة ٩٤٤ (٣٣٢) رسلا إلى قرطبة ليتكلموا فى الصلح فقابلهم عبد الرحمن بالحفاوة.

وعقدت هدنة بين الامتين مدة خمس سنين وأرسل الخليفة وزيره أحمد بن سعيد (شهيد) إلى ليون ليبلغ سلامه إلى الملك فعاد الوزير مسرورا ـ ومع ذلك جرى فى خلال هذه الهدنة قليل من الحوادث من جهة العرب».

---

(١) ابن عذارى ج٢ ص ٢٢٦.

(٢) هى شنت اشتبين التى تقدم ذكرها.

وفى سنة ٣٣٥ أعاد الناصر بناء مدينة سالم وقوّاها فى الثغر الأوسط الشرقى مواجهة لمدينة قشتيلة فكانت ردءاً للعرب وشجا فى حلوق القشتيليين.

وفى سنة ٩٤٩ (٣٣٧) انقطعت الهدنة بين ليون وقرطبة فاعتدى ردمير على طلبيرة، يروى من جهة أنه قتل اثنى عشر ألفة وأسر سبعة آلاف وعاد منصورا، ويروى من أخرى أن عبد الرحمن أعلن الجهاد فى هذه الصائفة وجمع الرايات من الأقاليم ودعا من أفريقية والى فاس محمد بن الخير اليَفرَنى الزناتى فجاء فى جيش من البربر ـ وعهد الخليفة بقيادة الجيش العام إلى حاجبه أحمد بن شهيد فدخل أرض النصارى وطردهم من سِتْمَنقة Setmanica ودفعهم إلى الجبال وغنم غنائم واسعة ـ وقد أعلت شأنه هذه الغزاة وأمدت صيته وأنالته من الخليفة كل رعاية.

أعقب ذلك رومى بأنه يظهر أن هذه الصائفة جاءت بعد حملة رامير على طلبيرة في أثناء ما كان هذا الملك تخامره سكرات الموت.

وفى سنة ٣٣٩ أخرج الناصر قائده أحمد بن يعلى إلى أرض ليون فافتتح ثلاثة حصون منها وسبى نحو ألف سبيّة وانصرف.

وفيها مات رامير ملك ليون وخلفه ابنه اردُن ونازعه أخوه شانجة وقيل غرسية وكان من وراء نزاعهما أن ظهر المسلمون عليهم فى السنين التالية حتى إنهم فى سنة ٣٤٤ قتلوا نحو عشرة آلاف منهم وأرسلوا إلى قرطبة رءوس خمسة آلاف فعلقت على سور قرطبة.

وفيها أرسل اردن سفيرا إلى قرطبة ليسأل عبد الرحمن الصلح فصغا إليه.

وفى السنة التالية (٣٤٥) أرسل إلى ليون سفير بن محمد بن حسين وابن شبروط اليهودى ليتفقا هما واردُن على شروط الصلح فتساهل ووضعوا أساسها وعاد السفيران إلى قرطبة ليوقع عليها الخليفة فأمضاها بعد أن ارتضاها ابنه الحكم.

يقول دوزى مـا معناه أن رامـير تزوج امرأتين إحـداهما جليـقة ولدت له اردُن والأخرى (برّاقـة) أخت غرسيـة ملك نفارة ولدت له شـانجة ـ فبـعد موت رامـير طلب اردُن كرسى الملك لنفسه لأنه البكر وطلبه شانجة أيضًا لأنه من بيت المُلك فى نفارة واستمال إلى حزبه فردنند زعيم قـشتيلة وزوج خالته فإن أم شانجة وامرأة فردنند أختـان أمهما طوطة فهذه من جـهة حماة فردنند ومن أخرى جـدة شانجة ـ وكـيف مال فـردنند إلى شانجـة ومـال عن صهـره اردُن لأن الظروف قضت عليـه بذلك فدعـا رجاله إلى حمل السـلاح وسار معـه شانجة وجيـش من النفاريين إلى مدينة ليون لنزع تاج الملك من أردن.

فى أثناء ما كان الفريقـان يقتتلان تحت أسوار ليون كان قـواد الناصر ينتصرون فى جميع مـواقع التخوم وترد الرسائل تتـرى إلى قرطبة مبشـرة بالفتوحات ومـعها جملة أجراس وصلبـان ورءوس مجتزة وقد بلـغ عدد ما ورد من هذه الرءوس فى سنة ٩٥٥ خمسة آلاف رأس ومع هذا قد انتصر فردنند بالقرب من (سان استيفان) ونهب أردُن اشبونة بعـد أن دفع أخاه وأخضع الجلالقة الثـائرين ولكن كان الجزاء ضئيلا فلم يعدل ما ناله المسلمون من النصارى ـ خشية من تجدد الاغارات رغب أردن فى الصلح فـأرسل رسولا إلى قـرطبـة يطلبه فى سنـة ٩٥٥ فصـغا إليـه عبـد الرحمن وأرسـل فى السنة التـالية إلى ليون محـمد بن حسين وهَسْـداى بن شبروط اليهودى المدير العـام للجمارك ـ فلم تطل المفاوضات فـإن اردُن تساهل فى قبول مطالب الرسـولين (يظهر أنه وعـد بتسـليم بعض الحصـون أو هدمهـا على الأقل) وأقرّوا جميعا دعائم المعاهدة وعاد الرسولان إلى قرطبة ليقرّها الخليفة أيضا فرآها شريفة ومفيدة ولكنها غير كافية وليس فى أجله متسع لتنفيذها فإنه كان قد بلغ نحو السبـعين وأنها تختـص بزمن ابنه الحكم فألقاها إليـه ليقطع فيـها أمرا فوافق عليـها فأمضـاها الخليفة ـ وبعد قـليل من الزمن أمضى معاهدة أخـرى مع فردنند فلم يبق عدوّ للمسلمين فى أسبانيا سوى النفاريين. اهـ. معربا.

فى آخر سنة ٣٤٥ مات أردن الثالث ملك ليون فخلفه شانجة المعروف بالسمين لسمن أصاب جسمه فأعياه وبعد سنة من حكمه ائتمر به الأشراف وخلعوه لاستبداده وولوا عليهم اردُن بن أذفُنش فهرب شانجة إلى بنبلونة حاضرة نفارة وشكا أمره إلى جدته الملكة طوطة وابنها الملك غرسية ثم سار فى وفد إلى قرطبة سنة ٣٤٧ مظهرا أنه يرغب فى التداوى عند اطبَّاء العرب الماهرين فى الطبّ فى ذلك الحين ـ لكن دَلَّ على أن غرضه كان سياسيا أيضا خروجه فى جيش من المسلمين سنة ٣٤٨ للاغارة على مملكة ليون وقد تم استرجاعها إليه فى سنة ٣٤٩ ـ هذا القدر المجمل من تاريخ شانجة السمين هو الذى يمكن الحكم بصحته ـ ولزيادة البيان نعرّب ما قاله دوزى وما قاله رومى فى هذا الموضوع مع تصرف.

فيؤخذ من دوزى أنه لما مات أردُن الثالث فى مارس سنة ٩٥٧ خلفه على مملكة ليون من كان ينازعه فيها وهو أخوه شانجة[1] فلم يقبل معاهدة الصلح التى كانت أبرمت بين أردُن وعبد الرحمن وكان من شروطها التزام الأول بهدم الحصون القريبة من ثغور المسلمين فأمر الناصر قائده الشهم أحمد بن يعلى والى طليطلة أن يغزو ملك ليون الجديد فغزاه وانتصر عليه انتصارا مشهوراً فى يوليو هذه السنة، فسرّ هذا النصر الخليفة وقوّى عزيمته على غزو عدوه الآخر فى أفريقية فكانت ولاية شانجة شؤما على البلاد وأيضا على نفسه لأنه اجتهد فى كسر شوكة الأشراف ومحو نفوذهم واستبدّ بالحكم المطلق فكرهوه وفوق ذلك استفحل به مرض السّمن حتى كان لا يستطيع ركوب الخيل ولا يمشى إلا متكئا على آخر فكان الشعب يهزأ به ويعدّه اضحوكة فاتخذ (فردنند) كونت قشتيلة سخط الليونيين على ملكهم ذريعة لخلعه فأتمر هو والجيش به فخلعوه فى فصل الربيع

(١) كذا فى دوزى ـ وفى ابن خلدون وابن عذارى أن الذى كان ينازع اردن بن ردمير هو أخوه غرسية.

من سنة ٩٥٨ واختاروا من بيت الملك اردُن بن أذفونش الرابع ملكا عليهم (وزوَّجه (فردنند) ابنته (برّاقة) أرملة أردُن الثالث.

التجأ شانجة إلى بنبلونة وشكا ما أصابه إلى جدّته طوطة التى كانت تحكم نفارة باسم ابنها غرسية مع أنه كان قد بلغ سن الحكم بنفسه منذ زمن بعيد فامتعضت من الليونيين والقشتيليين وأقسمت لتستردَّنّ إلى حفيدها ملكه مهما كلّفها ذلك من الصعاب.

لكن ليس الأمر سهلا لأن نفارة وحدها لا تقوى على مهاجمة ليون وقشتيلة معا ولأن شانجة ليس له فى مملكته القديمة من راغب ـ فلم تر طوطة أمامها إلا أن تحالف الناصر الملك القوىّ وتستعين به على مأربها وتطلب منه طبيبا من نُطُس قرطبة التى كانت وقتئذ مطلع الأنوار ليعالج حفيدها من سمنه الفظيع حتى إذا عاد إليه كرسى الملك فى ليون يمكنه أن يتبوأه بنفسه ولا يصير هُزْأة للناظرين لهذا أرسلت طوطة سفراء إلى قرطبة.

فلما عرضوا على الخليفة سبب مجيئهم أجابهم بأنه سيرسل طبيبا إلى بنبلونة ليداوى شانجة من علته ويعرض على بيت الملك شروطا فإذا رضى بها أمدَّ الملك المخلوع بجيش يردّ إليه كرسى ملكه.

بعد رحيل السفراء دعا عبد الرحمن إليه (هَسداى Hasdai) اليهودى وكان ماهرا فى الطب ذا دهاء فى السياسة عارفا لغة النفاريين وبعد أن زوَّده بتعاليمه أرسله إلى عاصمة نفارة فاستمال إليه شانجة ووعده بالشفاء القريب وقال له إن الخليفة يطلب منك أن تتنازل عن عشرة حصون وهو ينيلك مأربك فوعد شانجة بتسليمها بمجرد عودته إلى ملكه.

لم يكن ذلك فقط مهمة (هسداى) بل كلّفه الخليفة أيضا باستمالة الملكة وابنها وحفيدها إلى زيارة قرطبة ليتحالفوا ويتفقوا على خطة السير فيما يرومونه باطنا ولمداواة الحفيد ظاهرا فنجح (هسداى) فى ذلك ووصلت الملوك الثلاثة

طوطة وغرسية وشانجة إلى قرطبة فاحتفل الناصر بلقائهم احتفالا باهرا وأنزلهم فى الزهراء.

وبعد زمن هاجم جيش النفاريين قشتيلة وهاجم جيش المسلمين مملكة ليون يصحبه شانجة وقد عوفى من ورمه وصار نشيطا خفيفا فاستولى الجيش أولا على سمّورة وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ خضع لشانجة جزء كبير من المملكة وقد قاومت عاصمتها زمنا لكنّ هرَب ارْدُن الرابع منها إلى استوريا أسقطها سنة ٩٦٠ ـ ولما ثاب إلى شانجة ملكه أرسل إلى الناصر يشكره على صنيعه.

ويؤخذ من رومى أن موت ارْدُن فتح باب التملّك لأخيه شانجة الأول بعد أن كان مؤصداً فى وجهه فسار على رغبات أشراف ليون فى السنة الأولى من حكمه لكنه استبدّ عليهم بعدها فنقَموا منه ذلك وخلعوه وكان روح هذه الفتنة (فردنند) كونت قشتيلة مع أنه كان عضداً له أولا وملّكوا عليهم ابن أذفنش الرابع (الراهب والأعمى) وكان يسمّى ارْدُن وزوّجه الكونت ابنته برّاقة مطلقة وأرملة ارْدُن الثالث فاضطر شانجة إلى الفرار من ليون ولاذ بخاله الأكبر غرسية فى بنبلونة فتقبله قبولاً حسنًا لكنه لم يساعده بجيش يرد ليون إليه.

ومع هذا كان مأوى شانجة الجديد خيراً من القديم فإنه منذ سنين كان عرضه لاستفحال السمن بجسمه ولا يبعد أن يكون ذلك هو الحامل على اقصائه عن كرسى الملك فإن سمنه الثقيل كان يمنع جسمه من ممارسة الأعمال حتى صار لا يقدر على ركوب الخيل ولا أن يحفظ نفسه فوق ظهورها وذلك ما كان يشين الملك فى ذلك الزمان.

لعلة شانجة الشائنة ولشهرة أطباء العرب فى تلك الحقبة أشارت عليه أسرته فى نفارة أن يعرض نفسه عليهم فى قرطبة ـ ومع هذا كان سفر شانجة إلى دار الخلافة يرمى إلى غرض سياسى وهو استمالة الخليفة إلى مساعدته بقوة عسكرية ترد إليه ملكه المسلوب فإن غرسية ملك نفارة أرسل إلى قرطبة وفدا المعروف من

أمره أنه يصحب شانجة لغرض شفائه من علته ولكنه كان مكلّفا بمفاوضة الخليفة فى التحالف وفى استرجاع مملكة ليون وقد اشتركت طوطة أم الملك فى هذه السياحة فرحّب عبد الرحمن بشانجة وأنزله فى قصره وخصّص لعلاجه أطباءه فداوَوه بشراب مركب من عصارات الأعشاب حتى أضاعوا من جسمه كثافة الشحم وردُّوا إليه لطافته وخفته ـ ويؤخذ منه فى موضع آخر أن زيارة شانجة قرطبة كانت سنة ٩٥٦ وأنه حصل فيها على صحته ونشاطه الأول وأنه أقام فيها زمنًا طويلا بين العرب حتى تعلّم لغتهم وعاداتهم ونال محبة الخليفة وخيراته ثم أظهر رغبته فى ردّ مملكته المغتصبة وطرد اردُن الدخيل من ليون وكتب إلى خاله غرسية بذلك وفاوض ديوان قرطبة فى هذا الشأن فعبّأ له جيشًا قلده الخليفة قيادته.

لم يذكر التاريخ شروط المعاهدة التى ابرمت بين الملك المخلوع والخليفة لكن يظهر من عدة شواهد أنها لم تكن ثقيلة ولا مزرية بشرف الأول وأنها كانت تنطوى على الاتحاد الودّى بينه وبين الثانى.

توجّه الجيش نحو ليون فى وقت كان الليونيون فيه يمقتون اردُن الرابع لاجحافه بحقوقهم ولفساد أخلاقه وكان يحسّ من رعيته البغضاء له فلما بلغته اشاعة سير جيش العرب نحو ليون لخلعه وإقامة شانجة فى كرسيّه لم يسعه أن ينتظر دنوه منها بل فرّ ليلا إلى الاستوريّين.

لم يُرَ من جيش العرب أثناء مسيره اعتداء ولا قسوة بل كان يعامل بالحسنى المدائن التى تفتح أبوابها لشانجة بدون مقاومة ويقهر المدن التى تأبى قبوله إلى الدخول فى الطاعة.

وكانت البلاد المفتوحة ترحب به وتهلل وتعدّه مخلّصًا لهم وما زال يتنقل الجيش من مدينة إلى مدينة ومن تهليل إلى تهليل حتى بلغ ليون حيث كان ينتظر شانجة جمهور عظيم ليحتفلوا به ـ عند ذلك اضطر اردُن إلى الرحيل بأسرته من استوريا إلى برغش حيث كان يحكم صهره فردنند فلم يجد فيها مأوى كما كان

يأمل إمّا لغيبة فردنند كما يقول ذلك بعض المؤرخين[١] وإما لتغيّر أواصر المصاهرة بينهما لاسباب مجهولة فى التاريخ فألجئ اردُن وحده إلى الانزواء فى بلاد المسلمين[٢].

ويؤخذ من المقرى[٣] فى تاريخ الناصر فى حوادث سنة ٣٤٥ وما بعدها أن حافد طوطة ملكة البشكنس الذى انتقضت عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردنند هو (غرسية بن شانجة) لا شانجة بن اردُن مع أنه قال فى تاريخ الحكم ابن الناصر فى حوادث سنة ٣٥٤ «ثم كانت وفادة اردُن بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما اعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمّه وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر أردون بصهره فردنند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرا به...».

نرجع إلى حوادث أفريقية فنقول.

كان المغرب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى بين قوتين تتجاذبانه الأمويين فى الأندلس والفاطميين فى أفريقية وقد أتى حين من الدهر قويت فيه القوة الأولى فامتدّ سلطان عبد الرحمن الناصر على المغرب الأقصى والأوسط وكانت تواليه القبائل التى أسلمت منذ الفتح الإسلامى مثل قبائل زناتة وأما قبائل اليهود والوثنيين والشيعة مثل قبائل صنهاجة وكتامة فإنها كانت توالى عبيد الله

---

(١) يقول ذلك البعض إن فردنند كان غائبًا حين جاءها أردن الرابع يتلمس مأوى وأن ملك نفارة كان يحارب فردنند وحبسه وأولاده فى (سيرونيا Cirue na) سنة ٩٦٠ ثم أرسل جميع الأسرى إلى بنبلونة يؤيد ذلك ما يؤخذ من دوزى من أن غرسية وعبد الرحمن اتفقا على أنه حين يهاجم جيش العرب ليون يهاجم جيش النفاريين قشتيلة.

(٢) يذكر المقرى فى تاريخ الحكم ابن الناصر أن أردن بن أذفونش وفد عليه مستجيرا فى سنة ٣٥٤.

(٣) ص ١٧٢ ج١.

وبنيه ـ وكان بعض قبائل البربر ينزع تارة إلى خليفة قرطبة وأخرى إلى خليفة القيروان على حسب مقتضيات الأحوال ـ وكذا كان شأن بقايا الأدارسة بعد أن تقلّص ظل ملكهم من فاس وتلمسان[١].

كان للناصر ولاة قائمون بدعوته فى المغرب منهم بنو سعيد بن صالح امراء نكور[٢] من ساحل المغرب وقد سبق كلام عنهم فى حوادث سنة ٣٠٥ ومنهم موسى بن أبى العافية كان أمير مكناسة وعلى يده مصالة بن حبوس قائد الشيعة زال ملك الادارسة من فاس سنة ٣٠٧ أو سنة ٣٠٩ ثم صار موسى عاملا للشيعة على فاس والمغرب ولأسباب خلع طاعتهم ومال إلى الخليفة الناصر ووالاه ونشر دعوته فى المغرب[٣] فجاء ميسور الصَّقْلبى قائد الشيعة وحارب موسى وأجلاه عن عمله إلى الصحراء مستعينا عليه ببنى إدريس أعدائه وآل إليهم ما كان فى يده سنة ٣٢٣ ـ من أجل ذلك انحرفوا إلى الفاطميين مع أن هؤلاء لمَّا أزالوا ملكهم من فاس انحرفوا عنهم إلى الأمويين ـ ومع هذا أقصاهم ولاة الناصر عما ملكوه فأنابوا إليه.

وفى سنة ٣٣٢ نقض بنو محمد الادارسة طاعة الناصر وأسروا واليه فى سبتة فأغزاهم قائده قاسم بن محمد فجنحوا إلى السلم وأطلقوا الوالى سنة ٣٣٣ وبعثوا برهائنهم إلى قرطبة مؤكدين الطاعة فقبل الخليفة انابتهم وأكرم وفادتهم.

ومن ولاة الناصر فى المغرب بنو خزر عظماء زناتة يقال إن جدّهم خزر بن صولات هاجر وأسلم على يد عثمان بن عفان ـ أغاروا على مدينة تيهرت وأسروا ميسورا عاملها من قبل الشيعة وأقاموا فيها الدعوة لخليفة الأندلس وكتبوا إليه بذلك سنة ٣٣٣.

---

(١) انظر الذنابة الأولى الآتية.

(٢) يؤخذ من ابن خلدون أن نكور فى الريف على ساحل المغرب الأوسط لكن يستفاد من ابن عذارى فما سبق أنها على ساحل المغرب الأقصى.

(٣) انظر حوادث سنة ٣١٩ السابقة.

ومن دعاة الناصر أيضًا أبو يزيد مخلد اليَفْرَنى الزناتى الخارجى ثار على الشيعة فى أفريقية وأوقع بهم وتغلّب على القيروان ورقّادة وأقام فيهما الدعوة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله ـ وجاءت رسل منه ومن أهل القيروان إلى قرطبة ينبئون الخليفة بهذا الفوز المبين سنة ٣٣٤.

كان أهل المغرب ينزعون إلى طاعة الناصر فرارا من مذهب الشيعة المنحرف عن الإسلام الحقيقى فلما تظاهر أبو يزيد أول الأمر بأنه ينصر شريعة الإسلام الطهرة من بدع الشيعة ويدحض ترّهاتهم التفّوا حوله ونصروه وكاد يجهز على دولة الفاطميين فى أفريقية لكنه لما استباح المحرّمات انفضّ أغلب جنوده من حوله وخذلوه.

ففى سنة ٣٣٤ جاء رسول من القيروان إلى قرطبة ينبئ أن المنصور الشيعى لاقى أبا يزيد فى مدينة سوسة وهزمه إلى القيروان.

يؤخذ من ابن عذارى[١] أن الناصر أغزى قائديه أحمد بن يعلى[٢] وحميد بن يصل[٣] المكناسى إلى بنى محمد الادارسة الحسنيين فى سنة ٣٣٨ فقادا جيشا إلى الجزيرة الخضراء فجاء رسول منهم إلى الخليفة يذكر طاعتهم له وانقيادهم لأمره فى هدم مدينة تيطاون التى أنكر عليهم بناءها فقبل انابتهم.

ثم وصل محمد بن أبى العيش الحسنى فاكرمه الناصر ثم جاء نبأ بوفاة أبى العيس فعزّى الخليفة الابن عن أبيه وعقد له على عمله ووصله وخلع عليه وعلى الوافدين معه وصرفهم فبادر محمد إلى عمله فى المغرب.

كان عند وفاة أبيه قصد ابن عمّه قنون إلى بلده فاستولى على ماله وأهله لكن لما بلغ البربر إقبال محمد بن أبى العيش من قبل الناصر رجعوا إلى عيسى بن قنون

---

(١) ص ٢٣١ و ٢٣٢ ج٢.

(٢) أرى لفظ (يعلى) مضبوطا فى البيان المغرب بكسر الياء وفتح اللام وهذا الاوجودل ، فى لغة ولاجل أن يكون من عداد كلماتها بلفظ به بضم الياء.

(٣) لفظ (يصل) تارة يكتبونه أيضًا (يصال) وأخرى (مصال ويظهر أنه لفظ بربرى.

وقد خرج عن تيكيساس فسلبوه ما كان أخذه لابن عمه وقتلوا أكثر أصحابه فلم يخلص إلا فى سبعة فوارس.

ويؤخذ منه فى مواضع آخر[١] أن بنى محمد الادارسة شرعوا فى إعادة بناء مدينة تيطاون سنة ٣٤٧ بعد أن هدموها فشكا أهل سبتة من ذلك إلى الناصر لأن فى بنائها ضررا يلحق بهم فأغزاهم الناصر قائده أحمد بن يعلى وكتب إلى حميد ابن يصل صاحب تيجيساس[٢] أن يعين القائد فلما اجتمع العسكران على بنى محمد كفّوا عن البناء ووعدوا أن لا يعودوا إليه وبعثوا بأولادهم إلى قرطبة رهائن على وعدهم.

وفى سنة ٣٣٩ جاء إلى قرطبة الخير بن محمد بن خزر الزناتى كبير أمراء المغرب يذكر للخليفة ما أتاح الله له من دخول تاهرت وظفره بميسور الصقْلبى وابن بكار اليَفْرَنى من قادة الشيعة فقرئ كتابه بجامع قرطبة وجامع الزهراء.

وفيها جاء كتاب إلى قرطبة يذكر أن بنى محمد الادارسة زحفوا إلى حميد بن يصال قائد الناصر ونزلوا عليه والتفّوا به ولكن دارت عليهم الدائرة وانصرفوا مفلولين.

وفى سنة ٣٤١ جاءت الأنباء إلى قرطبة بأن زيرى الصنهاجى عامل الشيعة على تاهرت أسر سعيد بن خزر زعيم زناتة.

وفيها وصل إلى قرطبة فتوح بن الخير كبير أمراء زناتة ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران وعرضوا على الناصر رءوسا مجتزة من كبار الشيعة وبنودا وطبولا لهم فرفعت هذه الرءوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة وأقيمت لفتوح ولمن جاء معه الكرامات الواسعة.

---

(١) ص ٢٣٠ ج١.

(٢) تارة يكتبونها بالكاف وأخرى بالجيم ولم أرها فى معجم ياقوت ـ وفيه تيفاش مدينة بأفريقية شامخة البناء ذات عيون ومزارع كثيرة وهى فى سفح جبل.

يؤخذ من رومى[١] أنه فى سنة ٩٥٥ (٣٤٣ و ٣٤٤) كتب والى فاس إلى الخليفة الناصر يخبره بنجاح جيوشه فى المغرب ويستأذنه فى بناء قبة الجامع الكبير فى عدوة القرويين فأذن له وبعث إليه بمال وافر من خمس الغنائم المكسوبة فى غزوة جليقة فوسّع الوالى الجامع وبنى القبة ووضع فى قمتها سيف إدريس مؤسس مدينة فاس.

وفى هذه السنة احتلت جيوش الناصر مدينة تلمسان وأعلنوا فيها حمايته للأدارسة.

وفى سنة ٣٤٤ أنشأ عبد الرحمن سفينة كبرى فى أشبيلية لنقل البضائع من أسبانيا إلى مصر والشام فلقيت أثناء سيرها مركبا يقلّ رسولا من صقلية إلى المعز الفاطمى فى أفريقية ومعه رسائل إليه[٢] فاعترضت السفينة المركب وأخذت ما فيه غصبًا ووالت سيرها وباعت بضائعها فى الاسكندرية واشترت منها غيرها ورجعت إلى الاندلس.

بلغ ذلك المعز فجهز أسطولا وأمر الحسن بن على عامله على صقلية أن يقوده إلى ساحل المرية فلما اقتربوا منه أبصروا السفينة الكبرى وهى عائدة فاقتفوا أثرها حتى قنصوها واجهضوا أحمالها وكان فيها أمتعة لعبد الرحمن وجوار مغنيات ثم حملوا على مراكب الميناء فسلبوا ما فيها وأحرقوها ثم صعدوا إلى البرّ فقتلوا ونهبوا وعادوا فرحين بغنيمتهم وادراك ثأرهم.

كان صدى هذا الاعتداء أن أمر الناصر بلعن الفاطميين على جميع منابر الأندلس وأن كلّف قائده غالبا أن يهاجم باسطوله سواحل أفريقية لكن لم تأت

---

(١) ص ٢٠٣ ج٤.

(٢) يقول ابن الاثير وأبو الفداء أن الرسول كان من صقلية إلى المعز ويقول كندى ورومى أنه كان من المعز إلى والى صقلية.

حملته بالنجاح الذى كان ينتظره الخليفة فإن الأندلسيين مع أنهم فازوا بعض الفوز فى مبدأ أمرهم دفعهم الافارقة واضطروهم إلى الإقلاع[١].

قال ابن خلدون فى هذا الموضع بعث المعز إلى الحسن بن على عامل صقلية سنة ٣٤٤ أن يخرج باسطوله إلى ساحل المرّية من بلاد الأندلس فعاث فيه وغنم وسبى ورجع فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل أفريقية مع غالب مولاه فمنعتهم العساكر وأقلعوا ثم عادوا سنة ٣٤٥ فى سبعين مركبا فاحرقوا مرسى الخزر وعاثوا فى جهات سوسة ثم فى نواحى طَبَرْقة ورجعوا. انتهى.

كلام صريح فى أن الناصر غزا الفاطميين فى أفريقية غزوتين واقتصر ابن الأثير وأبو الفداء على الغزوة الأولى فى سنة ٣٤٤.

ويؤخذ من كندى ورومى أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتئذ أحمد بن سعيد[٢] الذى امتاز بفوزه فى غزوة جليقة الأخيرة فحقق للخليفة إمكان انتقامه من المعتدين وجمع السفن من شواطئ اسبانيا وقادها إلى وهْرَان[٣] مقلة عددا عظيما من رجال الحرب الاشداء وجمَعَ من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ثم هجم بالرِّجلان والفرسان على أفريقية فقابله الحسن بن على بجيوشه ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب وهزم الاندلسيّون قبائل صِنْهاجة وكِتامة وكان يتألف منها معظم جيش الافارقة واتبعوا آثارهم مشتتين شملهم ومحرّقين بلاد الموالين للفاطميين حتى وصلوا إلى ضواحى تونس وكانت غنيَّة بتجارتها الواسعة يسكنها كثير من تجّار اليهود الاغنياء فحاصروها برّا وبحرا وشدّدوا الحصار عليها

---

(١) دوزى ص ٧٧ ج٣.

(٢) الذى فى نفح الطيب (أحمد بن عبد الملك بن شهيد).

(٣) قال ياقوت وهران مدينة على البحر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليلة.

فلما رأى أهلوها أن الخطر محدق بهم ولا مغيث لهم عرضوا أن يسلموا المدينة وقدّموا مقدار جسيما من المال إلى ابن سعيد فطلب منهم مقدارا أجسم مما قدّموا فاضطروا إلى أدائه وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الاجناس وطُرَفا من الحُلىّ وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الارقّاء.

وغنم أيضًا سفن الميناء وأثقالها وضمّها إلى سفنه وسير أسطوله إلى اشبيلية مشحونا بهذه الغنائم الواسعة.

قدّم الحاجب منها إلى الخليفة الخُمْس وقيمة سفينته الكبرى وأحمالها التى قنصها الحسن وأعطى القوّاد والرؤساء والجنود الذين دخلوا فى غِمار هذه الغزاة أنصبتهم كلاّ على قدر منزلته حتى صاروا جميعا راضين وبقى للحاجب قسم كبير من الغنائم.

وقد رقّاه الخليفة إلى مراتب الشرف ورتّب له فى كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب.

يحتمل أن ابن سعيد أهدى هديته المشهورة إلى الخليفة بعد عودته من هذه الغزاة.

وفى كندى أن الهدية قدّمت إلى عبد الرحمن بعد رجوع أحمد من غزوة جليقة لكن الاقرب إلى الحقيقة أنها أخذت أو قسم كبير منها على الاقل مما اختص به الحاجب من غنائم تونس ومهما يكن من الامر فكتّاب العرب يعدّون أصناف الهدية هكذا أربعمائة رطل من الذهب الخالص من التبر[١] ـ وقيمة أربعمائة وعشرين ألف دينار من سبائك الفضة[٢] وأربعمائة رطل من عود الندّ[٣] ـ

(١) الذى فى ابن خلدون والمقرى خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر.

(٢) الذى فى ابن خلدون ومصارفة أربعون ألف دينار ومن سبائك الفضة مائتا بدرة.

(٣) فى ابن خلدون اثنا عشر رطلا من العود الهندى الذى يختم عليه كالشمع... انظر المقرى ـ =

وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب ـ وثلاثمائة أوقية من الكافور ـ وثلاثون ثوبا من الحرير الابيض الموشى بالذهب ومائة وعشرة فراء من الفَنَك الخراسانية[١] وثمان وأربعون ملحفة من الحرير والذهب مصنوعة فى بغداد باتقان نادر المثال لزينة الخيل أيام الاحتفالات[٢] وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول[٣] ـ وثلاثون بساطا فارسية[٤] طول كل بساط منها عشرون ذراعا ـ ومائة طنفسة للصلاة[٥] وخمسة عشر نَخّا من الخزّ وهو نوع من البُسط المصنوعة من الجهتين على السواء[٦] وثمانمائة شكّة وتجفاف[٧] من الحديد المصقول لخيل الحرب ـ وألف تُرْس ومائة ألف سهم ـ وخمسة عشر فرسا من الخيل العراب الجميلة التى تصلح لركاب الخليفة وخمسة أخرى مُلْجَمة مُسْرَجة بسروج من الخزّ العراقىّ وثمانون فرسا مهيَّأة ومروّضة لركوب الحاشية فى الحرب[٨] ـ وعشرون بغلا

= وزاد ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكى وقال ابن الفرضى إن المسك مائتان واثنتا عشرة أوقية.

(١) عبارة ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الالوان والصنائع وعشرة أفرية من جلود الفنك الخراسانية ـ انظر فى المقرى ما قاله ابن القرضى ـ فى بلقاموس الفنك بالتحريك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح لجميع الامزجة المعتدلة ـ وزاد ابن خلدون وستة من السرادقات العراقية.

(٢) ومما زاده ابن خلدون هنا وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد والظاهر أن رومى أضاف جلود السمور إلى جلود الفنك ـ فى القاموس كتنور دابة يتخذ من جلدها فراء مثمنة.

(٣) زاد ابن خلدون وألف رطل من الحرير المتقى للاستغزال...

(٤) عبارة غيره وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات...

(٥) عبارة غيره ومائة قطعة مطليات من وجوه الفرش المختلفة الصناعات من جنس البسط.

(٦) كذا يقول رومى ـ وفى القاموس النخ بالفتح بساط طويل ـ ووهم من قال (نوخا).

(٧) الشكة بالكسر السلاح ـ والتجفاف بالكسر أيضًا آلة للحرب يلبسه الفرس أو الإنسان ليقيه فى الحرب ـ وعبارة ابن خلدون ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تجافيف الزينة أيام البروز والمواكب.

(٨) عبارة ابن الفرضى ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابة خمسة عشر فرسا وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز عراقى وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من عتاق الخيل التى تصلح للركوب فى المتصرف والغزوات.

بسروجها واجلالها السابغة[١] وأربعون غلاما وعشرون جارية مكتسيات بكُسًا فاخرة[٢]. انتهى. ما عرّبناه من رومى.

يظهر أن غزوة تونس فصّلها رومى ناقلا عن كندى هى الغزوة الثانية التى أجملها ابن خلدون فى كلامه السابق ـ وما ذكره رومى من احتمال أن تكون هدّية ابن سعيد بعد عودته فمن هذه الغزاة يمنع منه أن بعض المؤرخين نص على أن الهدية كانت فى سنة ٣٢٧ .

من هذه الهدية يدرك الإنسان ما وصلت إليه بُلَهنية العيش وضخامة دولة الامويين فى الأندلس فى ذلك الزمان.

قد أزعج استيلاء الحاجب أحمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهدّية المعزّ الشيعى فهبّ لاخذ الثأر وشهر الحرب على بلاد المغرب التى كانت تحت حماية خليفة قرطبة الناصر السنىّ منذ سنين.

فأرسل المعز قائده جوهرا الرومى يقود عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة إلى هذه البلاد وأمره باخضاعها وإذلال أهلها والقسوة على رؤسائها فقام جوهر من القيروان إلى المغرب سنة ٣٤٧ مضمرا فى نفسه تنفيذ ما أمره به مولاه.

حينئذ دعا يعلى بن محمد اليَفْرَنى والنائب عن الناصر فى المغرب رجال قبائل يَفرَن وزناتة إلى حمل السلاح وقتال جوهر ـ تقابل الجيشان بجوار تاهرت ودارت رحى الحرب وحمى وطيسها وكان الكتاميّون يرمون إلى غرض واحد وهو قتل يعلى رئيس جيش المغرب.

فان جوهرا فرّق فيهم أموالا لهذا الغرض خاصّة قبل الدخول فى المعمعة.

---

(١) عبارة ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية مجالس سروجها خز جعفرى عراقى.

(٢) عبارة غيره ومن متخير الرقيق أربعون وصيفا بكسوتهم وجميع آلانهم وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن.

قابل يعلى هجمتهم بثبات لكنهم أدركوه وحوله عدد قليل من أتباعه فأسقطوه عن جواده وأثقلوه بطعنات رماحهم وترجل أحدهم بسرعة وقطع رأسه وحمله إلى قائدهم ففرح بهديتهم وكافأهم عليها بمال جسيم وبعث بالرأس إلى المعزّ فأمر باطافته فى القيروان.

ولّت قبيلة يَفْرَن بعد قتل رئيسها وقد اجتهد ابنه هارون فى تسكينها فلم يُجْد نفعا.

عقبئذ سار جوهر إلى سِجِلْماسة وشدَّد الحصار عليها حتى فتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح وشدّ وثاقه وكان يلقّب نفسه بالخليفة أمير المؤمنين الشاكر لله ويضرب نقودا باسمه ويظهر عدلا فى أحكامه ومحافظة على السنَّة ويعمل بمذهب مالك الذى بقى متبعا فى أفريقية وكذا فى أسبانيا مدة حكم العرب فيها.

ثم اتّجه جوهر إلى فاس وحاصرها من جميع الجهات ثلاثة عشر يوما ودخلها فى يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ (١٣ نوفمبر سنة ٩٦٠) وضرب أعناق بعض أهليها وأسر واليها من قِبل الأمويين وهو أحمد بن أبى بكر الزناتى ونهب المدينة وخرَّب كثيرا من منازلها.

ثم أخذ يطارد جنود بنى أمية من جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ومع هذا لم ينتهك حُرُمات المدن التابعة للأمير الحسن بن قنّون الادريسى فإن هذا بادر بالاعتراف بسيادة المعز الفاطمى والدخول فى حمايته.

بعد أن أخضع جوهر بلاد المغرب وسفك دماء حماتها أنهارا وقسا على أهليها وأذلَّهم ومحا اسم الخليفة الأموى من خُطب الجوامع وأثبت فيها اسم الخليفة الفاطمى عاد إلى أفريقية ومعه من الأسرى محمد بن الفتح الذى كان أمير سجلماسة وأحمد بن أبى بكر الذى كان والى فاس وخمسة عشر من أعاظم

مشايخها مصفّدين فى أقفاص محمولة على جمال فأمر أن يطاف بهم فى شوارع القيروان وأسواقها ثمّ حملوا إلى المهدية وسجنوا أياما ثم أُهلكوا[١].

كذا يؤخذ من رومى وقد نقل عن مؤرخ سمّاه عبد الحليم.

ويؤخذ من ابن الاثير وابن خلدون أن المعز الفاطمى صاحب أفريقية أغزى وزيره جوهرا الصقلى إلى المغرب فى صفر سنة ٣٤٧ فى جيش كثيف وخرج معه جعفر بن على صاحب المسيلة[٢] وزيرى بن مناد الصنهاجى صاحب أشير[٣].

فساروا إلى تاهرت فتلقاهم يعلى بن محمد الزناتى صاحب المغرب الأوسط جائيًا من مدينته افكان[٤] فأكرمه جوهر ثم قبض عليه لمخالفة وناشته سيوف كتامة فثارت أصحابه فقاتلهم جوهر وهزمهم إلى إفكان ودخلها بالسيف ونهبها ونهب قصور يعلى وأسر ابنه وكان صبيا وأحرق المدينة فى جمادى الآخرة.

ثم سار إلى فاس ونازلها فامتنعت عليه فرحل إلى سجلماسة وأخذها وقبض على صاحبها محمد بن الفتح من بنى واسول من مكناسة المتلقب بأمير المؤمنين الشاكر لله والضارب السكة باسمه وولّى ابن المعتز من بنى عمه مكانه ودوّخ بلاد المغرب إلى البحر ثم عاد إلى فاس وحاصرها حتى افتتحها عنوة على يد زيرى بن مناد تسنم أسوارها ليلا وفتح أبوابها وأوقد المشاعل ودق الطبول فدخلها جوهر وقبض على واليها محمد بن بكر الجذامى فى رمضان سنة ٣٤٨.

وطرد عمّال بنى أمية من سائر المغرب وضمّ تاهرْت إلى زيرى وانقلب إلى القيروان ظافرا ومعه أحمد بن بكر ومحمد بن الفتح أسيرين فى قفصين فحملهما إلى المعزّ فى المهدية فى يوم مشهود.

ويؤخذ من ابن عذارى أن جوهرا قائد المعز دخل فى سنة ٣٤٧ بلاد المغرب

(١) انظر رومى ج٤ ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) كقبيلة مدينة بالمغرب اختطها أبو القاسم محمد بن الهدى فى سنة ٣١٥ وتسمى المحمدية.

(٣) كامير مدينة فى طرف أفريقية الغربى.

(٤) مدينة بالمغرب ذات أرحية وحمامات وقصور.

واستولى على فاس ثم توجه نحو تيطاون ففر أمامهم الحسن بن قنون الادريسى إلى قرطبة ثم وصل القائد إلى سبتة فلم يقدر عليها فقصد سجلماسة وملكها بعد أن فرّ عنها صاحبها محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله ثم جيء به أسيرا إلى جوهر ومكث هذا بالمغرب نحو سنة.

ويؤخذ منه فى موضع آخر أن الناصر أمر قائده أحمد بن يعلى سنة ٣٤٧ بأن يغزو فى الأسطول إلى بلد الشيعى معدّ بن إسماعيل صاحب أفريقية فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون من المحرم... وفى جمادى الآخرة ورد كتاب منه من افسلان من عمل تلمسان يذكر أن جوهرا قائد معدّ (المعز) قتل يعلى بن محمد اليفرنى صاحب مدينة إفكان غدراً وأن ابن عمه انتصب مكانه باقامة قومه له ثم رجع قائد الاسطول إلى قرطبة.

مناقشات:

١- يؤخذ من رومى أن يعلى جاء إلى جوهر محاربا ويؤخذ من ابن عذارى أنه جاء مسالما فقتله جوهر غدرا.

٢- ويؤخذ من رومى أن ابن يعلى بعد قتل أبيه أراد المقاومة فخذله قومه ويؤخذ من ابن الاثير ان جوهرا أسره وهو صبى عند أخذ إفكان.

٣- لم يذكر رومى إفكان مدينة يعلى وقد ذكرها فى كلام ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى ولم يذكر توجهه إلى فاس وامتناعها عليه قبل توجهه إلى سجلماسة كما جاء فى ابن الاثير وابن خلدون.

٤- يذكر رومى أنّ جوهرا دخل فاس يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ ويذكر ابن الاثير وابن خلدون أن دخوله فيها كان فى رمضان سنة ٣٤٨ ويؤيد صحة كلامهما ما جاء فى التقويمات من أن أول رمضان سنة ٣٤٨ يوافق يوم السبت فيكون يوم ٢٠ منه بالبداهة يوافق يوم خميس ـ وأما رمضان سنة ٣٤٩ فاوله فى التقويمات يوم الخميس فيكون يوم ٢٠ منه يوافق يوم ثلاثاء ـ وقد ذكروا

أن جوهرا ابتدأ غزوته فى صفر سنة ٣٤٧ ومكث فى المغرب نحو سنة وعلى كلامه يكون قد مكث نحو سنتين.

٥- ويذكر رومى أن اسم والى فاس (أحمد بن أبى بكر) ويقول غيره أحمد بن بكر ولم يذكر أن فتح هذه المدينة كان على يد زيرى بن مناد كما نصّ غيره على ذلك.

٦- ويؤخذ من رومى أن جوهرا لم يطارد الحسن بن فنون الادريسى ويؤخذ من ابن عذارى أنه فرّ منه إلى قرطبة.

٧- ويذكر رومى أن جوهرا أخذ معه من الأسرى خمسة عشر سوى والى فاس ووالى سجلماسة واقتصر المؤرخون على الواليين.

٨- يقولون غزا جوهر فى جيش كثيف ويقدر رومى عدد الجيش بنحو خمسة وعشرين ألفا.

٩- ينصون على أن جعفرا صاحب مسيلة وزيرى صاحب أشير خرجا مع جوهر وقد أغفل هذا رومى.

١٠- زاد ابن عذارى أن جوهرا توجه إلى تيطاون ثم وصل سبته فامتنعت عليه.

وفى ذى القعدة سنة ٣٤٨ أرسل الناصر جماعة من وجوه الموالى والعرفاء ورجال الجند مع بدر الفتى صاحب السيف إلى مدينة سبتة من أجل جولان جوهر قائد معدّ الشيعى صاحب القيروان ثم عادوا فى آخر ذى الحجة بعد أن انفرجت الأزمة.

ويؤخذ من رومى أن حوادث أفريقية شغلت بال عبد الرحمن الثالث وضاعفت أحزانه فإنه كان لا زال يبكى عمه المظفر وولده عبد الله وحاجبه ابن سعيد الذى مات من أمد غير بعيد ـ ولرتق فتوقه فى أفريقية وإدراك ثأره من أعدائه فيها وجّه إلى المغرب اسطولا قويا يقلّ كثيرا من الجيوش فما لبثوا أن أعادوا شرف الخليفة إلى ذورته فإنهم لم يجدوا فى المغرب مقاومة تذكر إلا أمام فاس

ومدن أخرى فملكوها بعد معارك عنيفة بينهم وبين جنود من كتامة وصنهاجة وأخضعوا كلّ البلاد الممتدّة من فاس إلى البحر المحيط وعاد خطباء المنابر فى جميع المساجد يخطبون باسم الإمام عبد الرحمن الثالث أمير المؤمنين وقد عمّ السرور شعوب السوس وقبائل زناتة واضطر الأمير الحسن بن قنّون الإدريسى إلى أن يعود إلى طاعة الناصر وقد أطاع ولىّ عهده الحكم أيضًا.

منثورات:

١- كان من عجائب الدنيا مدينة الزهراء التى اختطها عبد الرحمن الناصر فى أول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) فى شمال قرطبة على نحو خمسة أميال منها وجعل طولها من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع وعرضها ألفا وخمسمائة.

يحكى فى سبب بنائها أن الناصر ماتت له سرِيّة وتركت مالا كثيرا فأمر أن يفك به أسرى المسلمين فلم يوجد أسير فى بلاد الافرنج فقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حبا جما اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى ففعل وقد اتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها مسكنا للزهراء وحاشيته وأرباب دولته.

وقال ابن خلدون اختط الناصر مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسيا لملكه وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانى اسلافه واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن. اهـ.

يروى المؤرخون أنه كان يعمل فى عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وأربعمائة بغل وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الاثنان والثلاثة أجرة فى اليوم وكان البغال ألف بالكراء لكل بغل فى الشهر ثلاثة مثاقيل.

وكان يصرف فى العمارة كل يوم من الصخر المنحوت المعدَّل ستة آلاف

صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل وكان يجلب إليها الرخام الأبيض من المرية والمجزع من رية والوردى والأخضر من أفريقية من أسْفاقُس وقَرْطاجنَّة والسوارى من رومة وكان يصل جالبى الرخام على كل رُخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية.

وأهدى إليه ملك القسطنطينية مائة وأربعين سارية وكانت تشتمل مبانى الزهراء على أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وعلى ما ينيف على خمسة عشر ألف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموّه.

وكان يسكنها من الاناث ٦٣١٤ ومن الذكور ١٣٧٥٠ منهم ٣٧٥٠ من الفتيان الصقالبة وكانوا حراسا للخليفة وخدما فى قصره وقيل إن عددهم كان ٦٠٨٧ وكان لهؤلاء من اللحم فى اليوم ١٣ ألف رطل تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون سوى الدجاج والحجل وأصناف الطير وضروب الحيتان.

وكان بها بحيرة ذات حيتان يرمى إليها كل يوم مقدار عظيم من الخبز والحمص الأسود المنقوع لتربيتها وحمامان احداهما للعامّة والأخرى للخاصّة وجامع وقصر للخلافة: فالجامع كان يعمل فيه من حذاق العملة ألف عامل وثلاثمائة بنّاء ومائتا نجّار وخسمائة من الاجراء وسائر الصنائع.

فاستتم بنيانه واتقانه فى ثمانية وأربعين يوما فى شعبان سنة ٣٢٩ وكان ذا خمسة أبهاء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة وصومعة (مئذنة) وصحن مكشوف وجميعه مفروش بالرخام الخمرى وفى وسطه فوّارة يجرى منها الماء وطول الجامع من الجنوب إلى الشمال سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون وارتفاع الصومعة أربعون وعرضها عشر فى مثلها[1].

وأما قصر الخلافة فكان فَخْما عليه حلة من الجمال ممَرّدا مشرفا على الرياض فيه مجلس مقرمدةٌ قبّته وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب

(١) المقرى ج١ ص٢٦٨.

وضع فى وسطه اللؤلؤة اليتيمة التى أهداها ليون ملك القسطنطينية إلى الناصر خليفة قرطبة وفيه حوض عجيب منقوش بتماثيل الإنسان قالوا إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله وأنه لما جلب من القسطنطينية نصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه تماثيل من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ترى فى هذه التماثيل صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة والشاهين والطاوس والدجاجة والديك والحدأة والنسر تمجّ الماء من أفواهها إلى الحوض.

يؤخذ من نفح الطيب أنه كان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى.

وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار وأنه كان فى وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم.

وجاء فيه فى موضع آخر «لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة... إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله... ولو لم يكن فيه إلا السطيح الممرّد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعه الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة

محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها» لكفاه فوقانا على ما سواه من القصور.

واستمر العمل فى مدينة الزهراء نحو أربعين سنة من سنة ٣٢٥ إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم.

وقدَّر بعضهم ما كان ينفق فى عمارة الزهراء كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة الخمسة والعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر فإذا صحَّ هذا التقدير كان مجموع ما أنفق فى هذه الأعوام سبعة ملايين ونصف مليون دينار أى نحو ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع مليون جنيه.

لكن هذا لا يستقيم مع قول ابن بشكوال «كان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدّخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف ألف (مرتين) دينار واربعمائة ألف ألف (مرتين) وثمانين ألف دينار» ولا يخفى ما فى هذا القول من الغلو فإنه يبعد أن تكون جباية الأندلس خمسة مليارات واربعمائة مليون وثمانين ألف دينار ويظهر أن كلمة (ألف) فى المكرر مقحمة فتكون الجباية خمسة آلاف ألف (خمسة ملايين) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار.

بعد كتابة هذا رأيت فى المقرى فى موضع آخر ما يؤيده قال ما نصه «وقال غير واحد أنه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدّخر وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان»[١].

كان القاضى منذر بن سعيد[٢] ينكر على الناصر اسرافه فى البناء فى المسهب

(١) المقرى ج١ ص ١٧٩.

(٢) سبب تعلقه بالناصر خطبته المشهورة أثناء الاحتفال برسل ملك الروم كما سيأتى قريبًا.

فى أخبار المغرب أن منذر بن سعيد دخل يوما على الناصر بانى الزهراء وهو مكبّ على الاشتغال بالبناء فوعظه فأنشده الملك:

همم الملوك إذا أرادوا نشرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

ودخل منذر على الناصر مرّة وهو فى قبة جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل إليه أحد من الملوك فقام خطيبا والمجلس قد غص بارباب الدولة فتلا قوله تعالى ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ واتبع الآية بما يليق بذلك فوجم الملك ولم يسعه إلا احتمال منذر لعظم قدره فى علمه ودينه وحضر معه يوما فى الزهراء فأنشد الرئيس أبو عثمان قصيدة للناصر منها:

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن
مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر ساعة ثم أنشد:

يا بانى الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع لا تذبل. اهـ.

وقد ذبلت الزهراء فى سنة ٣٩٨ وسيأتى بيان ذلك.

حكى أن الوزير ابن جهور قال وقد وقف على قصور الأمويين المتقوضة:

قلت يوما لدار قوم تفانوا
أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا
ثم ساروا ولست أعلم أينا

٢- فى سنة ٣٣٢ ليلة الاثنين لتسع خلون من ذى القعدة حدث فى قرطبة زلزلة هائلة دامت ساعة ففزع الناس ولجئوا إلى المساجد ودعوا الله فى كشفها فصرفها عنهم.

وفى صباح ليلة الزلزلة هبت عاصفة ردفتها أخرى فاقتلعتا كثيرا من الشجر والنخل ـ ونزل إثر ذلك مطر وابل يحمل بردًا غليظا فقتل كثيرا من الطير والوحش والماشية وأتلف ما أصاب من الزرع[1].

٣- عنى الناصر بتربية ابنه الحكم وتهذيبه واختار لتعليمه كبار الاساتذة وشهزاءهم حتى استدعى إليه من بغداد إسماعيل بن القاسم المعروف بأبى على القالى وكان ذا حظوة عند العباسيين وشهرة فى العراقين العربى والفارسى وكان يصاحب الحكم فى قصر الزهراء.

ويتردد إليه فى ذلك القصر أيضا نخبة العلماء والأدباء فشب مولعا بالعلوم والآداب ذا حلم ومكارم أخلاق محبوبا عند الرعية ـ لذلك ولكونه أكبر أخوته كان أهلا لولاية عهد أبيه لكن حسده على هذه الولاية أخوه عبد الله وكان أيضا ذا علم وحذاقة فى الفقه والشعر يعرف علم الهيئة والفلسفة وقد كتب تاريخا للعباسيين ـ

(١) ابن عذارى ج٢ ص٣٣٢.

ومع هذا سوّلت له بطانته أن يتخذ الوسائل الحائلة دون تولية أخيه فأتمروا به فى القصر المروانى فى ضاحية قرطبة ليقتلوه فى يوم عيد الأضحى فبلغ أمرهم الخليفة فبادر بارسال كوكبة من فرسانه الصقالبة تحت قيادة أحد وزرائه فدخلوا القصر ليلا باسم الخليفة وباغتوا الأمير عبد الله ومعه صاحبه الفقيه أحمد بن عبد البر وشريف آخر يسمى أحمد بن العطار ويعرف بصاحب الورد وساقوهم إلى الزهراء وسجنوهم فرادى.

ثم اشخصوا الأمير الشاب أمام أبيه فسأله عن جريمته فكانت إجابته الاضطراب والبكاء ثم سأله وزيران من مجلس الحكومة فى غير حضرة أبيه فاعترف بما فعله هو وابن عبد البر اعترف بأنه فقد رشده بسماعه وساوس هذا الفقيه وأن هذا ألقى فى أمنيته خطته السوداء انتقاما من حكومة الناصر لأنها لم تعهد إليه بوظيفة قاضى القضاة وأنه لا شريك له فى المؤامرة سواه وبرأ صاحب الورد من أن يكون له يد فى الأمر.

فلم ينفع عبد الله بكاؤه ولا صدقه ولا شفاعة أخيه بل حكم عليه بالاعدام فى اليوم الذى كان موعد تنفيذ ما تآمروا فيه وحكم على ابن عبد البر بضرب العنق فنزعت روحه فى السجن وكانت هذه الحادثة فى ذى الحجة سنة ٣٣٧ ـ وقد مات فى هذه السنة المظفر مأسوفا عليه.

كذا يقتبس من رومى ومأخذه تاريخ كندى وهاك تعريب ما فيه بتصرف:

عهد عبد الرحمن بولاية العهد لابنه الحكم فحلف له الوزراء والولاة والقضاة والكتاب يمين الطاعة وكان الأمير عبد الله أخوه مولعًا بالعلوم ويساميه فيها وفى الحركات البدنية وركوب الخيل واستعمال الأسلحة وكانت محبة الناس الملتفين حوله إيّاه تعادل محبتهم أخاه فقد جذب قلوبهم إليه ببشاشته وكرمه وكان هذان الأميران يتفقان فى حسن الشيم ويتصفان بالحذق وسعة المدارك.

ولكن عبد الله نفخه ما كان يسمعه من كلمات التملق فاخطأ محجة الصواب

ولجأ إليه الناس المتملقون راجين من وراء ذلك نيل أغراضهم فقامت بنفسه افكار كان من جرّائها أن تغيرت حياته السعيدة ذات الشرف والمجد إلى حياة ذات بؤس وشقاء فنزع إلى انتزاع المملكة التى عهد بها والده إلى أخيه فأجبرته المخاوف التى تحف بهذا الأمر إلى العمل فى الخفاء ـ يذكر أبو عمر بن عفيف هذه الحادثة فى كتاب تاريخه الذى أتمه ابن حيّان بالصورة الآتية:

كان أعز صديق حميم للأمير عبد الله رجل ذو قدرة خارقة للعادة يسميه بعض الكتاب الفقيه أحمد بن محمد ويعرف بابن عبد البر وكان يلازم الأمير ملازمة شديدة حتى يقال إنه لم يفارقه قط فكان يصاحبه فى غزاوته وروحاته ويندر أن يرى عبد الله بغيره.

كان هذا الرجل يكتم فى صدره مطامع واغراضا فكان يصانع من فوقه ويعتو على من دونه ويخفى تحت ثياب تنبئ عن الحشمة والوقار نفسا خبيثة ذات مكر ودهاء وعزم أكيد على القيام بمطالبها الخفية أمكن هذا الرجل أن يخدع الأمير عبد الله فذكر له أن الأشراف فى قرطبة والأقاليم يظنونه حزينا لأن أباه آثر أخاه الحكم عليه بتوليته إياه ولاية العهد وأظهر له أنه ممتاز عليه بكثير من الصفات الحسنة مما جعل الناس اجمعين يحبونه ولما وجد الأمير معيرا أذنا لكلامه زاد أنه إذا أراد أن يخطو بضع خطوات فى سبيل انتخاب الجمهور إيّاه فإنه لا يجد أدنى صعوبة فى هذا الأمر وأن هذا هو العلاج النافع لما أصابه من ظلم أبيه.

وقد ذهب أحمد بن محمد شوطا بعيدا إذ قال أخيرا لعبد الله إن الملك والده ربما يضطر إلى تسليم عرش المملكة إليه بدون ريث وأكد له أن جميع ما يعمل فى ما يؤدى إلى مثل تلك النتيجة هو عين الحق.

ضلّ عبد الله السبيل وفتن بالمنظر الذى أراه إياه ابن عبد البر وتحير حينما سمع منه كلمات الملَق ووعْدَه بأنه هو الذى يقوم بجميع ما فى الأمر ضامنا له

حياته وذكر أن ذلك عنده من السهولة بمكان وأنه جهز المعدّات التى لا يشك فى أنها تؤدى إلى النجاح.

أثّرت تلك الكلمات فى الأمير المخدوع فكانت سبب نحس طالعه فإنها هى التى قادته لاطويته السليمة إلى أن أذن لهذا الرجل أن يكوّن له حزبا ويأخذ هو فى جذب قلوب وزراء وقوّاد أبيه إلى جانبه.

كلأ عبد الله أصحاب ابن عبد البر بعين الرعاية ونصبهم فى بعض المناصب وأسبل عليهم رضاه التام وفى الوقت نفسه كان يتعرف بأناس من جميع الطبقات كما أشار عليه مرشده الخادع.

لم يعجب أحد حين رأى أن الأمير عبد الله يذهب إلى منازل العلماء الذين طنّ صيتهم فى آذانه وأن هؤلاء العلماء يترددون على قصر مروان الذى كان يسكنه الأمير لأنه كان اشتهر بولوعه بالعلوم الأدبية ولكن ابن عبد البر لم يقصر دخول القصر على من يثق بهم بل جعله عامّا لكل زائر ولم يخصّص الناس الذين يزورهم عبد الله.

فكانت نتيجة ذلك أن ذهب أحدهم إلى عبد الرحمن وأفشى إليه كل شىء وأكد له أن هذه الأفاعيل لا تؤدى فقط إلى صعود عبد الله فوق كرسى المملكة بل إلى انقضاض ملكه العاجل والقضاء على حياة الأمير الحكم أيضا فإن أقل ما فى عزم المتآمرين قتله حتى يكون ضمانا لحياتهم وحدّد اليوم المزمع فيه انجاز الجريمة وهو يوم عيد الأضحى الذى كان قرب ميعاده.

لم يزل عبد الرحمن غير مصدّق هذه الرواية إلا أنه لم يهمل شأنها لعظمه فدعا عمه الأمير المظفّر وأطلعه سرّا على ما بلغه واتفّقا على أن يرسل أحد الوزراء فى جنح الليل إلى قصر الأمير عبد الله ويقبض عليه ويقوده إلى مدينة الزهراء حيث كانت تجتمع المحكمة فأعد الوزير معدّات ذلك وذهب إلى قرطبة ودخل باسم الملك قصر مروان الذى كان يبعد قليلا عن المدينة فأدهش ذلك

الأمير الذى كان فى تلك الآونة فى صحبة الفقيه ابن عبد البر والفارس أحمد بن عبد الله بن العطار المسمى بصاحب الورد فقبض الوزير على هذين الشخصين لاشتباهه فى أمرهما وساقهما إلى الزهراء وحبسهما منفردين لكى يمنعهما من المحادثة.

ولما مثل عبد الله بين يدى أبيه قال له أبوه يظهر لى أنك استأت من عدم تبوئك عرش مملكتى فلم يحر الأمير جوابا ولم يمكنه غير البكاء فأمر والده بأن تغلق عليه حجرة.

أمر الخليفة وزيرين أن يذهبا ويستطلعا سر المؤامرة من عبد الله ففعلا ذلك ولم يتردد الأمير فى الإقرار بما حصل إلى الساعة التى قبض عليه فيها.

الآن.صار من الجلى أن تحريضات ابن عبد البر هى التى ألجأت عبد الله إلى المؤامرة ضد أخيه وأنه هو الذى مهّد السبل للجريمة فإن عبد الله لم يعرف أحدا سواه من الذين لهم ضلع فيها وإن صاحب الورد كان بريئا لأن عبد الله شهد بأنه لم يدخل فى تدبير هذه المكيدة.

وقصارى القول أنه قد ظهر للعيان أن الأمير عبد الله لم يحدّث إلا عن وساوس ابن عبد البر وعن المكيدة التى دبرها وأنه لم يعرف سواه من المتآمرين وأن هذا الفقيه أراد بذلك أن يحصل على وظيفة قاضى قضاة اسبانيا... فلم يحصل على مبتغاه.

وقد حكم عليه بالاعدام فى اليوم الذى كان موعد تنفيذ جريمته ليكون ذلك شاهدا عدلا على اجرامه.

لما علم ابن عبد البر بهذه الحقيقة قال (بيدى لا بيد عمرو) وقتل نفسه فى السجن فى ليلة اليوم الموعود وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨.

تتفق الروايات فى أن الحكم طلب العفو عن أخيه ولكن عبد الرحمن الناصر أجابه بأن شفاعتك وطلبك العفو لأخيك لجليلان ويعودان بالنفع عليك وإنى إذا

كنت فى مرتبة أحد الأشراف لكان الأمر كما أحببت وكما يملى علىّ ضميرى ولكن لكونى ملكا فلا بد أن أنظر إلى المستقبل وأكون لأمتى مثالا حسنا وإنى وإن كنت سأبكى ولدى وأحزن عليه ما حييت مضطر إلى أن أفعل ما توحيه إلىّ العدالة ويجب علىّ أن اتخذ الخليفة العظيم عمر بن الخطاب قدوة وأسير على منواله فى العدل وعلى ذلك لا تستطيع دموعك المنسكبة أو يأسى المنقطع أو الحزن الذى سيخيّم على أهل بيتنا أن تنقذ أخاك من قصاص ذنب لا ريب فى أنه اقترفه.

يقال إن الأمير عبد الله كتب إلى والده بشأن صاحب الورد قائلا له لا تدع إنسانًا آخر يؤخذ بجريرتى.

وفى الليلة نفسها قتل الأمير فى سجنه وفى اليوم التالى دفن فى مدفن الرصافة واحتفل بجنازته ومشى فى مشهده الحكم واخوته وغيرهم من اسرة مروان وكثير من أهل المدينة.

لم يمض زمن مديد على تلك الحادثة المحزنة حتى أصيبت أسرة الخليفة برزء جديد وهو موت الأمير المظفر عم الملك عبد الرحمن فجزع عليه جزعًا شديدا لأنه كان يحبه كأبيه وهكذا سنة الدهر فإن مصائبه يتلو بعضها بعضا.

وقال ابن خلدون فى هذا الموضوع كان الناصر رشّح ابنه الحكم وجعله ولىّ عهده وآثره على جميع ولده ودفع إليه كثيرا من التصرف فى دولته وكان أخوه عبد الله يساميه فى الرتبة فغصّ بذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث وداخل من فى قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه وكان منهم ياسر الفتى وغيره ونمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلى فيه وقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجميعن.

٤- قوّة الناصر البرية التى أخمد بها نيران الفتن التى كانت مشتعلة فى الاندلس والتى قهر بها نصارى الشمال.

وقوته البحرية التى أمكنته من الاستيلاء على سبتة مفتاح المغرب وعلى تونس القريبة من القيروان إحدى عواصم مملكة الفاطميين فى أفريقية.

وضخامة ملكه فى العمران وعظمة شأنه فى الحضارة والعرفان كل ذلك أكسبه شهرة ملأت الآفاق ودفعت ملوك الأمم الأخرى إلى الازدلاف إليه.

ففى سنة ٣٣٨ (٩٤٩) بعث إليه قسطنطين بن ليون ملك الروم رسلا يحملون إليه هدية وكتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التى كانت بين أسلافهما على خلفاء بغداد وكان الكتاب مكتوبًا بحروف من الذهب فى رَقّ ذى لون سماوى وفيه طِرس سماوى أيضًا مكتوب بحروف من الفضة يصف الهدية وأصنافها وكلاهما بالخط الأغريقى وعلى الكتاب طابع ذهب يزن أربعة مثاقيل على أحد وجهيه صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين وابنه رومانوس والكتاب موضوع فى علبة من فضة منقوش على غطائها إطار من ذهب فيه صورة قسطنطين مرسومة على زجاج ملوّن بأبدع رسم ـ والعلبة فى جعبة ملبسة بالديباج.

وكان مفتتح الكتاب ما ترجمته فى السطر الأول «من قسطنطين ورومانوس المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم».

وفى السطر الثانى «إلى العظيم صاحب المجد الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب فى اسبانيا أطال الله بقاءه».

لما أخبر الناصر بوصول الرسل إلى الحدود وجّه للقائهم القائد يحيى بن محمد تحفّه كوكبة من الفرسان فتلقاهم بالتجلّة ورافقهم فى الطريق ولما قربوا من قرطبة تلقتهم بالحفاوة فِرَقٌ من الجنود كاملة العدَد والعُدد يقودها كبار القوّاد ثم لقيهم الخَصِيَّان ياسر وتمام كبيرا الموالى أولى السلطان فى القصر الخلافى وكان هؤلاء وقتئذ من عظماء الدولة.

فكان ذلك من المبالغة فى الاحتفال بالوافدين ثم أنزلوا فى قصر فى ضاحية

قرطبة وأقيم على حجابتهم بعض وجوه الموالى ومُنِع الناس طرّا من مخالطتهم وفى ١١ ربيع الأول (٧ سبتمبر سنة ٩٤٩).

استوى الخليفة على عرش الخلافة فى قصر قرطبة السلطانى وقعد عن يمينه ويساره أبناؤه وأعمامه والوزراء والولاة والعلماء على حسب مراتبهم ووقف فى الخدمة أبناء الوزراء والموالى بأزياء بديعة وفى الحراسة جنود مدجّجة بالسلاح مرتبة الصفوف.

وقد بسط صحن القصر بنفائس البسط وكرائم الدرانك[١] وظللت أبوابه وحناياه بظلل الديباج ورفيع الستور.

فلما جىء بالرسل إلى هذا المجلس الزاهر بهرهم ما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودنَوا من العرش وأدّوا رسالة ملكهم، حينئذ أمر الخليفة أن يخطب العلماء والشعراء بما يناسب المقام فراعهم هول المحفل وأبّهة الخلافة فارتج عليهم وكان منهم إسماعيل أبو على القالى[٢] البغدادى وكان فى بطانة الحكم ولىّ العهد قام يخطب بإشارة منه فحمد الله وصلى على نبيه ثم بهت فقام الفقيه منذر بن سعيد من ذاته ووصل افتتاح القالى بكلام بليغ خلب الالباب واسترق الاسماع ولما انفرط عقد الجمع أخذ الناس يطرون منذرا ويعجبون من ثبات جنانه وسحر بيانه وأعجب به الناصر وولاّه الصلاة والخطابة فى جامع الزهراء ثم ولاّه قضاء قرطبة.

وبعد أيام انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم وزيره هشام بن هذيل بهدية من الصافنات الجياد ومن الأسلحة القيّمة المصنوعة فى قرطبة وطليطلة ليوطّد دعائم المودة بين الملكين ورجع بعد سنتين وعاد معه رسل قسطنطين.

ثم بعد ذلك وفد على الناصر رسل من ملوك أمم أوروبا: الصقالبة[٣]

---

(١) جمع درنك بكسر الدال والنون وهو الطنفسة.
(٢) نسبة إلى قاليقلا.
(٣) انظر الذنابة الثالثة.

والألمان والافرنج القاطنين وراء البرت والافرنج المتاخمين لهم من جهة الشرق ووصل مع رسولهم رسول صاحب برشلونة وطرّكونة ووصل بعده رسول صاحب رومة فاحتفل الناصر لقدومهم وأجاب رغباتهم ورجعوا معجبين بحضارة الإسلام فى الاندلس.

هذا مجمل كلام المؤرخين الذى لا مريّة فيه لكنهم اختلفوا فى أسماء ملوك تلك الأمم.

فقد جاء فى المقرى أن ملك الصقالبة يومئذ (دوقوه) وفى ابن خلدون أنه (هوتو) وفيهما أن ملك الافرنجة وراء البرّت (أوقة) وملك الافرنجة بقاصية المشرق (كلدة) وقال ابن عذارى «فى سنة ٣٤٢ قدمت رسل (هونوا) ملك الصقالبة على الناصر» وقال دوزى إن مؤرخى قرطبة يسمون ملك الصقالبة (أوتون Otton[١]) وقال رومى إن العرب يسمونه (دوقوا) آخذين ذلك من لقبه (دوق Duc) ويسمون ملك الفرنك وراء جبال البرانس (أوقة Ouketh) وهو (هوغوس Hugues) ملك إيطاليا وپروفنسا وأنه جاءت بعثة من امرأة ملك الفرنك الآخر المسمى (كلرة Kalara)[٢] وإنه جاء إلى قرطبة رسل من كونت برشلونة الذى كان يسمى (سُونْيارة Suniaire) يصحبون سفراء الملكة أرملة (شارل الشاذج Charles -le - simple) ووالدة (لويس الرابع) اهـ[٣].

وأقول إن أمبراطور ألمانيا الذى كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن هو (أوثون الأولى Othon) فإنه ارتقى على عرشها سنة ٩٣٦م (٣٢٤هـ) ومات سنة ٩٧٣م (٣٦٢هـ) وأخضع الصقالبة فيظهر أنه هو الذى بعث رسولا أو رسلا إلى الناصر.

---

(١) انظر هامش ص ٦٠ ج٣ - فى Otton زيادة نون وحذف هاء وفى (هوتو) العكس ويظهر ان الاسم الحقيقى (هو تن) فابحث.

(٢) بالراء بعد اللام وفى ابن خلدون والمقرى (كلدة) بالدال ويظهر ان أحدهما محرف عن الآخر.

(٣) ج ٤ ص ١٩٢.

وأن دوق فرنسا فى ذلك العصر كان (هوغوس Hugues) فإنه مات سنة ٩٥٦ (٣٤٥) فيظهر أنه هو الذى يحرفون اسمه إلى (أوقة).

وأنه يستنتج من مقارنة عبارة رومى الأخيرة بما فى التواريخ العربية من أن رسول ملك برشلونة وطرّكونة وصل إلى قرطبة مع رسول (كلدة) ملك الافرنجة بالمشرق أن اسم (كلدة) أو (كلرة) محرف عن (كارلة) أو (كارلوس) أو (شارل Charles) وإن لم يَخلُ الكلامان من اختلاف.

٥- كان الناصر يقوم بأعباء مملكته بنفسه ولا يكل شئونها إلى غيره فكانت تستغرق أوقاته ـ لكنه فى سنة ٣٤٤ وزّع بين وزرائه أعمال ديوانه فاختص الوزير جهور بن أبى عبدة بالنظر فى كتب أهل الخدمة والوزير أحمد بن فطيس بالنظر فى كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف والوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالى بالنظر فى تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات والوزير محمد بن جدير بالنظر فى مطالب الناس وتنجيز التوقيعات لهم فالتزم القوم ما ألزموا به وكان الخليفة يشرف على جميع أعمالهم.

٦- ساقتنا الحوادث التاريخية السالفة إلى سنة ٣٥٠ وفى ثالث رمضانها أفل نجم عبد الرحمن الثالث وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد أن حكم منها ما ينيف عن خمسين سنة.

كان واسطة عقد ملوك بنى أمية فى الاندلس يمتاز ببلاغته وشجاعته وإقدامه وعدله وكرمه ورأفته بالرعية.

أطفأ نيران الثورات التى كادت تقوض دعائم ملك بنى أمية فى الاندلس تارة بلسانه وأخرى بسيفه وقاد الجيوش بنفسه إلى بلاد الأعداء حتى خضعت له ممالك الشمال وامتد سلطانه فى بلاد المغرب من أفريقية وسارت البلاد فى عهده شوطا بعيدا فى سبل الحضارة والعمران وتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة وارتقت العلوم والفنون والآداب ولا سيما الشعر.

مما ينبئ عن رقيّ زمن الناصر ما يحكى أنه أراد الفصد فقعد بالبهو فى المجلس الكبير بأعلى قصره بالزهراء واستدعى الطبيب فأخذ المبضع وجسّ يد الخليفة فبينما هما على هذه الحالة إذ أطل زرزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد:

أيها الفاصد رفقا
بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقا
فيه محيا العالمينا

وكرر ذلك المرة بعد الأخرى فاستظرفه الناصر وسأل عمن علم الزرزور ذلك فقيل له إنها السيدة مرجانة أو ولده الحكم فوهب لها ما ينيف عن ثلاثين ألف دينار(١).

ويؤخذ من دوزى أنه فى مارس سنة ٩٦١ مرض عبد الرحمن الثالث وخيف على حياته ومع هذا نجح الأطباء فى علاجه.

وفى أول يوليو نقه من مرضه ولكن النقاهة ما كانت إلا ظاهرية فقد انتكث وعاد إليه مرضه وفى ١٦ اكتوبر من سنة ٩٦١ أسلم الروحَ إلى بارئها وهو ابن سبعين سنة حكم منها نحو تسع وأربعين سنة.

كان له المقام الأول بين ملوك بنى أمية فإنه قد جاء بالعجائب: وجد المملكة فوضى ممزقة بالأحزاب مقسمة بين جملة أمراء من أجناس مختلفة معرضة لاغارات نصارى الشمال المستمرة ومشرفة على أن يبتلعها الليونيون من جهة والأفارقة من جهة أخرى ورغما عن العقبات التى لا تحصى خلّص الأندلس من التهلكة فى الداخل والخارج وبعثها أعظم وأقوى مما كانت عليه وأكسبها النظام والسعادة فى الداخل والاعتبار والاحترام فى الخارج.

(١) نفح الطيب ج١ ص١٧٠.

وجد خزائنها خالية فى حالة يرثى لها فأفعمها بالأموال حتى بلغ دخل المملكة السنوى إلى ستة ملايين ومائتين وأربعين وخمسة آلاف دينار وكان ثلث الدخل يكفى للمصروفات العادية والثلث الثانى يدّخر والثلث الأخير يخصّص للبناء.

أكد سائح يعنى بالأمور المالية أن عبد الرحمن والحمدانى الذى كان يحكم وقتئذ فى بلاد الجزيرة (بين دجلة والفرات) كانا من أغنياء الملوك فى ذلك الزمان ولا ريب أن بين ضخامة الجباية العامة وارتقاء البلاد ارتباطا.

كانت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب زاهية زاهرة فى عصره فكان الغريب يروقه جمال المزارع وطرق أروائها الهندسية العجيبة التى كانت تخصب الأراضى المجدبة ويعجب من كمال النظام المستولى على الاقضية بواسطة الشرطة المتيقظين ويستغرب من انخفاض أثمان الأطعمة ومن نظافة الملابس ومن الرفاهية العامة التى كانت تسمح للسابلة بركوب البغال بدل السير على الاقدام.

كانت قرطبة والمريّة ومدن الأندلس الأخرى غنية بصناعاتها العديدة المختلفة.

واتسعت فى عهده دائرة التجارة وكانت رسوم الجمارك عن الصادر والوارد تكوّن الجزء الأعظم من دخل المملكة.

كانت قرطبة فى عصره تضارع بغداد فى العظمة والحضارة وقد بلغ عدد سكانها إلى نصف مليون وعدد مساجدها إلى ثلاثة آلاف وعدد قصورها ودورها إلى مائة وثلاثة عشر ألفا وعدد حماماتها إلى ثلاثمائة وعدد ضواحيها إلى ثمان وعشرين.

ذنابات:

هدانا سير تاريخ الناصر فيما مر إلى الكلام على حروبه فى أفريقية وقد كان فيها لعهده سلالتان يرجع نسبهما إلى على بن أبى طالب وهما الادارسة

والفاطميون وكان ينبغى لنا أن نستطرد حين عرضت هذه الحروب بذكر لمعة نبين فيها منشأ هاتين السلالتين وكيف تهيأ لهما بعد الانتقال من المشرق تأسيس دولتين فى المغرب ولكن رأينا الاستطراد هناك يقطع تسلسل حلقات التاريخ فأفردنا له ذنابتين:

الأولى فى الادارسة: كان لعبد الله حفيد الحسن بن علىّ بن أبى طالب ستة أبناء دوّن التاريخ لهم أعمالا هامّة فى الدين والسياسة: تفرقوا فى الجهات وبايعهم الناس لاعتقادهم أن الإمامة فى نسل علىّ ونازعوا بنى العباس فى الخلافة وحاربهم هؤلاء وفتكوا بهم واطلّوا دماءهم.

من أولئك الأبناء إدريس وهو أصغرهم كان يقاتل مع الحسين حفيد عمه الحسن الثالث أخى عبد الله وحفيد الحسن السبط بنى العباس أيام الهادى فى وقعة وج[1] على ثلاث أميال من مكة سنة ١٦٩ للهجرة.

فلما دارت الدائرة على الحسين وقتل وولّى أصحابه أفلت من الهزيمة إدريس ولحق بمصر وعاملها يومئذ مولى لبنى العباس اسمه واضح وكان يتشيع لآل علىّ فحمله على البريد إلى برقة ومعه مولاه راشد ومنها توجّه إلى القيروان حاضرة أفريقية وفيها إبراهيم بن الأغلب عامل بنى العباس.

أراد الله أن يكون لادريس دولة بالمغرب كما أتاح لعبد الرحمن الداخل دولة بالأندلس فأعمى ابصار الرقباء العباسيين عنه وكان يتزيّا بزى الارقاء تمويهًا للأنظار.

ثم انتقل إلى تِلمسان قصبة المغرب الأوسط واستراح فيها أياما ثم عبر نهر مُلوية متجهًا إلى طنجة مدينة السوس الأدنى وكان أخصب أقاليم المغرب الأقصى فلم يقم بها طويلا لأنه لم يجد فيها الوسائل التى تؤدّى إلى ما تطمح إليه أنظاره

(١) بواو مفتوحة وجيم مشددة وقيل فج بالفاء وقيل فخ بالخاء.

فتركها ونزل وَليلى[١] وكان بها يومئذ إسحاق بن عبد الحميد امير أوْرَبَة[٢] وكان من المعتزلة فقابله بالحفاوة وأكرم مثواه ودعا قبائل المغرب الأقصى إلى طاعته فأطاعوه وبايعوه على أن يكون أميرهم فى رمضان سنة ١٧٢ (٧٨٨).

خاطب ابن الأغلب هارون الرشيد فى شأن إدريس فدسّ إليه من سمّه فهلك سنة ١٧٥ وترك حظيّة حبلى تسمى كنزة فقام بأمر البربر مولاه راشد ولما وضعت جنينها سمّوه إدريس باسم أبيه وكفله راشد إلى أن قتل سنة ١٨٦ وقام من بعده بالكفالة أبو خالد العبدى إلى أن بايعوا ادريس سنة ١٨٧ وهو ابن اثنتى عشرة سنة واستوزر مُصْعَب بن عيسى الأزدى وقَتَل اسحاق كبير قبيلة أوربة سنة ١٩٢ لما أحس منه بموالاة إبراهيم بن الأغلب.

ولما ضاقت وليلى بسكانها اختط مدينة فاس ذات عدوتين عدوة الاندلسيين سنة ١٩٢ وعدوة القرويين سنة ١٩٣ فانتقلوا إليها وغزا المصامدة سنة ١٩٧ وفتح بلادهم وضايق إبراهيم بن الأغلب والى القيروان فدافع هذا عن حماه واستمال بهلولا المظفرإى وقومه عن طاعة ادريس إلى طاعة الرشيد.

فاستراب ادريس بالبربر فاتخذ زهاء خمسمائة من عرب أفريقية والاندلس نزعوا إليه بطانته فاستقام بهم سلطانه وعجز الاغالبة عن مدافعة الادارسة وهلك إدريس سنة ٢١٣ وخلفه ابنه محمد وأشرك أخوته فى سلطانه باشارة جدته كنزة فقسم المغرب بينهم فكان من نصيب القاسم طنجة والبصرة[٣] وسبتة ـ وعمر صناجة وغمارة وداود هوراة ومكناسة ـ وعبد الله اغمات[٤] وجبال المصامدة

(١) بفتح أوله وكسر ثانيه ورابعه مدينة بالمغرب قرب طنجة ـ ياقوت.

(٢) أوربة بفتح فسكون ففتح قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

(٣) البصرة هنا غير بصرة العراق وهى بلد فى أقصى المغرب قرب السويس خربت وكان بينها وبين فاس أربعة أيام.

(٤) اغمات ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش وهى مدينتان ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الاقصى بأربع مراحل وهى سجلماسة ثمانى مراحل وبينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ.

وبلاد لمطة[١] والسوس الاقصى ـ ويحيى أصيلة[٢] وعيسى سلا[٣] وأزمورة[٤] وحمزة وليلى وأعمالها.

خرج عيسى بأزمورة على أخيه محمد طالبا الأمر لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع فأوقع عمر بعيسى ثم بالقاسم وغلب على ما فى أيديهما فصار ريف البحر الرومى من بلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وريف البحر المحيط من سلا إلى أزمورة من عمل عمر واتسعت ولايته إلى أن هلك سنة ٢٢٠ بصنهاجة فنقل إلى فاس ودفن بها وهو جد بنى حمود المستولين على قرطبة عند انقراض ملك الأمويين.

وولى الأمير محمد عمل أخيه لولده على بن عمر وهلك محمد سنة ٢٢١ بعد أن استخلف ابنه عليا وهو ابن تسع سنين فكفلته بطانة أبيه واطاعته سائر البربر وكانت أيامه خير أيام ومات سنة ٢٣٤ وخلفه أخوه يحيى فامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستجدت فاس فى العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وفى عهده اختطت سيدة مثرية تسمى فاطمة المسجد الجامع وكان أبدع بدائع المغرب.

ومات يحيى فخلفه ابنه يحيى فاساء السيرة فثارت به العامة وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الاندلسيين فمات بها.

وبموته انقطع عقب محمد بن إدريس كذا يؤخذ من ابن خلدون.

ويؤخذ من ابن عذارى أن الذى خلف محمدا ابنه يحيى فلم يحسن سياسة

---

(١) لمطة بالفتح ثم السكون أرض وقبيلة من البرب بأقصى المغرب.

(٢) أصيلة أول مدينة العدوة مما يلى الغرب والبحر بغربيها وجنوبيها وهى بغربى طنجة بينهما مرحلة.

(٣) سلا بالفتح مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غرنيطوف.

(٤) أزمورة بثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم بلد بالمغرب فى جبال البربر.

الملك لأنهماكه فى الشراب ولهوه بالنساء وأنه دخل يومًا الحمام على امرأته فتغير عليه أهل فاس فهرب إلى عدوة الاندلس ومات بها.

وخلفه على بن عمر صاحب الريف فجاء إلى فاس وبايعوه واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجى وملك منه عدوة الأندلس وألجأه إلى أورية وخلفه فى عدوة القرويين يحيى بن القاسم بن ادريس وأخرج الخارجى من العدوة الأخرى وطالت امارة يحيى بفاس إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ وخلفه يحيى بن ادريس بن عمر صاحب الريف فتفرد بملك الغرب وفاق اسلافه سلطانا وعلما ولكن فى عهده أخذ الفاطميون يمدون بساط ملكهم فى أفريقية ومدوا انظارهم إلى ملك المغرب فأغزى إليه عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين قائده مصالة بن حبوس لمكناسى صاحب تاهرت سنة ٣٠٥ (٩١٧) فى رجالات مكناسة وكتامة فأوقع بيحيى صاحب فاس وهزمه إليها وحاصرها ثم صالحه على الخراج والطاعة لمولاه وعلى عمل فاس خاصة وولى ابن عمه موسى بن أبى العافية كبير مكناسة يومئذ أعمال المغرب ما عدا فاس ورجع فكان بين موسى ويحيى شحناء فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة ٣٠٧ وقيل سنة ٣٠٩ أغراه موسى بيحيى فغدر به واستصفى أمواله وضم أعمال فاس إلى موسى ومحا دعوة الادارسة من المغرب واجهضهم عن أعماله فتحيزوا إلى بلاد الريف وغمارة واستجدوا بها ولاية.

بذلك سقط نجم الادارسة من المغرب وظهر كوكب الفاطميين فى أفريقية ـ ومع هذا فى سنة ٣١٣ عاد الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس إلى فاس وطرد منها ريحان عامل موسى وملكها عامين وحارب موسى لكنه انهزم إلى فاس فلما دخلها ابن أبى العافية فر الحسن ومات أثناء فراره وكان يعرف بالحجام لأنه تكرر منه عند القتال إصابة موضع المحجم وقد قال فى ذلك:

وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لضربى فى مكان المحاجم

استولى موسى على ملك فاس واجلى بنى محمد بن القاسم بن ادريس إلى الريف فنزلوا البصرة وولوا عليهم إبراهيم أخا الحسن الحجام فاختط حصن حجر النسر ٣١٧ وخلفه أخوه القاسم ونزع إلى الفاطميين وقام بدعوتهم كما نزع موسى ابن أبى العافية إلى خليفة قرطبة وقام بدعوته فى المغرب والسبب فى ذلك أن الشيعة أرسلوا قائدهم حميد بن يصل إلى المغرب فانتزع فاس من عامل موسى سنة ٣١٧ وولى عليها حامد بن حمدان لكن بعد عودة حميد إلى أفريقية قام أهل فاس وقتلوا حامدا وابنه وبعثوا برأسيهما إلى موسى فبعث بهما إلى قرطبة ـ وكان بنو عمر بن ادريس يومئذ بغمارة فانتزع الناصر منهم سبتة سنة ٣١٩.

ومن أبناء عبد الله حفيد الحسن السبط السالف الذكر سليمان دخل المغرب بعد هلاك أخيه ادريس وملك تلمسان واطاعته زناتة وخلفه ابنه محمد واقتسم بنوه ثغور المغرب الأوسط فكانت جراوة لابنه ادريس ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش ـ ووليها الحسن بن أبى العيش سنة ٢٩١ وانتقل عنها إلى تلمسان سنة ٣٢٥.

الثانية فى الفاطميين: الفاطميون فريق من الشيعة يقولون إنهم من نسل فاطمة الزهراء زوج الإمام على وإن رسول الله ﷺ أوصى له من بعده بالإمامة على المسلمين وأنها صارت من على إلى الحسن ثم الحسين ثم ابنه علىّ زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ وهؤلاء الشيعة يسمون بالإمامية واختلفوا بعد هذا الإمام السادس فقد كان له ولدان أحدهما إسماعيل ولى عهده لكنه مات قبل أبيه سنة ١٤٥ وثانيهما موسى الكاظم خلف أباه.

فأغلب الشيعة الإمامية يرون أن الإمامة صارت من جعفر إلى ابنه موسى ثم ابنه علىّ الرضا ثم ابنه محمد التقى ثم ابنه على الهادى ثم ابنه الحسن العسكرى ومات هذا سنة ٢٦٠ للهجرة وترك جنينا وضعته أمه وسمته محمداً زعموا أنه دخل مع أمه سردابا فى جامع سامرا فلم يعد وأنه حى واتخذوه إمامهم ولقبوه

المهدى وهم الآن ينتظرونه فهو عندهم المهدى المنتظر والإمام الثانى عشر ـ ولذلك يسمون الاثنى عشرية.

ويروى أنهم بعد صلاتهم المغرب يقدمون مركبًا بجهازه وحليته إلى السرداب وينادونه «أيها الإمام اخرج الينا فإن الناس منتظرون والخلق حائرون والظلم عام والحق مفقود فاخرج الينا تقرب الرحمة من الله فى آثارك» ومذهبهم منتشر فى المدينة والشام والعراق.

وقد تصدى خلفاء بنى العباس لأئمة الاثنى عشرية بالاهلاك فقد أشخص هارون الرشيد موسى الكاظم من المدينة إلى بغداد وحبسه حتى مات مسموما سنة ١٨٣.

وبعد أن عهد المأمون لعلى الرضا بالأمر من بعده وكانا بخراسان سمه (على ما قيل) فى الطريق إلى العراق بطوس سنة ٢٠٣.

وقال بعضهم إن المقتدر سم عليا الهادى سنة ٢٥٤.

وحبس الحسن العسكرى بسامرا حتى هلك سنة ٢٦٠ ودفن فى جامعها المعروف بالمشهد وفيه السرداب الذى تزعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه.

والقليل منهم يرون أن الإمامة حلت فى إسماعيل فإن الله عهد بها إليه على لسان أبيه جعفر والاله لا ينقض عهده وأنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبيد الله المهدى صاحب الدولة الفاطمية فى أفريقية.

وهؤلاء هم الإسماعيلية وكان أئمتهم مستورين ولهم دعاة ظاهرون فقد أنفذ امامهم جعفر إلىّ أفريقية الحلوانى وأبا سفيان وقال لهما «بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجىء صاحب البذر» فنزلا أرض كتامة ففشت دعوتهم فيها.

وأنفذ إمامهم محمد الحبيب وكان ينزل سلمية من أرض حمص بالشام رسم ابن الحسن بن حوشب الكوفى إلى اليمن لاقامة دعوتهم فيه ومبشراً بقرب ظهور المهدى فسار إلى عدن ودعا وبشر وقاتل وغلب حتى ملك صنعاء من بنى يعفر.

واجتمع به وهو فى عدن أبو عبد الله الحسين الصنعانى وحضر مجالسه وأخذ عنه فانفذه ابن حوشب إلى المغرب حين بلغه الحلوانى وصاحبه.

وقيل إن أبا عبد الله كان محتسبًا بالبصرة ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية فاتصل بمحمد الحبيب فأرسله إلى ابن حوشب وهذا أرسله إلى كتامة بعد ان زوده بعلمه فسار إلى مكة فلقى بموسم الحج رجالات كتامة ورؤساءهم وفيهم من لقى الحلوانى وأبا سفيان وأخذ عنهما فاستمالهم إليه بعلمه ودهائه فألفوا صحبته ودعوه إلى بلادهم فرافقهم ومروا بمصر وسلكوا طريق الصحراء عادلين عن طريق القيروان مركز حكومة بنى الأغلب.

ودخلوا كتامة سنة ٢٨٠ (وقيل ٢٨٨) فنزل أبو عبد الله الشيعى فى فج الأخبار من بلد إنكجان أو إيكجان ودعا الناس إلى مذهب الشيعة وأعلن إمامة أهل البيت فاتبعه أكثر كتامة وأخذ أمره يستفحل شيئًا فشيئا حتى انتزع البلاد من أيدى بنى الأغلب وفر أميرهم الأخير (زيادة الله) من مدينة (رقّادة) وملكها الشيعى سنة ٢٩٦.

فى هذه الاثناء مات الإمام محمد الحبيب وخلفه ابنه عبيد الله المهدى فدعاه الشيعى من المشرق وألقى إليه مقاليد ملك أفريقية فنزل رقادة سنة ٢٩٧ وسكنها إلى أن أكمل بناء (المهدية) على البحر ٣٠٦.

وبناء على ما سبق يكون عبيد الله المهدى ابن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وقيل عبيد الله المهدى ابن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ـ وعلى كلا القولين ينتهى نسب المهدى هذا إلى على بن أبى طالب.

وقد أثبت صحة هذا النسب بعض المؤرخين وذهب آخرون إلى أنه موضوع

وأنه لم يكن اسم المهدى (عبيد الله) بل اسمه (سعيد) وأنه ابن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان وأن هؤلاء زنادقة نشئوا فى بلاد فارس وابتدعوا مذهبا شطوا فيه عن الإسلام وأولوا نصوصه كما شاءت أهواؤهم ووضعوا الأحاديث الكاذبة وشككوا الناس فى دينهم وادعوا أن تكاليف الشرع قيود للعامة ساقطة عن الخاصة وأحلوا الاخوات والأمهات.

وكانوا يظهرون التشيع لآل البيت ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة إليهم وكان لهم دعاة فى البلاد يظهرون الزهد والعبادة ليغروا الناس بذلك وهم على خلافه.

وان جدهم الأعلى ديصان واضع كتاب الميزان فى نصرة الزندقة وقد تعلم عبد الله القداح الطب وعلمه أبوه المذهب وأطلعه على أسرار هذه النحلة وسمى قداحا لأنه كان يعالج العيون ويقدحها.

وسار القداح من كرج وأصبهان إلى الاهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان وسلمية من أرض حمص يدعو الناس لآل البيت ثم توفى وخلفه ابنه أحمد وادعى أنه من سلالة على بن أبى طالب وصحبه ابن حوشب الكوفى فأرسله إلى اليمن، ثم خلفه ابنه محمد وكان يكاتب الدعاة فى البلاد.

وخلفه ابنه الحسين وسار إلى سلمية وكان ذا أموال ووكلاء وغلمان فتزوج امرأة يهودى مات عنها ولها منه اسمه (سعيد) فأحبه الحسين وتبناه وأدبه وعلمه وعرفه أسرار الدعوة وعلاماتها وعهد إليه بالإمامة فخلفه بعد وفاته وتسمى (عبيد الله المهدى) وجعل له نسبا وهو (عبيد الله بن الحسن بن على بن محمد بن على ابن موسى جعفر الصادق...) وهذا النسب يدل على أنه جعل نفسه مهدى الاثنى عشرية المنتظر.

وقد انتشرت دعوته وبذل الأموال وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعى رجالا من كتامة ليخبروه بما أتيح له من النصر وأنهم ينتظرون وشاع الخبر وبلغ المكتفى

العباسى فطلبه فهرب هو وولده إلى أفريقية وأسس فيها الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦[١].

ويؤخذ من دوزى أن أصل الفاطميين من الفرس وأن جدهم عبد الله بن ميمون الفارسى كان طبيبا للعيون حاذقا فى الفلسفة واللاهوت وبلغ من أمره أن هم بالتنبؤ لولا أن رأى آيات الخذلان فانحدر إلى منزلة (المهدى المنتظر) فأحيا مذهب الإسماعيلية[٢] وكاد يتقلص ظله عقب ان حل باشياع على ما حل بهم من الخيبة والفشل فى مقاصدهم وقتل كثير منهم بالحديد والسمّ وانزواء بقاياهم فى خراسان وقندهار.

وكان له دعاة فى سائر الجهات يبشرون بقرب ظهور المهدى المنتظر تمهيدا له أو لمن يخلفه فى سيادة هذا المذهب من أبنائه.

ومن هؤلاء الدعاة (أبو عبد الله الصنعانى) دخل أرض كتامة من أفريقية سنة ٢٨٠هـ وكان نشيطا جريئا فصيحا ذا دهاء ومكر عارفا ما يلائم عقول البربر فأخذ يدعو الكتاميين إلى محبة أهل البيت ويعدهم بخير الدنيا والآخرة اذا هبوا بسلاحهم لنصرتهم ويبشرهم بأنه سيظهر قريبًا من نسل فاطمة بنت النبى ﷺ إمام معصوم يقيم قسطاس العدل بين الناس وأنه المهدى الوارد فى الحديث المأثور وما زال يخلب قلوبهم بسحر بيانه وقوة عارضته وبرهانه حتى صدقوه ومالوا إليه وقاموا تحت لوائه وكانوا أولى قوة وكثرة فانتزعوا المدائن من يد آخر أمير من بنى الأغلب بعد أن حكموها حقبة تنيف عن قرن من الدهر والجئوه إلى الفرار من (رقّادة) حاضرة القيروان.

وفى سنة ٢٩٦ دعا هذا الشيعى سيد مذهب الإسماعيلية فى ذلك الوقت

---

(١) ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء.

(٢) لعله يقصد الاثنى عشرية فان مذهبهم هو الذى كاد يتلاشى لقتل أئمته وفقد إمامهم الثانى عشر واحياء هذا المذهب هو المناسب لمقصد ابن ميمون.

(سعيد) من ذرية عبد الله بن ميمون طبيب العيون وأجلسه على سرير ملك أفريقية فادعى سعيد أنه من نسل جعفر الصادق وسمى نفسه (عبيد الله المهدى).

الثالثة فى السلاف أو الصقالبة: السلاف عند الافرنج هم الصقالبة عند العرب أما الافرنج فيعرفون السلاف بأنهم نوع من الجنس الهندى لاوربى يمتاز بأخلاقه ولغاته ويقسمونهم إلى ثلاثة شعوب كبيرة: السلاف الغربيون فى الروسيا والبروسيا والنمسا والسلاف الشرقيون وهم روس الشرق والسلاف الجنوبيون ومنهم البلغار والصرب وفى أوربا منهم ما بين ٨٠ و ١٠٠ مليون.

وأما العرب فيعرفونهم بأنهم جيل من الصقلب بن يافث حمر الألوان صهب الشعور تتاخم بلادهم بلاد الخزر وبعض بلاد الروم بين بلغر أو بلغار وقسطنطينية ويسكن كثير منهم بلاد الخزر وجزيزة صقلية وفيها موضع يقال له صقلب أو حارة الصقالبة ولواحدهم صقلبى.

كان الجرمان يقاتلون الشعوب السلافية ويطلقون على أسراهم اسم (السلاف) ويبيعونهم إلى عرب اسبانيا فكان هؤلاء يطلقون عليهم اسم (الصقالبة) ثم توسعوا فى استعمال الاسم فأطلقوه على مواليهم المجلوبين من أية أمة أخرى.

وكان منهم من يخطفهم لصوص البحر (القرصان) ومنهم من يشترون من موانى ايطاليا.

وكان اليهود يتجرون فيهم ويتصيدون الأطفال ذكورا وإناثا ويحملونهم على السفن إلى أسبانيا ليبيعوهم إلى أهلها ـ وفوق ذلك كانوا يجلبون أيضًا خصيانا من فرنسا لخدمة سيدات اسبانيا.

ولما كان يجاء بهؤلاء الصقالبة صغارا كان من السهل أن يتدينوا بدين ساداتهم ويتكلمو بلسانهم ويتخلقوا بأخلاقهم ـ وقد اعتنى بتربية كثير منهم فكان منهم قواد وعلماء وشعراء ـ وكان خليفة اسبانيا يتخذ صقالبته من الجلالقة والفرنك (الفرنسيس والالمان) وغيرهم من البيض والسود وقد كثر عددهم فى

عهد عبد الرحمن الثالث فى خدمة قصره وفى شرطة قرطبة حتى بلغ ١٣٧٥٠ وكان منهم (نجدة) القائد العام الذى كان سبب فشل جيش قرطبة فى غزوة (الحندقة) على رأى دوزى كما سبق.

obeikandl.com